علي تراز

(رباعية بحري ٤)

محمد جبريل

علي تمراز

(رباعية بحري ٤)

تأليف

محمد جبريل

هنـــداوي

علي تمراز

محمد جبريل

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٤ ٣٤٠١ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٩.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ محمد جبريل.

المحتويات

في انتظار ما لا يجيء	٩
النذير	١٥
العودة إلى البحر	٢٣
تنافر السبل	٢٩
أصوات بلا أصداء	٣٥
التذوق ... للمعرفة	٣٩
بحر بلا ساحل	٤٣
العصفور يُفلت من القفص	٤٧
السباحة في بحار الشوق	٥١
صراع	٥٧
سكوبا	٦١
لم يبقَ إلا البحر	٦٧
أُفُق بلا غيوم	٧٧
الاتهام	٨٣
الستر والتجلِّي	٨٧
التحليق بلا أجنحة	٩١
ملامح ضائعة	٩٩
الطيران بجناح الهمة	١٠٥
السير في نفق الحيرة	١٠٩
خوف المفارقة	١١٥

وقائع ظهور قناديل البحر ١١٩
بحر الأنس ١٢٥
انتقال إلى الأسمى ١٣١
الوقوف على باب الولاية ١٣٥
الشمس في أفق المغيب ١٤١
انكشاف السر ١٤٥
حقائق الاتصال ١٥١
حلاوة القرب ١٥٥
الاستغراق ١٥٩
الدخول في دائرة النور ١٦٥
كوكب الصبح ١٦٩
ذلك النهار ١٧٣
الآن ... عرفت ١٧٩

عيني رأت غليون في وسط البحور شاحط
ريِّسه جدع جد يا خسارة دفته راحت
قُبطانه اتعمى والمَيَّه عليه ساحت
ولا باسهر ارتاح ولا بانعس يجيلي نوم
حتى الشراع انقطع فيه حتة طيبة راحت

من موَّال للصيادين

في انتظار ما لا يجيء

صعدت إلى سطح البيت. مسحت النجوم المبثوثة في السماء السوداء، تختفي لمرور سُحب صغيرة متناثرة، ثم تعاود الظهور.

كانت الليلة شتوية. الهواء البارد ينداح بصفير مُوحِش، في الحواري الضيقة، الملتوية. البيوت أغلقت نوافذها، فبدَت ساكنة الواجهات. وثمَّة رائحة نفَّاذة، تترامى من موضع لا تتبيَّنه.

تكرر الحمل والإجهاض، فلم يعُد أمل الإنجاب ماثلًا — وحده — في أُفُق الأشهر التالية. تستعيد فترات الترقُّب، والصدمة المتكرِّرة. يضيف إلى توتُّرها ما تتعاطاه من أدوية، يكتبها لها الأطباء في مستشفى الملكة نازلي.

داخت من اللف على الحكيمات والمستشفيات والمشايخ والمقامات والأضرحة. كنست مقامات أبو العباس وياقوت العرش والبوصيري وخضر ونصر الدين. وزَّعَت ما أخذته بنثره على جسمها، وفي طست الحمَّام، لجأت إلى ضاربي الرمل وقارعي الودَع ومفسِّري الأحلام والأحجِبة والقواقع والأصداف. أعدَّ لها الحاج محمد صبرة خلطات أعشاب، عادت بالمأمول على كثيرات، واستعملت الدهانات والسفوف. اختلطت في أنفها روائح القرفة والزنجبيل والخلنجان وتين الغليل وعرق الجناح وحبَّة البركة وعود القرع والفانيليا. كتب لها الشيخ مكي عبارة «المصوِّر جل جلاله». طلب أن تقرأها كلَّ يوم إحدى وعشرين مرَّة على صوم بعد الغروب، وقبل الإفطار، سبعة أيام على ماء. تنفث فيه، وتشربه، فيثبت الولد في رَحِمها بإذن الله.

كانت تكتم تشوُّقها إلى أطعمة ترافق أيام حملها الأولى. تخشى رفض سيد، وتَلْميزه، ومُعايرته.

تضيق بالأسئلة، والنظرات المُشفِقة، والمَصْمَصات، والنصائح بأعشاب، ووصفات. تحزن للعبارة: عقبال عوضك، ففي داخلها ما يجب أن تعوضه. يؤلمها السؤال: ألا يوجد شيء في السكة؟

فاجأتها زمزم بالقول: يا أم الحاضر.

أردفَت لعينَيها المتسائلتَين: تعشَّمي في حضوره بإذن الله!

أدركت أن المرأة تقصد الحلم الأمنية.

أكدت زمزم المعنى: غدًا تزهقين من رعاية الأولاد!

ثم في نبرة محرِّضة: لن تستطيعي امتلاك زوجك ولا بيتك إلَّا بالخلفة.

قالت لها الكودية نظلة: إذا حلبت نجمك، فسينقطع الحيض من ثاني شهر!

أين نجمها في هذه السماء الواسعة؟

ثمَّة مشاعر تنداح في داخلها، وهي تطلُّ من النافذة على الأولاد يلعبون في الشارع، وهي ترى أمًّا تحمل طفلها في الترام، وهي تمضي في صراخ المواليد يعلو حولها في مستشفى الملكة نازلي.

لماذا الناس يُنجبون؟ ولماذا هي لا تنجب؟

قدَّر السلطان ظروفها، وتوسَّط سيدي ياقوت العرش، فأعطاها كمال مصباح تاجر المانيفاتورة شقة البلقطرية. لا تتصوَّر أن الله يعاقبها على ما لم يكُن لها حيلة فيه.

نسيت الكلمات المداعبة، والضحكة. تمضي الأيام، أربعة أيام أو خمسة، لا يتبادلان كلمة واحدة. حلَّت بينهما جفوة الصمت. ما يصل بينها وبينه خيوط واهية. تمدُّها بمحاولات إرضائه. يهمل الْتِقاطها، ويظلُّ على صمته. الْتَقى بناس من كفر الدوار. عاد إليها ليروي ما حدث. لو أنَّها الْتَقت بأبيها، أو إخوتها، أو ناس من القرية: هل يعرفونها بالملاءة اللف والبرقع؟ وكيف تواجه الأمر؟ تحاول الاختفاء، أو تقف لترد على الأسئلة، وتشرح البواعث، أو تستضيفهم في الحياة المستقرة؟ يناوشها القلق: هل يظلُّ سيد والشقة والبلقطرية، أو تتغير الظروف إلى ما تتوقعه، وتخشاه؟

أعطاها كمال مصباح الشقة بأمرٍ من سيدي ياقوت العرش. لا تستطيع — إن طلَّقها سيد — برفض الناس أن تظل فيها.

توقعت أن يغادر البيت، فلا يعود. يرمي عليها يمين الطلاق. يتزوَّج ثانيةً. غلبها الخوف. لم تعُد تدري لماذا، ولا كيف. تنتبه بأذان المغرب. تزيل عن جسمها رائحة تعب النهار. تبدِّل فستانها. ربما جرت بالقلم الأحمر على شفتَيها، ولمست خدَّيها بقطعة

قطن مغموسة في البودرة. تقف وراء النافذة المواربة تتوقَّع مجيئه. تُقبِل عليه، تصدُّه، تخضع، تُعاير، تصرخ، توبِّخ، تطلب الطلاق. يُعلن التأفُّف، ويترك البيت. تلاحقه في الكشك. تُصالحه. تذكِّره بطيبته، وبالعِشرة. تظلُّ في النافذة، لا تتحرك، حتى يطالعها شبحه في أول البلقطرية.

يبدو كل شيء حلمًا. تصحو، فتُسعفها ذاكرتها بما رأته، وتحزن. تُعاني رغبةً في البكاء، أو في اللطم، أو في تَرْك البيت، والجري — حافيةً — في الشوارع.

أَلِفَت توقُّفه — لا تناقشه — أمام باعة الصنف، على الرصيف، وفي القهوة، ووسط الطريق. يسلِّمه البائع، ويتسلَّم منه. وأَلِفَت أسماء الغبارة والربع قرش ودهان العفريت والصاروخ والدتورة وجوزة الطيب.

كثر تردُّده على سوق الترك. يشتري تحويجات وسفوف ودهان. تضمن له الإطالة حتى تزهق المرأة. يدس ما يشتريه في سيَّالة الجلباب، يحرص فلا يلمحه أحد.

انتتر بتلقائية إلى الوراء، حين قدَّم له خميس شعبان تحويجة في برطمان صغير: مجرَّد لحسة قبل النوم تجعل المرأة تفيق.

قال سيد: المرأة ليست مقصِّرة ... أنا أريد الخلفة.

قال خميس شعبان: كيف تطلب الخلفة من امرأة باردة؟!

تداخلت في صوته بحَّة: أنا لم أتكلَّم عن برودة ولا سخونة ... أريد أعشابًا تساعد على تثبيت حمل المرأة!

الإنجاب، الخلفة، الأولاد. الامتداد الذي لا قيمة للحياة بدونه.

ليتك إذَن ما جئت. ليتك تموت!

واجهته بالسؤال: ماذا لو أن الله لم يرزقنا بالخلفة؟

اختلجت شفتاه: هذه مصيبة لم أفكِّر فيها!

وهز سبَّابته في وجهها: نحن موتى بالحياة لو لم نُنجِب!

يطالبها بما لا تقوى عليه، بما لا تملك تنفيذه. هي تملك الدعوات والابتهالات والتوسُّل ببركات الأولياء والرقى والتعويذ والأحجبة. ما عدا ذلك، فهو ملك الله. تمنحه إرادته، ويمنعه إن شاء. تترقَّب، وتخشى، كلمة يقطع بها خيط العلاقة.

متى؟

كسا وجهه بهدوء، لا يُتيح لها أن تتعرَّف إلى ما بداخل نفسه، وما ينوي فعله. قناع من السكينة الهادئة، المتوترة. إذا حدث ما تخافه، لن تستطيع الحياة في بحري. لن تقوى على مواجهة الناس في صورتها القديمة. ربما انتهى بها الحال إلى السير على البحر!

تأمل الطبيب الأشعة جيدًا، ثم قال: العيب ليس في الرَّحِم.

ونقر بالقلم على المكتب: أنتِ في حاجة إلى تحاليل.

واستطرد في تنبُّه: والزوج أيضًا.

ثم في لهجة مشاركة: ربما كان العيب من زوجك.

قالت أنسية: وماذا أفعل؟

كتب كلمات في ورقة صغيرة. دفعها لها: انصحيه بإجراء هذه التحليلات.

وشى صوت سيد بانفعاله: تضحكين على نفسك؟ أُجري تحليلًا لو أنك لا تحبلين!

وهي تنظر إلى الأرض: وما له؟ ربما البذرة ضعيفة.

رمقها بعينَين متعبتَين: ما كان يحدث الحمل.

همسَت بلهجة مُحرِّضة: لن تخسر شيئًا ... لماذا لا تحاول؟

تكوَّرَت قبضته، واهتزَّت: هل تريدين تشكيكي في نفسي؟!

أزمعت أن تترك الأمر لإرادة الله، لكن الهاجس الذي لا تدري مبعثه — هل هي الأمومة؟ — كان يلحُّ بما يصعب مغالبته. لو أن العيب من جانبه: هل يوافق على علاج نفسه؟ وماذا لو أنه عالَجَ نَفْسه — دون أن تعلم — وفشل؟! إنها أكثر حاجة منه إلى الولد، حتى تظل حياتها معه. حتى يستمر زواجهما. لا ينهيه خصام، ولا مَشاهد ممَّا يحدث بين الأزواج. لا تظل أسيرة القلق والتوجُّس والخوف من قادم الأيام. لا تشعر أن حياتها معه مُعلَّقة في الهواء، بلا خيوط تُبقي عليها.

لَمن كانت تُعِد الأقمطة والأغطية والمرتبة الصغيرة؟!

كان قد أقلع عن الكيف. لم تعُد تجِد في جيوبه ما كان يُودِعه فيها قبل أن ينتقلا إلى البلقطرية.

ضحكت من قلبها لملاحظته: أليس غريبًا أن أبطِّل المزاج بعد أن سكنتُ مع تجَّارِه؟!

ثم وهو يُعيد خصلة الشعر المتهدِّلة إلى موضعها: أنا لا أسأل حتى عن السعر وهم يقفون به على الرصيف.

وضعَت يدَيها على كتفَيه: لا شأن لنا به ولا بسعره.

قال ليطمئنها: حتى قِطع المجاملة أعتذرُ عن قبولها.

وأبعدَ ذراعَيها برفق: نحن أصحاب عيال.

لم يعُد يربط بين ترقُّب الخلفة، والإقلاع عن المخدرات، وإن لم يعُد إلى تعاطيها.

لماذا عاد؟

قالت كالمتذكِّرة: حلمت هذه الليلة ما أدعو الله أن يجعله خيرًا.

وبصقت من فوق كتفها ثلاث مرات: اللهم اجعله خيرًا.

أومأ برأسه يستحثها على الكلام: رأيت رجلًا لا أعرفه، وإن لم يبدُ غريبًا عنِّي. يرتدي عباءة بيضاء، ويضع على رأسه عمامة بيضاء، ويدسُّ قدمَيه في خُف أبيض. اتسعت ابتسامته في وجهي، وقال: ربنا يعمل ما فيه الخير. ثم اختفى.

شابَ صوتَها تذلُّل: معنى الحلم أن الفرج قريب. أليس كذلك؟

وضربت بطن يدها بظهر اليد الأخرى: أنا الرابعة بين ست بنات وثلاثة أولاد.

وافتعلَت ابتسامة: أمي كانت أرنبة. وأنا قطعة حجر!

ظلَّ سيد على صمته. خمَّنَت أنه يُذيب فصًّا تحت لسانه.

حين عاد سيد من الخارج، فوجئ بنثار الأطباق المكسورة في الصالة.

نظر إلى أنسية، ونظرت إليه.

أدرك ما حدث، فظلَّ على صمته.

النذير

«جَذْبة من جَذَبات الحق تُوازي عمل الثَّقَلَين.»

حديث شريف

قال أبو الحسن الشاذلي:

«المُحب على الحقيقة مَن لا سلطان على قلبه لغير محبوبه، ولا مشيئة له مع مشيئته.»

قال أبو الحسن الشاذلي:

«ومن أوصافهم تطهير النفس من كل خُلُق دنيء، وتحليتها بكل خُلُق سني، يتحملون الأذى ولا يُؤذون، ويحملون كل الناس ، ولا يحملون كلهم على أحد، ويعينون على أسباب البر، ويغيثون الملهوف، ويُرشدون الضال الجاهل، وينبِّهون الغافل، ولا يتخذون حجابًا ولا حُجَّابًا، وكل مَن طلبهم وجدهم، وكل مَن أرادهم وصل.»

علا صوت الشيخ أحمد أبو دومة في ترحيب: أهلًا بأبي الشهيد!

تبيَّن ضيقه في إغماض عينَيه، وتجعد جبهته، فسكت عن السيرة.

قال إبراهيم سيف النصر وهو يقذف بالجريدة جانبًا: وزارة التطهير!

وعلا صوته في أسًى: تطهير مصر من الفدائيين.

قال أدهم أبو حمد: العمل الفدائي الآن أكبر من الحكومة، ومن الإنجليز أيضًا.

تفِدُ إلى ذهنه كالأطياف مشاهد متداخلة، غير مكتملة: القفز من السيارة في انحناءة الطريق إلى معسكرات رأس التين. المبنى الصغير أعلى كوم الدكة. شخطة أبيه في الصرخة المنفعلة من فم أمه. امتزاج الفرحة بالقلق لصراخ الوليد في الغرفة المغلقة. أنت بطل، لا بد أن تنال جزاء الأبطال. البرد القاتل تلطمه به نوة العوة وهو يصعد الطريق إلى رشدي باشا. خوف الليلة الأولى في الزنزانة الرطبة. ادعُ للاستقلال، أنقذك من حبل المشنقة. الوجه الأبيض ذو العينَين الباسمتَين في نافذة الشقة المقابلة. رائحة ياسمين من حديقة قريبة تملأ نفس الليل. عساكر الإنجليز يقودونه إلى العربة أسفل البيت. المياه الراكدة والذباب والهاموش وروائح العطن. الرجل لا يعيبه سِنُّه ولا مكانته. البيوت — على البُعد — صغيرة، متناثرة، تتخلَّلها مئذنة مسجد، وقمينة لحرق الطوب، ونخيل، وأشجار. السير المتباطئ في زحام شارع الميدان، ومحطة الرمل ... هواء الصباح المُشبَع برائحة البحر ... ليلة المولد: البيارق والرايات والدراويش والمجاذيب والدعوات والابتهالات وحلقات الذكر ومجالس الإنشاد ... تناهى بكاء طفل من نافذة مُغلَقة. الشوارع الخالية، المُوحِشة، يسودها الظلام، فيما عدا الكلوبات المتناثرة على أبواب الدكاكين وعربات اليد ... جلسات النساء في مداخل البيوت ... استاد الإسكندرية، ومبنى الإسعاف، والمشرحة، والكوبري المُفضِي إلى محرم بك.

قال فهمي الأشقر: ألم يكُن من المفروض أن يبدأ علي ماهر مفاوضاته مع الإنجليز؟

قال المهدي اللبان: هذا هو المفروض. لكن الرجل — لأسباب يعلمها الملك — حمل أوراقه ومضى.

قال الشيخ قرشي: الملك منذ إعلان انتسابه إلى آل البيت يعمل بالوحي.

قال المهدي اللبان: ربما تحول إلى وليٍّ يسقط التكليف، ويُطالبنا بالتجاوز عن جرائمه!

قال أدهم أبو حمد: ما يدهشني أن وزير الأوقاف الوفدي — بعد ثلاثة أشهر من إقالة حكومته — شارك في وضع تقرير مع نقيب الأشراف يثبت فيه بالكذب نسب فاروق إلى سلالة الرسول بالشهرة والتواتر!

قال الشيخ قرشي: أي شهرة، وأي تواتُر؟ نازلي حفيدة سليمان باشا الفرنساوي من نسل الرسول؟!

قال إبراهيم سيف النصر: الأغرب أن يُعلن هذا النسب بعد أن جرَّد الملك أمه من لقبها!

قال فهمي الأشقر: وما الفرق إذا كان المرء من الأشراف أو لم يكُن؟

أردف للنظرة المتسائلة: مجرد سؤال!

قال الشيخ قرشي: لا فرق! وإن كان انتسابه للأشراف يُعطيه قوة روحية!

قال أدهم أبو حمد: الوفد يأمل في العودة إلى الحكم.

وارتعشت شفتاه: ألم يرفعوا إلى الملك — بعد إقالة الحكومة — محضر جلسة مولد الأمير أحمد فؤاد على صفحتَين من ورق الغزال ... والعنوان بماء الذهب!

قال الشيخ قرشي: الشيخ عبد الحفيظ سأل في خطبة الجمعة عن الفرق بين نجيب الهلالي وعلي ماهر؟

قال سيف النصر: هو الفارق بين توءمَين.

قال أبو حمد: بهذا المنطق، فإن التوائم في الحكومة بعدد رجال السياسة!

قال أبو دومة: يحسب لعلي ماهر تخفيض أسعار الكثير من المواد التموينية. السكر والغاز والأقمشة الشعبية وغيرها.

واتجه إلى إبراهيم سيف النصر بنظرة مجاملة: كلها زيادات قرَّرَتها حكومة الوفد.

قال أبو حمد: رفع الهلالي شعار التطهير. وهو أمر يطلبه الجميع.

فوت سيف النصر الملاحظة: ما شأن التطهير بفتح المعتقلات، وتعطيل الدستور، وتسريح مجلس النواب ذي الأغلبية الوفدية.

وعلا صوته: هل يتصوَّر أحد أن زعيمَين مُهمَّين في الوفد تُحدَّد إقامتهما؟

سأل فهمي الأشقر: مَن؟

قال سيف النصر: فؤاد سراج الدين وعبد الفتاح حسن.

قال حمدي رخا: وماذا عن وجود الإنجليز في القناة ... هل عُدنا إلى البداية؟

رنا الشيخ قرشي إلى القادم بنظرة مودة: كيف حالك يا شيخ جابر؟

حين ظهر جابر برغوت، بعد حادثة مدرسة البوصيري، كانت نظرات الناس قد تهيَّأَت لاحتضانه بمشاعر دافئة. أسكن الله القلوب حُبه. أدركوا أنه من أرباب الأحوال، واعتقدوا في ولايته. اعتبروه من أكابر الأولياء، وأرباب العلوم، والأسرار، والكرامات الهائلة.

أَلِف الناس رؤيته أمام مدرسة البوصيري.

يجلس على الرصيف المقابل، أو لصق الضريح. ربما جلس على مقعد في المكتبة الصغيرة المواجهة للمدرسة. يشغله أن يكون غاية في القرب من مقام سيدي الأنفوشي. هذا ما أوصاه به سيدي ياقوت العرش، ووصية الأولياء واجبة التنفيذ. أَلِفُوا فترات صمته، سادرة عميقة. ينظر إلى ما يرونه، ويصيخ سمعه. ربما هَمْهَم بكلمات مُدغَمة، يخصُّ بها ناسًا مجهولين. ربما غادر مكانه، فيراه الناس في صحون الجوامع، وفي الشوارع، وعلى الكورنيش. يبذل همَّته في فعل الطاعات. يحرص على الفرائض والسُّنن، وصلاة الضحى،

وطهارة النفس، والبدن، والثوب. يردِّد آيات القرآن، وأسماء الله الحسنى، والأدعية. يكرُّ حبات السبحة.

تواترت كراماته.

تلاقت روايات في أنه مُجاب الدعوة، كثير الإخبار بالمغيبات. وكان يوجد في أكثر من مكان في وقت واحد. ينزل الدرجات الخشبية بمسجد الشوربجي، يطوف بالمبخرة — وهو يبسمل ويحوقل — أمام المنبر والمحراب في سيدي عبد الرحمن. يمشي في زحام شارع الميدان، يتمدَّد على رصيف الكورنيش. ربما سعى إلى مسجد محمد كريم بالقرب من سراي رأس التين. يحلو له الجلوس تحت القبة الكبيرة، تحتها كمرات ضخمة من الخرسانة، تؤلف زخرفة نجمية. يدخل الضوء فيحيل التجويف كرة من النور.

قيل إن الرجل لم يعُد هو. انسلخ من حوله وقوته. لبسه سيدي الأنفوشي. ظهر له في المنام، وأنبأه بأنه سيركبه كما يركب الجواد. يتكلَّم باسمه، وينطق كلماته. وقيل: إن عباءته مُهدَاة من سيدي الأنفوشي. فرح بها الشيخ تبرُّكًا بآثار الولي الجليل. صارت له — من يومها — كرامات، وخوارق، وعادات، ومظاهر شطح، وكان إذا احتاج شيئًا دعا به، فاستجاب الله له. أكَّد ذلك قدرة الشيخ على معرفة المجهول، والتنبؤ بالغيب، ومعرفة ما سيظهر في المستقبل، والتطلُّع إلى مشاهدات لا يراها أحد.

عُرِف عنه النصح بأدوية للمرضى والممسوسين، والقدرة على إخراج الشيطان من نفوسهم، فهو مملوء بالمعارف الإلهية. كل شيء أشار باستعماله تحقَّق به الشفاء. ورآه صيَّادو الجرافة واقفًا على شاطئ الميناء الشرقي. لم يتأكدوا إنْ كان يُتابع صيدهم، أم أنه ينظر إلى ما لا يرونه. فاجأهم بالسلام، ثم مشى على الماء، حتى اختفى. وقيل: إنه يخبر الناس بما أكلوه وشربوه، وما فعلوه في بيوتهم، وما جرى بينهم وبين أزواجهم، ويحدِّثهم بما في ضمائرهم، وما ينوون فعله. ويمدُّ يده في الهواء، يستعيدها مملوءة بالمال الذي يُعطيه للفقراء، ثم يمضي. وكانت عصاه تُضيء له الطريق إنْ سار في الظلمة. فإذا لامس مريضًا بعصاه، فإن العصا تشفي من المرض حالًا. وكان يمرُّ على رأس المريض بيده، ويتلو آيات، ويقرأ أدعية، ثم يأخذه بيدَيه: قُم بإذن الله!

لجأ إليه الصيادون فيما يواجههم من شدائد البحر ومضايق البر. تسلَّل إليه نسوة حوامل في ظلمة الليل، يصعدن سلالم مدرسة البوصيري. يدفعن الباب الموارب. يضعن يد الشيخ على بطونهن، يسألنه عمَّا يحملنه إنْ كان ذكرًا أم أنثى، أم أنه — لا قدَّرَ الله — خنثى. وقيل: إن الساطور نزل على إصبع الأورمجي ياسين زغلول وهو يهوي به على

الأورمة، فأطاره. لحق برغوت صراخه، وبصق على موضع القطع، ووصله باليد، فعادت إلى حالتها. وكان إذا أحسَّ العطش، نظر إلى سحابة عابرة. تهمي عليه قطرات، يفتح لها فمه، حتى يرتوي. ويميل بجسمه من فوق مكعب أسمنتي، أسفل الكورنيش. طعامه ما تخرج به راحته من الجندوفلي.

حصلت له من الله عناية. زالت الوحشة، وطابت الحياة، وحصل الجلال والهيبة. تضوَّعَت رائحة المسك الأذفر من تحت قدمَيه، وظهر النور من قلبه على وجهه. لم يعُد أحد يستطيع النظر إليه من النور والإجلال. مَن يلمح في عينَيه أمارات شك، يؤذيه في نفسه. يخبله، أو يقعده، أو يخسف به الأرض، فلا يعرف أحد له طريقًا. ورُوِي أنه إذا غضب على إنسان، سمَّرَه في مكانه. ورآه الناس يحمل سيفًا خشبيًّا يُحارب به مَن لا يراه أحد، يصرخ في وجهه وهو يوجِّه الضربات المتوالية: ما لكم لا تسمعون كلامي؟ إني لو كلمت أسفلت الطريق لتأثَّرَ من كلامي.

لمحَهُ أمين عزب من النافذة المُطِلَّة على سيدي علي تمراز. صعد السلم الدائري إلى المئذنة.

هل ترك الرجل مدرسة البوصيري؟ وأين ذهب الشيخ قرشي؟

تحلُّ عليه ألفة الوحدة — دون توقع — يملؤها الأسى. تظله سحب الوحشة. يُعاني الإحساس بالحنين والذبول والإحباط والعجز والغربة والوحشة والهزيمة والاضطهاد والقهر والجدب. تذوي دعاوى النفس، وتذهب أمارات كبريائها. يعيب على الخلق عدم المجاهدات، وغفلة القلوب، ولزوم الفساد. اختلفوا، وتنازعوا، وتفرَّقَت أحوالهم. سعوا إلى هلاك أنفسهم، فانهمكوا في المخالفة، وسلكوا في الخروج عن الطاعة مسلك مَن تقدَّمَهم. ذاقوا أذية النار في بيوتهم وأموالهم، نذيرًا بتذوُّقها في أنفسهم. عميت البصائر، وغامت الأفهام، فلم يتدبروا ما حدث. ظلَّ الأمناء على الدين في ضآلتهم، وكثر الحريصون على الدنيا، وقلَّ المتفقهون، أو أنهم تفقهوا لغير الدين. خلا السبيل للأشرار، وأصحاب البدع، والآفات الباطلة، وتاركي الفرائض، وفاعلي الحرام، والمجاهرين بالمعاصي. آلَت الأمور إليهم، والمراهنة في صالح بدعهم ونزواتهم، بعيدًا عن الإقدامات الإصلاحية. لم يخلصوا في مجاوزة الجهل إلى العلم، ولا الضلال إلى الهدى، ولا الشقاوة إلى السعادة. اضطرب البحر، وتلاطمت الأمواج، وأشرفت السفينة على الغرق.

حصلت له الرغبة في التصوف. لا يدري متى تيقَّظَت في داخله، ولا كيف امتلكت إرادته. تمنَّى أن يشهده الله المراقبة في خلواته، ويرى في مراقبته ما لا تراه الأعين. غذَّى

القلب بتلاوة القرآن، وأدَّى الصلوات الخمس بوضوء واحد، ولم تكُن تأتي عليه لحظة إلَّا وهو يذكر الله. لم يعُد يسمع، أو يقرأ، شيئًا من العلم إلَّا حاول تثبيته في ذهنه، وحفظه. لازمَ ذكر عبارة «الولي جل جلاله» كل ليلة جمعة، ألف مرَّة. توسَّلَ أن يجد — بذكرها — تيسيرًا في أموره، ويصبح وليًّا من أولياء الله الصالحين. دفعه الشوق والانجذاب إلى ما لم يكُن يتصوَّر أنه سيُقبل على تعلُّمه. سقى قلبه بماء العرفان، فأورق، وأثمر، وإنْ غلبه التيقُّن بأنه ليس من أهل الولاية الخاصة، ولا أهل الكشف، أصحاب الحقائق، وأرباب التوحيد، الموسومين بأنوار القرب. هو من جملة السائرين إلى الله، لا من زمرة الواصلين. اختيار الله لعبده خير من اختيار العبد لنفسه، والأقطاب اختارهم العلي، ولم يختاروا أنفسهم. أعدَّهَم الله لأحوال مخصوصة، ووضع فيهم من إرادته، وخصَّهم بولايته، وأذاقهم حلاوة مناجاته. ليس في سماء أسرارهم غيوم، ولا في هوائها ضباب، فهم يتنزَّهون بالأسرار ومشاهد التسبيح في رياض الذكر. لم يعُد يطمع في مقام، ولا كرامات، ولا مكاشفات تبين عن نفسها بعد وفاته.

ثمَّة ما عجز عن فهمه، ووصفه، كأنما قُيِّدَت نفسه بالتهيُّؤ لتلقي الإشارة، فهي قد امتلأت بأنوار المحبة، وسلطان الاشتياق، وصنوف المواجيد. يشعر بالسر، وإنْ لم يلامسه، ولا سمع صوته. دعا الله أن يزيل عنه النسيان، والغفلة، وقساوة القلب، ويُعينه على أمور الدنيا. هو الذي يملك السمع والأبصار والقلوب والرزق والضر والنفع والحياة والموت والبعث والشفاعة والرحمة. أدركَ أنه يحمل ما لا يحمله سواه من البشر. الصفاء من حوله تحوطه سَكينة هادئة، وإن تناهت أصداء الألحان التي لم يسمع مثل جمالها، ولا فيضها، ولا إشراقها.

فاجأ الناس في شارع الميدان بعصًا ينهال بها كيفما اتفق.

علَت الصرخات، وتدافعت أقدام الزحام تفسح أمامه الطريق. لم يبدُ أنه تنبَّه إلى الصخب الذي أحدَثَه. صعد درجات جامع الشوربجي. أطلَّ على الأعين المتسائلة، الخائفة. قال: فكيف تواجهون عذاب يوم عظيم؟!

والْتَمعَت عيناه ببريق غاضب: لو أني أملك نزع جلودكم لفعلتُ. الْتَصقَت فيها الأحقاد والضغائن فلا تزول.

وتحسَّس بغلة على جانب الطريق، دسَّت بوزها في مخلاة العليق. قال: متى تحمل البغلة لتنتهي الدنيا؟

قال حمدي رخا: سمعتُ خبرًا عن حملات اعتقال للفدائيين.

أردف للذهول في الأعين المحدِّقة: سمعتُ الخبر في محطة الشرق الأدنى!

قال أدهم أبو حمد: هذه محطة إنجليزية.

قال إبراهيم سيف النصر: استمعتُ إليها. هل تتوقَّع أن تقدِّم الإذاعة المصرية أغنية تقول: فتكلم فتألم فتعلم كيف تكره؟

تبدَّل سيف النصر في اللحظة التالية. تكلم، وناقش، وأطلق الدعابات، وضحك من أعماقه كمَن لا يشغله شيء.

قال الشيخ قرشي: لَمن نستمع إذَن؟

قال سيف النصر: رحم الله أيام عبد الله الكاشف. لم يكُن الراديو يُفارق أذنه.

انتظمت رسائل عبد الله الكاشف. مكتوبة بخط مشكول، جميل. بدا مطمئنًا إلى حياته الجديدة في بركة غطاس، وإن اختصر في عباراته. تباعدت رسائل الكاشف بقدر تكاسُله في الرد عليها. ثم انقطعت الرسائل تمامًا. يتذكَّره في جلسات القهوة، وإذا مشى أمام البيت المواجه لجامع سيدي البوصيري. ربما تذكَّرَه بلا سبب.

قال المهدي اللبان: الليلة الخميس الأول من الشهر.

رفع أدهم أبو حمد عينَيه الساجيتَين: ماذا تقصد؟

قال المهدي اللبان: أم كلثوم ... هذه ليلتها.

قال أدهم أبو حمد: أنا لا أقوى على السهر ... وإن كنت أحبُّ صوتها.

قال إبراهيم سيف النصر: أصارحكم بأنه إذا أصابني صداع عالجتُه بسماع أم كلثوم.

قال فهمي الأشقر: فلنأمل إذَن وجود صوت الست في الأجزاخانات.

قال سيف النصر: أم كلثوم بالنسبة لي مراحل حياة ... كل أغنية تذكِّرني بأيام، بعضها جميل، وبعضها لا أعاده الله!

قال فهمي الأشقر: تعجبني شادية ... صوتها طفل.

قال أبو دومة: ولكنه لا يطرب.

قال سيف النصر: دع الطرب لأم كلثوم.

قال فهمي الأشقر: في الفترة الأخيرة ظهرت أصوات أخرى لا بأس بها؛ شهرزاد، وهدى سلطان، وفايدة كامل ...

قاطعه أدهم أبو حمد: ألا تعجبك سوى أصوات النساء؟

قال فهمي الأشقر: بالعكس. صوت عبد الوهاب يحتفظ حتى الآن بعذوبته.

علَت الصيحة بالنشوة، فاضطربوا.

ذاق لذة الإخلاص.

داعبت وجهه نسائم كأنها مسُّ الحرير، ورائحتها كالمسك. ملأه الشعور بأنه يملأ الكون. لحظات السكينة والصفاء والمناجاة، المُسربلة بالأسرار والخفايا والبواطن والرموز والإشارات. استيلاء الذكر، واطمئنان القلب، وسلطان الشهود، والإلهامات، والتجليات، وفيوض البحر الإلهي.

هل تنهتك أستار الريب، ويسطع فجر العرفان، وتطلع شموس التحقيق، فتنقشع سُحب الغيبة، وينجلي ضباب الأوهام، وتصفو سماء الحقائق مجلوَّة، مُشرِقة؟

مضى — دون أن يتلفت — ناحية إسماعيل صبري.

غاب في زحام شارع الميدان.

العودة إلى البحر

كان الصباح رماديًّا، ومرسى المراكب يتنفَّس الهدوء، حين فك الحبل من البروة، وقفز إلى لنش حمادة بك، وانطلق.

رحلة العودة — بعد ما حدث — نصف ساعة، أو أقل. ظلَّ البلانس في اتجاهه إلى الأمام، حتى ظهرت نصف الدائرة في امتداد الشاطئ بين السلسلة وقلعة قايتباي.

مضى باللَّنش في الاتجاه نفسه، وهو ينظر إلى الساعة المثبَّتة في التابلوه.

كان يتمشى بلا هدف، عندما رأى مفتاح اللنش متدليًّا من الموتور.

طقَّت الفكرة دون تدبُّر. أسقط الأسئلة والتوقعات.

يعلم أنه خرج لملاقاة سمكة بالذات. لا يدري تمامًا إن كانت كذلك، أم أنها وحش بحري، كما روى الرجال وأمَّنَ المعلم عباس الخوالقة، أم هو جن بحر، كما قال حمودة هلول. هو لن يستطيع ركوب البحر إلا إذا لقيها، تنتظر لقاءه. تصارعه. يقتلها، فيُتاح له العودة إلى البحر.

لما أسند الحقيبة القماش الصغيرة على كتفه، واتجه إلى داخل السيالة، كان يدرك أن رفضه لِما قرَّرَه عباس الخوالقة بلغ حدَّ القطيعة.

غادر حلقة السمك إلى الناحية المقابلة. ابتلعَتْه الشوارع الضيقة، الملتوية.

كان المعلم بمفرده يُحصي إيراد اليوم.

ظلَّ في مكانه إلى جانب الطاولات الفارغة.

– الجد السخاوي.

علَت وجه الخوالقة ابتسامة فاهمة: أعرف ماذا تريد أن تسأل عنه؟ لماذا أوكلت إليه وحده مسئولية البلانس؟

في صوت ممزَّق: طول عمري السكوندو …

قاطعه الخوالقة بإشارة من يده: أنا أدرَى بالصح والخطأ.

شوَّح بيده في تهوين: ما واجهناه في البحر مجرَّد سمكة.

رمقه بانعكاسات ضِيق: هل رأيتها من قبلُ؟

لَمْلَم جرأته: وهل رأينا كل أنواع السمك؟!

فاجأه استطالتها بالقرب منه. كأنها تقف بذيلها على الماء. لم يلحظ وجودها، ولم يلحظ حتى الخدوش في ذراعه، وهو يدفع — بعفوية — ارتطامها به. انطلقت الحَربة من يد إبراهيم فرغلي. أصابتها في كتفها، فانطلقت في سرعة مُذهِلة، وفي مدارات متقاطعة. وكان قد ومض في عينَيها ما أرعَبَه.

وهو يخطو على السقالة للرحلة التالية، منعه عباس الخوالقة بإشارة من يده: خذ إجازة يا قاسم.

حدَجَه بنظرة متسائلة: لماذا؟

قال الخوالقة في صوت باهت: الوحش يترصَّد لك. قد يُغرق البلانس كله.

داخلت صوته ارتعاشة: إنه مجرَّد سمكة ... ولا تعرفني.

أدار الخوالقة عينَيه: يعرف رائحتك ... ولن يفلتك إذا ركبتَ البحر.

واجه الرفض عند كل المعلمين.

بدَت السمكة، المخلوق الهائل، الوحش الذي لم يُرَ منه سوى عينَين ناريتَين، مساويًا لحياته. لن ينزل البحر ما دام الوحش في أعماقه. ما دام قد عرف رائحته، وينتظره. تخايل له، لاحَقَه، ارتسم له في أشكال لا تنتهي. حتى الصورة التي ظلَّت في باله لأيام، تداخلت بصور أخرى، رسمها الرجال، وأضاف إليها. جاوزت الصورة المحددة، وإن مالت إلى الطول والامتلاء والسحنة المخيفة.

همس حمودة هلول: لعله جِنِّي أغضبَتْه مخاواتك لجِنِّية البحر.

وانتزع ابتسامة: لعلك أخذتها منه.

الجد السخاوي تحدَّث — ربما لجرأته — عن مخاواته لجنية. أنت مخاوي يا ولد. تلقَّف القول، وتفاخر به.

قال: هذا مجرَّد كلام.

قال هلول في جد: الجد السخاوي لا يقول إلَّا ما يَعنيه!

قبل أن يغيبه زحام شارع الميدان، ظهر أمامه فكري، جرسون قهوة مخيمخ. دسَّ في يده ورقة مطوية، واختفى في الزحام.

رنا — بعفوية — في طريق العودة إلى الوجه الباسم في المشربية المُطلَّة على شارع الموازيني.

عندما سأله فكري في جلسته على قهوة الزردوني، تلفَّت في حيرة: إنها سيدة متزوجة.

قال فكري: أصارحك بأني كلمتُها في ذلك. قالت: إنها لا تحبه.

تململ في جلسته: ولماذا قبلَتْ؟

اقترب بفمه من أذنه: قالت: إنها لم تتزوج منه باختيارها. فرضه أهلها عليها!

دفعه الغرياني في كتفه: لا أقيم علاقة مع امرأة متزوجة.

رمقه فكري في توجُّس: هل هذا هو الغرياني الذي يعرفه؟

بدا التوجُّس ذهولًا عندما فزَّ قاسم: يكفيني وحش واحد!

ظلَّ على اندفاعه إلى الأمام، وإن بدا الطريق كثير الانحناءات، مملوءًا بالنتوءات الصخرية والطحالب والأعشاب.

هل أدرك عباس الخوالقة أنه يقذف به بعيدًا عن دنياه: البحر والبلانسات والصواري والقزق والغزل والمداري والجرَّافات والصيد والحلقة والسمك والجو العدل والغليني والشرد والنوات ونفضات الشعير وسحابات الطير ورائحة الملح. لا يتصوَّر دنيا غيرها.

لا بد أن يأذن له الخوالقة بالعودة إلى البحر، وملاقاة السمكة، الوحش، الجسم الهائل، الجِنِّي. قال الخوالقة نفسه: توقَّع الخطر أقسى من مواجهته. ربما مضت الأعوام، فلا ينزل البحر.

خالط تحدِّيه خوف في اقترابه من المنطقة التي لا بد أن السمكة الهائلة ظهرت فيها. امتد الزمن، واتسع، واختلط، وتشابكَ. تحوَّل إلى لحظة واحدة، فاصلة بين الحياة والموت. لم يشعر — من قبلُ — بهذا الخوف. تلاحقت أنفاسه. علا صدره، وهبط. ارتعش في وقفته، وارتعش كل جسمه. حتى أسنانه اصطكت، فلا يستطيع إيقافها. تحسَّس السكين الطويلة على جانب البنطلون، وتمتم بما أسعفه به لسانه من آيات القرآن.

تعثَّر في وقفته لمروق طائر بالقرب من أذنه. تساند — حتى لا يسقط — على البروة.

حدَّق في سطح البحر الساكن. الأسماك الصغيرة تتقافز. تُحدث صوتًا كالهسيس، والمد يُلقي بالأعشاب الخضراء، الداكنة.

تنبَّه لصوت احتكاك بجانب اللنش. ثار الموج الساكن، واهتزَّ اللنش، وتمايلَ في وقفته. استند إلى البروة براحة يده اليسرى، وانتزع السكين باليد الأخرى. اتجه بنصلها إلى توقُّع الخطر.

صرخ لانبثاق الموج أيمن اللنش، عن جسم هائل، لم يتبيَّن ملامحه، وإن فطن إلى العينَين الناريتَين تعلوان الخلقة الغريبة. ليس إنسانًا، ولا حيوانًا، ولا سمكة مما يشغى بها البحر، ويعرفها.

لطم الجسم الهائل جانب اللنش بذيله العريض. تصوَّرَ — لشدة اللطمة — تحطُّم اللنش. مال اللنش. دفعه هيجان الموج إلى وجهة أخرى.

مال بدوره، وأطلق السرعة، فطار اللنش فوق المياه.

أبطأ من سرعته في مواجهة السؤال: هل يعود إلى الشاطئ، فلا يركب البحر ثانية؟

عاود تحسُّس السكين المُدلَّاة بجانبه، والْتَقطَ من الأرضية عمودًا من الحديد، وأدار عجلة القيادة إلى الناحية المقابلة.

بدا الوحش كأنه ينتظره. بُعد المسافة أتاح له تأمُّله، الطول البادي فوق الموج يشي بأنه أقصر مما يتذكَّره. الجسم لسمكة وإن بدا بلا زعانف، والذيل عريض. وكان متحفزًا، متوثبًا، يهم بما لا يتوقعه.

اندفع الكائن نحو اللنش كعاصفة تداخلت مع الأمواج، عمود دخان تعالى في الجو. لطم بذيله جانب اللنش. قذف به بين الأمواج، علَت، توالت، تكسَّرَت على جوانب اللنش. شعر باللنش يتأرجح ويتمايل. لم يعُد ثمَّة أُفُق. اختلطت المشاهد، وتمازجت، وتشوَّشَت. بدت مزق صور، ونقاط ضوء متباعدة.

تساقطت المياه داخل اللنش. لم تستطع الفتحات تصريفها. انحرف ثانية، وانطلق إلى نتوء صخري تعلوه طحالب وأعشاب. أطال الوقفة وراءه، حتى خلت أرضية اللنش من الماء. تلفَّت حوله. ثم أدار الموتور. ولفَّ — عائدًا — حول الصخرة الصغيرة.

لم يكُن الوحش — حين عاد — في موضعه.

بدا الموج حصيرة، وإن حلقت فوقه طيور دائمة الصراخ.

خمَّن أنه أفلت منه. أطال تأمُّل الموضع. الأمواج تلال صغيرة، وأشعة الشمس تسقط في زاوية حادة على سطح المياه، حزم متشابكة من الأشعة المضيئة، تبين فيها أسراب الأسماك المتداخلة. وثمَّة قطع سُحب داكنة، تزحف من الأفق، والريح «طياب» مشبعة برائحة الملح واليود والأعشاب، وكركرة بلانس تترامى من بعيد.

أحسَّ بوجود الكائن الغريب، وإن لم يتبيَّن موضعه.

أدرك أن الوحش يُراوغه، يُغريه بالمساحة الممتدة بلا أُفُق، فيصعب عليه الفرار. شعر بجفاف في حلقه، وبما يُشبه الاختناق يضغط على صدره. حبل الْتفَّ حول عنقه، فهو لا يقدر على التنفُّس.

صرخ — بعفوية — لطلوع الجسم الهائل من الناحية المقابلة. عيناه الثاقبتان، الثابتتا النظرة، وجسمه الهائل، المكتنز، الدائم الاهتزاز، وشاربه الكثيف، وزعانفه كأنها أشرعة صغيرة، متداخلة. وكان ينفث دخانًا أبيض من فتحتَي أنفه وعينَيه وأذنَيه.

امتلأت أرضية اللنش بدفعات من الماء، فقاربت حافته الموج.

داخله في وقفته خلف الصخرة إحساس بالعجز والهزيمة. وتخاذل ساعداه. لم يعودا قادرَين على الحركة.

تملَّك الوحش هياج. اندفع الدخان من فتحتَي أنفه، ثارت الأمواج لقوته، وفاضت المياه على جانب اللنش.

نسي الخوف من الوحش، والخوف من الموت نفسه.

استجمع ما تبقى من قواه. جزَّ على أسنانه، وتقلَّصَت راحته على السكين.

مال بها إلى الوراء، ودفعها — بآخِر ما عنده — في الجسد المتطاول.

تنافر السبل

افترقا على صيحة عم محجوب.

حدَّق ليتأكد مما رأى. الأنوار داخل الحمَّام مُطفأة، فيما عدا لمبة وحيدة أمام الباب الموارب.

ضغط على زر النور القريب. تأمَّلَ العصا في يد الولد، والحبال كتَّفَت يدَي الرجل وقدمَيه، والملابس الملقاة في ركن المربع.

خمَّنَ ما حدث، فصرخ: يا أولاد الأبالسة. هل خلت الدنيا من النسوان؟!

فاجأته سحنة حمادة بك. غالب ارتباكه: ما هذا يا حمادة؟ ماذا يفعل هذا الولد معك؟

الْتقطَ حمادة بك ملابسه من ركن المربع، ارتداها بلهوجة. دفع عم محجوب بأصابعه، وجرى خارج الحمام.

كان قدوم الليل يُخيفه.

تصدُّه الظلمة عن السير في الشوارع الضيقة، المُفضِية إلى شارع إسماعيل صبري.

الحكايات تغادر به القهوة خائفًا من الأشباح والموتى والجان والعفاريت، يُعطي لها انتباهه، لا يشارك فيها، فهو لم يرَ ما يتحدَّث الرجال عنه، لكنه يثق — من خلال التأكيدات — بوجودها، ويخاف مطاردتها. يتصوَّرُها في أشكال وتكوينات، يتوقَّع ترصُّدها له في الأماكن المُظلِمة والخرابات والبيوت المهجورة، حيث تفضِّل العيش. قد تُفاجئه في حنية السلم وهو يصعد إلى الشقة، يستعيذ، ويبسمل، ويتمتم بعدِّية يس. يتوقَّع زوالها، وإن ظلَّ الخوف هاجسًا يُناوشه.

كان يفضِّل الشوارع ذات فوانيس غاز الاستصباح على جانبَيها، في طريقه بين البيت والمسافرخانة والحجاري وقعدة محمد صبرة وقهاوي الزردوني والمهدي اللبان وفاروق

وجوامع المرسي أبو العباس ونصر الدين والبوصيري وياقوت العرش وعلي تمراز ومقامات أولياء الله.

حاول أن يطرد الخوف بقراءة سورة يس، وآيات من جزء عم. اصطنع الغناء بصوت مرتفع. استدعى إلى لسانه ما لم يحاول اختياره.

قبل أن يتجه من ميدان الأئمة إلى الموازيني، لحقه صوت الشاب: كيف أصل إلى حمام الأنفوشي.

وهو يشير إلى ناحية شارع التتويج، شده في الشاب ما لم يتبينه على وجه التحديد. في حوالي الثامنة عشرة. أميَل إلى النحافة والطول. شعره مجعَّد، له قُصَّة تنزل على جبينه، وعيناه ساجيتان مطمئنَّتان، وشاربه خفيف فوق شفته العليا. يرتدي جلبابًا أزرق، له فتحة في الصدر، تبرز منها فانلة متآكلة الأطراف، ومثقوبة، ويدس قدمَيه — لاحظ اتساخهما — في حذاء كاوتش ثنى جزءه الخلفي. يُداري مظهره الأنثوي بصوت ينتزعه من حنجرته.

قال مدفوعًا برغبة في أن يأخذ ويُعطي: الحمام لا يفتح ليلًا.

همس الشاب: أعرف.

– هل تقصد مكانًا بالقُرب منه؟

قال الشاب في صوته الهامس: أنا أقيم فيه.

في نبرة مُبطَّنة بالود: تقرب لعم محجوب؟

غالب الشابَّ ارتباك، ولم يُجِب.

توقف حمادة بك عن المشي، واتجه ناحيته.

قال لمجرَّد أن يحدِّثه: ماذا تعمل؟

فرَدَ راحتَيه: أقصد وجه الله.

وهو يُعيد نظرته: لماذا لا تعمل في الحمام؟

رفع إليه عينَين مرهقتَين: الحمام لا يحتاج إلا إلى خفير.

رسم ابتسامة متودِّدة: المكيساتي مهنة مُربِحة.

ران على صوت الشاب تخاذُل: لا أعرفها.

ثم وهو يعتصر كفَّيه: الحمام لا يحتاج إلا إلى خفير.

قفز الخاطر الجهنمي إلى ذهنه دون تفكير، وبلا تدبُّر. قذف البركان حممه في غير موعد، وتوالى وميض البرق، كأنما سواد الليل تحول إلى نثار، وقصف الرعد، وهطل المطر في صفاء الجو، وتراقصت الأشباح والتهاويل، وهزت الريح — في امتداد الشاطئ — أوراق الشجر وسعف النخيل، وساخت القدمان في الرمال الساخنة، الناعمة، واختلط صياح

الديكة في الأسطح القريبة، وتتابعت الأمواج، وتلاحقت، والْتَمعَ زبد الماء تحت انعكاسات أشعة الشمس، وتصاعدت رائحة الشواء فوق جمرات الفحم المتقدة، وترامى صوت فرقعة سوط حوذي، وحفَّت أفانين اللذات والأغاني.

داخلت صوته ارتعاشة واضحة: أنا أحتاج إلى مكيساتي يساعدني في استعادة عافيتي.

إلحاح الخاطر أرعشَ صوته وجسمه. كانت الرغبة تُفاجئه بمناوشتها. تُحيطه الغابة المسكونة بالصراخ والبكاء، والأصوات الهامسة، والصاخبة، والمتلاغطة. يتصاعد في داخله ما يصعب فهمه، ولا يقوى على كتمه. تسيطر على نظرات عينَيه. تفتِّش عن المعنى في قعداته، وفي نظرات ناس الطريق. ربما تجتذبه عينان تشيان بانفراجة الباب إلى غابة السحر والنشوة.

لم يكُن قد تردَّد على الحمام منذ الزيارات الجماعية لتلاميذ مدرسة راتب باشا الابتدائية. المربعات التي يصل ارتفاعها إلى طول القامة، يتصاعد منها البخار الساخن، ووشيش نزول الماء من الأدشاش، ووَقْع القباقيب على الأرضية، والأصوات المتلاغطة تترامى بما لم يكُن يعرفه، ولا استمعَ إليه.

كانت دلائل البلوغ تُدهشه، حين رآه الجد السخاوي يتأمل الرجال الواقفين تحت الأدشاش: انجر من هنا.

ذوَت النشوة في داخله. لم يعُد إلى الحمَّام من يومها، وإن تعرف إلى عم محجوب من تردُّده على فرن التمرازية، وقهوة الزردوني.

غياب الرخام الساخن عوَّضَه بالتمدُّد على البسطة المُفضِية إلى داخل الحمام. بدا الشاب متحيِّرًا: ماذا يفعل؟

أشار برأسه: هات ليفة وصابونة وماءً فاترًا.

همس باللذة: كُن قاسيًا. لا تخجل من إهانتي.

قال الشاب: لا ذنب لي. هو الذي …

تحيَّر عم محجوب بين مواجهة الشاب، وملاحقة حمادة بك الذي اختفى في الظلمة.

واجه الشاب بعينَين جامدتَين: ماذا؟ هو الذي ماذا؟

ارتعش أنف الشاب بالخوف والارتباك: الْتقيتُ به في ميدان أبو العباس، فصحبني إلى الحمام.

تنمَّرَت ملامحه: هذه أول مرة أراه هنا. أما أنت فتُجازي إيوائي لك بكبيرة؟!

تقطَّعَت شهقات الشاب في نشيج مرتفع: سألني أين أقيم. أصرَّ أن يصحبني.
ثم وهو يُخفي وجهه براحتيه: عرف ظروفي، فعرض تشغيلي ...
قاطعه عم محجوب: في الكومبانية؟!

عندما وقف الشاب على باب الحمام، قال عم محجوب: الحمام بالمجان. والمبيت ممنوع.

وهو يهز رأسه: أعرف!

تهيَّأ لإغلاق الباب: الحمد لله.

قال الشاب في مداهنة: أطمع في كرمك. ثلاث ليال. أحضر فيها مولد أبو العباس.

رمقه بنظرة باردة: هذا مولد. لا أحد يسأل عن أحد.

عاود الشاب إلحاحه: جئت بمفردي. ولست مريدًا في طريقة.

نبَّه عليه الصاغ عاطف شوقي مأمور نقطة الأنفوشي بألَّا يأذن لمخلوق بالمبيت في الحمام، حتى مَن يأذن لهم بمجرَّد الدخول، عليه أن يتثبت أنهم من أبناء الحي. كلَّمَه عن الفارين من الجماعات السياسية. مَن يشك فيه يُغلق الحمَّام عليه، ويُبلغ نقطة الأنفوشي القريبة.

كانت الشوطة أصعب أيامه.

أملَت عليه الأوامر أن يقتصر دخول الحمَّام على الموظفين وتلاميذ المدارس. غاب عن الحمام قاسم الغرياني وحمودة هلول ومحيي قبطان وخميس شعبان. من ألف قدومهم قبل أن يطلع الصبح. توالى قدوم تلاميذ المدارس، وطلبة المعهد الديني، والسحن الغريبة لرجال يرتدون البدل والجلابيب والجبب.

نظر الرجال إلى الشاب في ريبة، وتهامسوا بأسئلة، ولَّحوا إلى جلسته على باب الحمام، بالقرب من عم محجوب.

قال — ليُسكت فضولهم — إنه قريبه.

قال قاسم الغرياني: أخيرًا. ظهر لعم محجوب أهل!

لم يكُن من أهل بحري، ولا من أهل الإسكندرية. السنوات التي أمضاها في الحمام، وتردُّده على الجوامع والقهاوي، ومعرفة الصيادين، جعلَتْه من أبناء المدينة. لم يعُد يذكر العسيرات إلَّا أن يلتقي — كل حين ومين — بأحد أبنائها عند أبو العباس. عرف مواعيد النوَّات، وموالد الأولياء، وأنواع السمك، وحكايات البحر. وكان يروي للرجال ما يعكس

لذة المتابعة في عيونهم: أبو زيد والزناتي والسندباد والجازية وسيف بن ذي يزن والزيبق والسفيرة عزيزة، وشخصيات أخرى يخترعها، ويُضيفها إلى السيرة والحكاية، يُبالغ في روايته حتى يأخذ انتباههم تمامًا.

لم يكُن عم محجوب يتردَّد على البلدية إلَّا ليقبض راتبه. لم يُستدعَ لمساءلة ولا تحقيق. حتى عهدة الصابون والفوط يتسلَّمها عامل الغلاية والتبخير. ينصرف العامل في الثانية بعد الظهر. يغلق عم محجوب الحمَّام، لا يأذن بالدخول إلَّا لمَن يعرفه.

قال الرجل ذو الشارب الكثِّ الأبيض، والعينَين الجاحظتَين: أنت تؤجِّر الحمَّام للمبيت.

حدجه عم محجوب بنظرة مندهشة: وهل الحمَّام لوكاندة؟

قال الرجل: أنا الذي أسألك: هل الحمَّام لوكاندة؟

خالط صوته استياء: قهوة كشك بقرشَين. هل آخذ قرش صاغ؟!

كرَّر عم محجوب السؤال: لماذا؟ حين أمره مفتش الصحة أن يسلم عهدته، آخِر زيارة إلى الصعيد منذ ثماني سنوات، ثم لم يعُد يغادر الحمام ولا الإسكندرية.

قال في نبرته المستاءة: هل كنت أتركه مع الولد؟

قال عبد الوهاب مرزوق: إذا اعتذرت لحمادة بك. أثق أنه سيعفو عنك.

عاود الصراخ: هل كنت أتركه؟

ومَضَ في الذاكرة ما نقله الولد عن حمادة بك: أنا الملك في بحري ... فتِّش عن مهنة مناسبة، واترك لي الأمر.

قال قاسم الغرياني: لولا إشفاقي على صحتك لطالبتُك بالمشاركة في اللعبة.

نطق الغضب في ملامحه. غطَّاها بقناع من الخطوط والتجاعيد: اخرس يا قليل الأدب.

تقدَّم الليل، وتناقص عدد روَّاد قهوة الزردوني. أُطفِئَت أنوار الداخل. لم تعُد إلا اللمبة المُدلَّاة من السقف، أعلى الرصيف. انشغل عبد البصير، عامل النصبة، بالتنظيف، وإعادة «العدة» إلى أماكنها.

اقترب ياقوت من عم محجوب الجالس بمفرده.

قال يتحسَّس الكلمات: هل تقبل استضافتي هذه الليلة ... يحصل لي الشرف؟

أصوات بلا أصداء

في غبشة الفجر، سبق حمادة بك — في سيارته الصغيرة — سيارتي النقل إلى الرمل.

بدا الابتعاد عن بحري منفذًا وحيدًا من الورطة التي أوقعته فيها اندفاعاته. شغلته ثمار اللحظة، فانطمست الاحتمالات الغائبة.

الخوف من أن ينتقل السر من فم أنسية، إلى آذان المتردِّدين على بيت سيدي داوود، لا شيء أمام مناداة عم محجوب له: يا حمادة. لم يتصوَّر أنه يمكن لأحد في بحري أن ينطق الاسم مجردًا، بلا صفة تسبقه، أو تتبعه. هو الأستاذ حمادة منذ وعى، وهو حمادة بك منذ نقل الرجال التسمية عن الحاج قنديل. إذا اقترنت المناداة الجديدة بظروفها، فإن الفرار من بحري هو التصرُّف الذي يجدر به أن يفعله.

اكتفت نهى بالسؤال: لماذا؟

قال وهو يتحاشى نظراتها: أبدًا ... زهقت من هذا الحي.

لم تناقشه، ولا أظهرَت رأيًا، وإن كتمت الإحساس بالراحة في داخلها. رحَّبَت بالقرب من بيت أبيها، وما صادفته في دولاب ملابسه يشي بتصرُّفات لا تعرفها. أدركَت أن الانتقال إلى الرمل فرار من مأزق يواجهه.

فاجأ إمام أبو العباس المصلين، وحمادة بك في الصف الأول، بالقول في خطبة الجمعة: إن مع كل امرأة شيطانًا، ومع كل غلام ثمانية عشر شيطانًا.

تحدَّث الإمام عن إهمال الاستعداد للآخرة، والغفلة عن الموت، والتدنُّس بالمعاصي، واجتناب الكبائر. وقال: ممَّا تمادى عليه أهل هذا الزمان — كما أنبأنا حكيم — مباسطتهم، ومؤانستهم للعاصين، واحترامهم، ومقابلتهم بالبشاشة والإجلال، والثناء عليهم في المجالس، ومخاطبتهم بألقاب الشرف، ومصاحبتهم طمعًا فيما عندهم، أو خوفًا من بطشهم، مع أن الله تعالى قد نهانا عن هذه الأفعال.

توقَّع أن يُفاجئه الإمام بالقول: هذا هو أنت يا حمادة!

ماذا يستطيع أن يفعل لو أن الإمام وبَّخَه — باسمه — أو شتمه؟! نقل محجوب ما رآه على غير حقيقته، لكنه لا يستطيع مواجهة السؤال: وماذا كنت تفعل مع الولد داخل الحمَّام؟

وشى إلحاق الحاج قنديل لعم محجوب بوابًا بعمارة له في شارع رأس التين، بتصديق عم محجوب فيما رواه. هو يثق في رواية الرجل. وقيل: إنه صارح جلساء قعدة محمد صبرة أن السن لا تأذن بتلقي مفاجأة ظهور السلطان، وسماع نصائحه وتحذيراته. بدا له تصرُّف الحاج قنديل مؤشرًا، بوصلة عليه أن يهتدي بها.

لو أنه صحب الشاب إلى بيت سيدي داوود.

تركه على حاله منذ ورثه. في باله حكايات أبيه عن الصرخات المنبعثة — حين يأتي الليل — من داخله، والأنَّات المكتومة، والنشيج، والصيحات المحذِّرة. ربما تصاعدت ضحكات، أو مناقشات صاخبة. لولا أن أنسية سبقته إلى دخول البيت، ما فكَّر في أن يدخله. رافقه دوي الطبول، والنغمات القاسية، والصرخات الوحشية. نسي الخوف، ولحقها.

لم يضَع في باله ذيول ما حدث.

أوعز، ففصل محجوب من عمله. جاوز الرجل الذهول بعد يومَين أمضاهما في بيت ياقوت. ثم خرج إلى الجوامع والزوايا والقهاوي، يروي ويروي. حتى مَن لقيهم في الطريق روى لهم ما رآه بعينَيه. لم يُضِف، ولم يحذف. ما رآه بالضبط تمامًا. همس الحاج قنديل بأن لعبة الانتخابات انتهت، ويعرف الرجل قيمة حمادة بك في الحي. هو لم يتحدَّث إلا عمَّا رآه. رفض عباس الخوالقة تصديق ما قيل. ربما قصده الولد في عمل، والناس جعلت من الحَبة قُبة.

قتلته الحيرة.

لم يتصوَّر أن الرجل يضعه في موقف المساءلة. توهَّمَ في طرده من الحمَّام إنهاءً لِما حدث، للمشكلة التي ورطته فيها نداءات اللهفة.

كان فؤاد أبو شنب أول مَن همس له بما رواه الرجل. عانى الحرج في إنصاته الصامت. كيف ينزل إلى شوارع الحي، ويجالس أصدقاء قعدة محمد صبرة، والمعارف الجدد في المهدي اللبان وفاروق، ويواجه النظرات المتسائلة، والشامتة، والغاضبة، ويتحدَّث عن الترشيح للانتخابات القادمة؟!

لم يعُد يتردَّد على الزردوني أو المهدي اللبان أو فاروق، ولا يجالس الأصدقاء في قعدة محمد صبرة، ولا يظهر في تشييع الجنازات، ولا سراقات العزاء، ولا حضور حفلات عقد

القِران أو الزفاف، ولا يؤدِّي صلاة الجمعة في أبو العباس. لا أحد تخايل به في شوارع بحري، وإن صافحه إبراهيم سيف النصر على رصيف ديليس، واعتذر — بمشوار — عن دعوته إلى فنجان قهوة.

فاجأه عبد الوهاب مرزوق في جلسته بالتريانون.

الأيام الجميلة!

ربما يجد مَن يؤانسه، يناقشه في السياسة وتقلُّبات السوق وأحوال الجو، لكن ما يفتقده هو النظرات المُعجَبة، والمداهنة، وطلب الوساطة، والصداقة المُبطَّنة بالرهبة والتقدير والاحترام.

هو حمادة بك، وهم معلمون وصبيان وموظفون صغار. يروقه أن يجد نفسه محاطًا بهؤلاء الرجال، ويسعدهم جلوسه بينهم، الترقُّب والعطاء، العرائض وبطاقات التوصية والعلاقات الشخصية. تشحب الصورة بعيدًا عن بحري، تكاد تغيب تمامًا. رجال أعمال ووزراء ووكلاء وزارات وخواجات ومصيفون من القاهرة والأرياف. تتشابه الظروف، فلا يتميز بالمخالفة في شيء.

قال عبد الوهاب مرزوق: نشرت الصحف نبأ حل مجلس النواب.

هزَّ رأسه بما يعني عدم الفهم.

قال عبد الوهاب مرزوق: هذه فرصة لدخول الانتخابات.

غالب انفعاله: تاني؟!

تغلف صوته بمداهنة: وهل دخلت الانتخابات من قبل؟

أطرقَ لحظات، ثم رفع رأسه: كانت هناك فرصة. لكنني — لظروف شخصية — لم أقدِّم أوراق الترشيح.

قال في صوته المداهن: أمامك من الآن عشرة أيام لتُعلن ترشيحك.

لاحظ نظرة الرجل المتأمِّلة إلى صدره.

تنبَّه إلى أن زحام النازلين من ترام الرمل أطار زرار البلوفر.

وضع راحته — بعفوية — موضعه.

التذوق ... للمعرفة

ألف الصوت، وإن لم يستطِع تبيُّن طبيعته. يتداخل فيه مد الموج وجزره، وهسيس النخيل الواقف على امتداد الرصيف المقابل للكورنيش، واصطفاق الريح للشبابيك المُغلَقة. هزَّه الألَق بعناق الشمس ومياه البحر. ضوَت المياه بما يُشبه الزغاريد. لاحظ فأرًا يخرج من بين قطع الحجارة الضخمة. تلفَّتَ حوله، ثم اختفى.

البحر مهنته، نشأ عليها، فلا يعرف غيرها. لم يعدَّ نفسه، ولا تصوَّرَ أنه يسعى إلى مهنة أخرى غير البحر. وحين أقعدته الإصابة، عرض عليه الحاج قنديل أن يرتِّب له — كل صباح — شروة سمك يسرح بها.

قال في لهجة معتذرة: ابتعدت عن البحر. فهل أبتعد عن الشاطئ؟

أخذته رائحة البحر.

حمل البوصة والسنارة والغلق الخوص. تعلَّمَ من الجد السخاوي ما غاب عنه. البوري تأكل على طرف لسانها. فمها الصغير لا يأكل إلا العجين. إذا لم يكُن البواص شاطرًا، فشل في صيدها. المياس يشتهي سمك السردين والموزة. القاروس واللوت تحب الأسماك الحية. حذَّرَه من الأسماك التي تلتقط الطُّعم، ولا تأكله، العشب والعجينة والبسارية والجمبري، فلا تجذبه السنارة. يختار للمياس والبطاطا نوعًا من السنار أكثر صلابة. إذا أحسَّت بالألم ضغطت على فمها بجِدَّة، فتقضمه. ارفع البوصة ببطء. لو جذبت بشدة، يتهشَّم فم السمكة، وتعود إلى البحر. يمسك السمكة من خيشومها، فيشل حركتها، أو يضغط على عينَيها بإبهامه وسبابته. يحذر الأسماك السامة والمكهربة. إذا بدت السمكة غير مألوفة، تأمَّلَها، يدسُّها في الغلق، أو يُعيدها إلى الغلق، دون أن يلمسها.

روى الجد السخاوي ما جرى لصاوي رزق: كان يصيد بالسنَّارة. أخرجَت سمكتَي مرجان صغيرتَين. نزع واحدة. وضعها في فمه حتى يخلص الثانية من السنَّارة. قفزت داخل حلقه، ووقفت فيه. ظلَّ يصارع، حتى مات.

همس لنفسه — ذات يوم — بالسؤال: هل تطلع له السمكة التي تحوي في بطنها خاتم سليمان؟

قال الجد السخاوي: للأسماك أصواتها، مثلنا تمامًا. عندما تتعارك حول الطعام، أو تدافع عن أماكنها، أو عند الهرب، أو في موسم التكاثر.

قال وهو يهز رأسه في تأكيد: الأسماك تتجه إلى المناطق المزدحمة بالأصوات.

اطمأن إلى ياقوت — منذ زاد على ما كان يتقاضاه في الزردوني — في الوقوف على النصبة، وتقديم الطلبات. تنقل بين الشواطئ. يصطاد، ويبيع، ويدَّخِر النقود. عندما تتوافر معه قيمة البلانس، يشتريه. يسافر إلى البحار البعيدة.

وقفته على شاطئ البحر اقتراب منه.

كان يتجه إلى البحر، يرقب البلانسات وهي تميل من حاجز الأمواج إلى الآفاق التي تنتهي في موانٍ ومدن، حلقات في سلسلة لا تنتهي. يكتم خاطرًا بأن يرمي بنفسه في الأمواج، تمضي به إلى آفاق لا يعرفها. مجرَّد أن يسلم نفسه إلى الأمواج، تحمله إلى أبعَد ميناء في الدنيا. لما أقعدته الإصابة، وجد في وظيفة عامل إنقاذ فرصة للاقتراب من البحر، للحياة على شاطئه، والارتماء في أمواجه إن تعالَت صيحات استغاثة. فاجأه الكشف الطبي بما حاول مداراته. حتى التحليق على الشاطئ، مثل النورس، لم يعُد بوسعه.

أَلِف الميل — في قدومه من شارع الميدان — إلى وكالة الليمون، ثم إلى باب الجمرك رقم واحد. يتنقَّل بين المخازن والحاويات والأجولة والصناديق الهائلة. يرقب البواخر الراسية. يسرح في التصوُّرات التي لا نهاية لها.

قال له قاسم الغرياني: وماذا بعد أن تشبع من البحر؟

شردت نظرته في أفق المياه الممتد: أنا لا أشبع من البحر.

قال الغرياني: ماذا بعد أن تكبر؟

تشاغل بمتابعة سرب من الطير يحلِّق فوق خليج الأنفوشي: سأكون قد شاهدت بلاد الله، خلق الله.

– ألم تفكِّر في الولية والأولاد.

– أوفِّر لهم ما يكفيهم. وزيادة.

عسكري السواحل يتسلى بالمشاهدة. وتحت الحاجز الأسمنتي عم رجب يتأكد من مسكة طراحته.

قال لمختار: هذه الطراحة على بختك.

وقذف الطراحة في المياه.

السنَّارة بطعم الجمبري. دار بها في الهواء، فوق رأسه، ثم هوى بها إلى الماء. أحدثت وقع الحصاة الصغيرة. تزايدت حلقات الماء، اتسعت، ثم ضاقت، حتى تلاشت.

قال كمَن يحدِّث نَفْسه: السمكة الملعونة خطفت الطُّعم وهربت إلى داخل شق، فانقطع الخيط.

قال عم رجب: أعطيتَها فرصة الهرب إلى الشق ... أرخيتَ لها الحبل طويلًا أثناء جذبك لها.

ثم وهو يعبِّر بيدَيه: بمجرد أن تصل الهزة إلى يدك، اسحب السنارة حالًا.

قال وهو يتأمَّل مشنة عم رجب: حظك أحسن من حظي.

قال عسكري السواحل: حظه أحسن؛ لأنه معذور.

قال عم رجب: السمكة دودة ماشية ... اللي له نصيب في شيء بيشوفه.

لمح سمكة تطير فوق الماء بضعة أمتار، وتغوص ثانيةً.

– هل عادت القناديل؟

قال عم رجب: هذه سمكة طيارة. زعانفها كالأجنحة، تطير بها مسافة على سطح البحر، قبل أن تعود إلى الماء.

غمزَت السنارة.

خمَّنَ أنها سمكة كبيرة لمَّا اجتذبت البوصة إلى أسفل.

جذبها بسرعة، وبآخِر ما عنده. لَعْلَعَت سمكة لم يتبيَّن نوعها. اهتزَّت لها البوصة، فأمسكها باليد الثانية.

قال له الجد السخاوي: صيد البوري بالسنارة أسهل. إنه كثير الحركة، لكنه لا ينزل القاع إلَّا نادرًا.

هل هي سمكة بوري؟

قال لنظرة عسكري السواحل المتسائلة: جمبري كبيرة!

قال العسكري، وهو يستند براحتَيه على البندقية فوق الكورنيش الحجري: هذه السمكة وافدة.

ارتجفت رموشه: كيف؟

تأمَّلَها عم رجب: إنها في الأغلب استاكوزا من البحر الأحمر.

ثم عاود قذف طراحته: كسفتنا يا مختار. الباشجاويش يعرف نوع السمكة، ولا تعرفها أنت.

وسرَت في صوته نغمة حزينة: هل يمكن للإنسان أن ينسى سِحَن أبنائه وأسمائهم.

شمله إحساس بالخجل، بالارتباك.

اتجه بخطوات أثقلها الحزن إلى شارع التتويج. تعمَّد أن يغيِّر اتجاهه. كان يسير بمحاذاة الكورنيش، حتى مكتب صحة الجمرك. ومنه إلى قلب السيالة.

اخترق الطريق إلى ميدان أبو العباس.

أطال الوقوف أمام كشك سيد الفران. سأله عن أدوات الصيد، وتأمَّلَها. سأل عن الأدوات الجديدة. حتى ما اعتاده في البواخر الكبيرة، أخذ فيه وأعطي.

قال سيد: مَن يسأل الآخَر ... أنا أم أنت؟

قال مختار: أخشى أن تكون ذاكرتي تأثَّرَت بالغياب عن البحر.

– أنت لم تعُد تركب البحر ... لكن حياتك مع الصيادين.

ثم وهو ينخسه بإصبعه في مودة: وقهوتك اسمها البحر!

أغمضَ عينَيه، وسرح بتصوُّراته للمياه التي بلا ساحل، والمراكب الضخمة، والنوَّات، والأمواج العالية. يحيا حلم اكتشاف الدنيا، وتوقُّع المجهول. رؤية ما لم يسبق له رؤيته. تبدو المدن والجزر والفنارات والبواغيز، نقاط ضوء بعيد، منثورة في ظلمة آفاق البحر المترامية.

بحر بلا ساحل

قال أبو الحسن الشاذلي:

«إذا ظهرَت الظُّلمة تحت النور الممتد من القلب، فلا يخلو أن يلوح عليها لائح القبض بانقباض القلب. فاحذر ذلك وتجنَّبه، فإنه المحظور، أو يكاد.»

قال أبو الحسن الشاذلي:

«إذا افتقرتَ فسلِّم، وإذا طلبتَ فاصبر، واسكن تحت جريان الأقدار، فإنها سحابة سائرة.»

قال ابن عطاء الله السكندري:

«لا يشكِّكنَّك في الوعد عدم وقوع الموعود، وإنْ تعيَّنَ زمنه، لئلَّا يكون ذلك قد جافى بصيرتك، وإخمادًا لنور سريرتك.»

تمدد — في استرخاء — على ظهر القارب، يضرب أصابعه في الماء، تتطاير طرطشات ورذاذ. ترك الأمواج الصغيرة، المتلاحقة تهزه، وتحرِّكه. خليج الأنفوشي ساكن، تطير فوقه سحابات بيضاء من طيور البحر، والمد يدفع أمامه بقعة زيت، تتسع في تكوينات متداخلة. وثمَّة خربشة فأر في موضع قريب، لم يتبيَّنْه.

لم يعبأ بتحذيرات محيي قبطان من أن القارب يدور حول نفسه، وربما ينقلب.

قال في هدوء متكاسل: البحر حصيرة. ولا خوف منه.

قال محيي قبطان: القارب صغير يا حسان.

قال حسان عبد الدايم: لكنه هو الذي فاز في السباق.

تنطلق القوارب ناحية الجزيرة في أُفُق الأنفوشي. تعود من الناحية المقابلة. الفائز هو الذي يصل أولًا. يمسك الدفَّة، فيضمن سرعة القوارب وتحركه. يجيد سرقة الريح، فيفوز. يركب الريح، يطلع فوق ريح بقية المتسابقين، يأخذ ريحهم. يغطِّي قماشه على قماشهم. يحرص فلا يلتف الشراع حول الصاري، ولا يستخدم المقاديف.

تجاهل ملاحظة خميس شعبان: حسان عبد الدايم من رأس التين. قواربية شطار!

حمل الرجال القارب فوق رءوسهم، تعلوه الأعلام والخرق الملوَّنة. يُرافقهم أولاد يرقصون، ويتقافزون.

مضى الموكب من شارع السيالة إلى ميدان الأئمة.

في منتصف الميدان طلب محيي قبطان من الرجال أن يضعوا القارب على الأرض.

فاجأ الجميع، وأذهلهم، حين ألقى — بالفرحة — عود كبريت مشتعل على القارب ليحرقه.

صرخ حسان عبد الدايم: القارب أكل عيشي.

قال محيي قبطان: أكل عيشك في البلانس.

ضغط على عود الكبريت بيده، فأطفأه: والقارب أيضًا.

قال محيي: كيف تعلن عن فوزك؟

قال حسان: ليس بخراب البيوت!

تنبَّه لصوت جابر برغوت: فزت يا حسان.

اتسعت ابتسامته بالفرحة: رأيت السباق يا شيخ جابر؟

قال جابر برغوت: لو أنك تفوز في السباق الأكبر.

أردف للدهشة المتسائلة في ملامح حسان عبد الدايم: ما حدث انفض وانتهى. يبقى الذي بلا انتهاء!

أزمع أن يظل سائرًا في طريق التمنِّي، حتى يفتح الله عليه. تلحُّ عليه الخواطر والمعاني التي يعجز عن فهمها، فيدرك أن نفسه الضعيفة لا تقوى على المجاوزة. الوليُّ لا تتحقَّق له الولاية إلا إذا كان موفَّقًا لجميع ما يلزمه من الطاعات، معصومًا عن الخطأ والخطيئة. لم تُتِح له حياته السابقة أن يلزم الطاعات بما كان يرجوه، ويظن أنه ليس معصومًا بعد من الخطأ والخطيئة. ما يملك فعله هو الإنصات، والتهيؤ لتلقي الإشارة. يتعرَّف إلى ما حدَّثَه عنه وليُّ الله ياقوت العرش. يلتقي بسيدي الأنفوشي، يزيح غلالات الأسرار، فتُضيء شمس الإقبال، وتُشرق أنوار المعارف، ويستولي سلطان الحقيقة. متى؟ أين؟ كيف؟ علمه عند الذات الإلهية.

ظلَّ على ميله إلى العزلة، والانفراد عن الخلق، والابتعاد عن صخب الحياة، والخلوص لله، والتجرُّد من كل العلائق، ومن حُب الدنيا. أخذ النفس بالمجاهدة والمكابدة والزهد والتقشُّف والتقوى والتنظُّف، والحفاظ على التهجُّد والنوافل، والإكثار من قراءة الأحزاب والأوراد، وتلاوة الأذكار والأدعية. لاذ بالمشيئة والإرادة. ربما أتَت اللحظة بالإلهام الرَّبَّاني دون سابق إشارة، ولا واسطة من أحد. الله الأزلي، الأبَدي. ما عداه حادث، وُجِد بعد أن لم يكُن، وهو صائر إلى فناء، وإن ظلَّت الأرواح باقية، لتعود إلى الجسد يوم لا ينفع مال ولا بنون. ما سبق به القضاء لا محالة يحدث، وإن بدا بعيدًا.

كان يُدرك صعوبة المرتقى.

السائر إلى الله لا بد أن يمرَّ في طريقه بمنازل ومقامات، يرقى بعضها فوق بعض، إلى مقام التعرُّف، مرتبة الوصول، لا يبلغها إلا قطب الغوث. ذلك أبعَد ما يكون عن باله، وتتقاعس أمامها همته. أسرار الله مكتومة، لا تُودَع إلَّا في سر مُحصَّن. اختص الله أولياءه بوديعة أسراره، وكشف لهم عن حقائق الأسماء. للولي بصيرة تنكشف أمامها كل الحقائق، يدرك بها كل الموجودات، ويعرف ما كان منذ بداية الخلق، وما سوف يكون إلى يوم الذهول عن النفس.

الهاتف في أعماقه يدعوه إلى الانطلاق في عالم لا يعرف ملامحه. تمنَّى لو أنه تفهَّم اللغة الخفية. لو أنه أحسن الإنصات إليها، والتحدُّث بها. قال سيدي ياقوت العرش ما قال، واختفى. تناثرت — فيما بعد — كلمات هي مفاتيح الأبواب المُفضِية إلى أنوار الأنس والهيبة والجلال، حملها على قدمَين عاريتَين في أرض الشوك.

أن يخصه الله بما خصَّ به الأقطاب، هدف يعجز عن بلوغه. ذاقوا حلاوة الخدمة، ولذة الطاعة، والأنس، والقربة، فبلغوا من الرتب ما لم يبلغه، ولا يأمله أحد، وارتقت أرواحهم إلى العالم العلوي، فتحدَّثوا بالمغيبات.

حين ناداه عبد الوهاب مرزوق: يا ولي الله، قال: أعوذ بالله أن أدَّعي الولاية. أنا خادم الأولياء!

ترك نفسه لإرادة الله، هي الضوء الذي يدركه أينما حل.

عَبَرَ الطريق إلى شارع الحجاري. مال في شارع الكناني. صعد السلالم الرخامية المتآكلة إلى ساحة مدرسة البوصيري، تحوطه الأنفاس الهادئة ذات الجلال، وهمسات الوجد، وأحاسيس النشوة، وأصداء الأوراد والأذكار والمدائح النبوية وأهازيج السحر.

– ثم ماذا يا جابر؟

أومأ برأسه مستفهمًا.

قال عم شحاتة: أنت هكذا تقتل نفسك.

– هل أعصي أوامر الأولياء؟

ثم وهو يهز رأسه: أنا عبدٌ مأمور.

قال عم شحاتة: بدأت الطريق ولا تعرف نهايتها.

سرحَت عيناه في الفراغ: الإشارة قريبة بإذن الله.

– فإذا لم تظهر الإشارة؟

فاضت عيناه بالحزن: هل تشكِّك في مكاشفات أولياء الله؟

أظهر التصعُّب: أنا أشفق عليك.

قال في لهجة حاسمة: لم أعُد منذ ظهَرَ لي سيدي ياقوت العرش أملك أمر نفسي.

فات أوان التراجُع.

بدأ رحلته الجميلة، القاسية، ولا بد أن يكملها. لا بد أن يمضي إلى النهاية، يهمل النظرات المُشفِقة، أو الشامتة، أو المستغربة، لا يشغله حتى العبارات المؤنبة، أو السب. ما يَعنيه هو الإشارة. قسمات السر التي طال انتظاره لها. كشف الغطاء، وإحياء القلب، وتحقيق المحبة، وتلقِّي النفحات الروحية، والإشراقات الإلهية.

ارتدى لباس التقوى، وزهد في ملذات الحياة، وخرج حُب الخلق من قلبه، وأقبل على الطاعة بهِمَّة عالية، وعزيمة صادقة، ونية سليمة خالصة. تفرَّد بالله، وانقطع عن كل شيء سواه. تحدَّدَت أمنياته في أن ينوِّرَ الله قلبه بنور معرفته. أكثرَ من صلاة الاستخارة. لم يسأل عنايةً، ولا عطفًا، ولا وقفَ على باب التذلُّل. حاول أن يتحلَّى بالصبر والحلم والرحمة والمحبة والتوكُّل والتفويض والتسليم والشوق والرضا والأحوال الصافية، وسائر الصفات المحمودة التي تخلق بها الأقطاب. يصبح قلبه كالبحر، لا يعكِّره ما يلقى فيه من أوساخ. لا يضيق صدره بسماع ما يناله به الناس من شتم، فهو في محل الشهادة، لا تعنيه مؤاخذات ولا شتائم. الْتَمسَ العذر لإنكار أمين عزب عليه، ودعا له. تنبت الأرض الثمار الطيبة، وتنبت الأشواك والحشائش الفاسدة. كثرة الدعاوى في الطريق تُفضي إلى تشابكه واختلاطه. يصعب على المرء أن يمضي في الوجهة الصحيحة.

قيل إنه حفر قبره بالعامود، بالمجاورة لولي الله علي الراكشي. وكان ينزل في القبر، ويصلِّي.

هل يفي عمره بما تعلَّقَت به هِمَّته؟

العصفور يُفلت من القفص

اخترقت الظُّلمة الشفيفة، والسكون.

دكاكين شارع السيَّالة مُغلَقة، والرِّجل مقطوعة. لم تعُد تستأذن، وإن تحرص فلا يلحظ أبوها غيابها.

مالت إلى شارع فهمي الناضوري، ومنه إلى طريق الكورنيش. طالعها الأنفوشي بدفقات من الهواء البارد، المشبع برائحة الملح واليود والأعشاب. وصوت مد الموج على الشاطئ. على الرمال المُبتلَّة علب فارغة، وأوراق ممزَّقة، وقطع خشبية وبقايا أطعمة، وفي مدى الأُفُق بلانسات وفلايك وجنادل وقلوع وأشرعة. وثمة — في القزق — هياكل بلانسات، وفلايك تآكَلَت أخشابها.

شجَّعَها نزول البنات في الماء. خلعت الملاءة والفستان. لم يعُد إلَّا قميص النوم الساتان الوردي. شاطت الشبشب، واتجهت إلى البحر.

الْتفَّ الماء حول جسمها ببرودة لذيذة، مُنعِشة. تسلَّلَت إلى داخلها. أحسَّت بروحها تنتعش، تكاد تطير. لم تأبه حتى بالْتِصاق قميص النوم بالتقاطيع والتكوُّرات والانحناءات.

لم تكُن تعرف العوم. حرَّكَت يدَيها وقدمَيها دون أن تدخل الغميق.

عانت بعد ما جرى.

شدَّد أبوها، فلا تغادر البيت إلَّا لضرورة، أو لزيارة أعمامها في السكة الجديدة، يصحبها مصطفى، أو أمها. اختلست أوقات التردُّد على مساكن السواحل بعد الخروج من المدرسة.

فاجأها عباس الخوالقة بالقول: أين كنتِ؟

غالبَت ارتباكها: أذاكر.

– أين؟

– مع صاحبتي.

وشى صوته بغضب: أين؟

احتواها الارتباك، فصمتت.

أسعفتها أم محمود: دعِ البنت لمذاكرتها.

قال في لهجة باترة: وضع الأرمَل أهوَن في حَيِّنا من وضع المُطلَّقة.

لم يعُد يأذن لها بالخروج وحدها. يصحبها محمود أو أمها، ولا تزور إلا الأقارب.

تسلَّت بالقراءة: روايات ومجلَّات، يشتريها محمود، أو يستعيرها، من مكتبة حمامة النن بشارع إسماعيل صبري. حفظت مواعيد برامج الإذاعة. أغلقت الحجرة من الداخل، وأطالت الوقوف أمام المرآة. تخلع الفستان، وقميص النوم. تتأمل جسمها. تتحسَّس — بأطراف أصابعها — وجهها، وعنقها، وصدرها، وبطنها، وردفَيها، وساقَيها. تستدير، تتأمل الظهر العاري بجانب عينها.

موت مصطفى قلَّص قبضة الأب، وعزل الأم في جزيرة حزن، لا تغادرها. وانشغل محمود فيما لا تسأله عنه.

كان قد مضَت سنتان على قعودها في البيت، لَمَّا سمعت أباها يحدِّث أمها عن مولد أبو العباس. همسَت بطلب الخروج. زكَّت أمها ما طلبت بالأيام المباركة. الجميع يذهبون إلى بركة السلطان ومدده.

قال عباس الخوالقة: ألا تخرج إلَّا للمولد؟!

حين طلبت أن تعود إلى المدرسة، توقَّعَت أمها رفض الأب. هزَّ رأسه بالموافقة، فاتسعت عينا الأم اللوزيتان بالدهشة.

اتسعت انفراجة الباب، حتى انفتح تمامًا. تجلس — بالساعات — في شقق الجيران. تشتري لوازم البيت من شارع السيالة، أو من ميدان أبو العباس. ربما سارت إلى الموازيني وشارع الميدان.

زال الخوف من نفسها. لا تدقِّق فيما ترتديه، ولا تستأذن في الخروج، ولا تخشى مفاجأة أبيها بوقوفها في النافذة، ولا بنزولها على السلم من شقة الجيران. تتبيَّن اسمها يتردَّد في الصالة، فلا تصيخ السمع. في داخلها قوة تدفعها إلى الانطلاق. لا يوقفها أحد ولا شيء. تذهب إلى أي مكان، وتفعل كل ما يفد إلى خاطرها. لا تتلفَّت وراءها. لا تشغلها النظرات التي تراقب، وتحاسب. حتى أبوها لم يعُد يشغلها ملاحظاته. أفلتَ العصفور من القفص. طار في المدى الواسع. تزور صديقاتها، وتمشي في الشوارع، وتتنزَّه على الكورنيش،

وتجري، وتتكلَّم، وتضحك، وتقفز، وتغنِّي، وترقص، وتصرخ، وتقنع أمها — إذا انقطع الماء — أن تحمل الصفيحة من الحنفية العمومي، بدلًا من الصبيان.

كانت تغلق عليها باب الحمام، تقف عارية أمام المرآة، تتحسَّس جسدها بأصابعها، تتأمله بجانب عينها، وتتخيل. تمرُّ بالمرود على عينيها، وتضغط بأسنانها على شفتَيها، وتقرص خدَّيها. تتخيل نفسها في مواضع الممثلات اللائي تشاهدهن في أفلام سينما الأنفوشي ورأس التين. ممثلات مصريات وأجنبيات، يتكلمن في الحب، ويعانقن الرجال، وتعلو أصواتهن بالغناء.

تفتح الباب. تمضي إلى الخارج، وهي تعلن أنها قد تأخَّرَت.

أَلِفَت الملاحقة في شوارع بحري. النظرات والتعليقات الهامسة والغمغمات. الجالسون في القهاوي، وعلى أبواب الدكاكين. عبارات غزل، ترضيها، وإن واصلت سيرها، لا تردُّ، ولا تتلفَّت.

غالبت التردُّد في مواجهة الوقفة الثابتة، عند خروجها من المدرسة، والنظرات الداعية. ثم انحرفت عن طريق البيت إلى الكورنيش.

– جلال هاشم.

لم يعُد مَن تحبه هشام، ولا في صورته، ولا في صورة أبيها أو محمود، أو حتى المرحوم مصطفى. شعره الأسود يتناقض مع عينَيه الخضراوين، الصافيتَين. يتخلَّل شَعره بالصابون والفازلين، ويفرقه، شاربه رفيع فوق شفتَيه، وفي خدِّه الأيمن خال أسود. يختلف عن كل مَن في حياتها، يحبها. يدافع عن حُبه لها، لا يضايقها بأوامره وتحذيراته، ولا يشتمها، أو يضربها. تُغمض عينَيها، تستدعيه إلى ذاكرتها، تتصوَّره في كلمات وتصرُّفات.

بدَت كالمذهولة، كالمسحورة، كالمنساقة وراء نداء خفي. لاحظت أم محمود، وإنْ غابت الملامح. حرَّضَت محمود على متابعتها عند خروجها من البيت، أو من المدرسة، وعودتها.

أهمل الأمر بعد أيام، فلم تعُد نظراته تتبعها.

خاضت في المياه حتى بلغت أعلى صدرها، وإن تبدَّت — في الماء الساكن — استدارة الفخذَين، والساقان الطويلتان المخروطتان. تسرب الماء إلى ثدييَها، وتحت بطنها، فأحسَّت ببرودة منعشة، داعَبَتها، تسلَّلَت في المسام. تمنَّت لو أنها ظلَّت في البحر، لا تتركه. الماء الهادئ وسادة، تحملها فوق الهموم والتحذيرات.

أفاقت على الصوت الذي لا تخطئه: مهجة!

كان في طريقه إلى الحلقة، حين لمحها.

لم يعُد — منذ وفاة مصطفى — يأخذ باله إن كانت في البيت، أو أنها خارجة. غابت النصائح والملاحظات والتحذيرات المشفقة.

غطَّت يداها — بتلقائية — كتفَيها.

أعاد تأمُّلها في ومضة: هل هذه ابنته؟ هل هذه مهجة؟

سحَبَها من البحر — ظلَّت في موضعها لا تعي ماذا تفعل — بقميص النوم الملتصق بلحمها.

ألقى عليها تلفيعة يتقي بها برودة الصباح، ودفعها أمامه حافية القدمَين.

أغلق الباب وراءه. تَسانَد عليه، وأنفاسه تلهث. لم يعُد في الحجرة سواهما، تبدَّلَت سحنته. في عينَيه نظرة لم ترَها من قبل. بدا إنسانًا مختلفًا عن أبيها الذي يسألها، ويُجيب عن أسئلتها، ويناقشها، ويداعبها، وينصحها، ويسبق نزوله من الشقة قوله: تريدين شيئًا يا مهجة؟

رأته فؤاد أبو شنب.

تلاحقت صرخاتها، خائفة، محشرجة، متقطِّعة.

اندفع بالغضب نحوها.

لم يعبأ بتوسُّلات أم محمود وراء الباب المُغلَق، ولا صيحات الجيران من النوافذ التي فتحها الفضول، ولا الدم المنبثق من أنف مهجة، تناثر على جسمها، ولا البياض الذي أخذ عينَيها.

لم يرفع غضبه إلَّا عندما سكنَت حركتها تمامًا، فيما عدا أنفاس خافتة، بطيئة. غاب فؤاد أبو شنب، وغابت عن كل ما حولها.

خمَّنَ الطبيب في مستشفى رأس التين ما حدث. أصرَّ على تحرير محضر. تدخَّلَ الرجال، فعاد الخوالقة بابنته، وبقَسَم — ألزمَ به نَفْسه — ألا يحاول أذية مهجة.

السباحة في بحار الشوق

قال أبو الحسن الشاذلي:

«أربعة مَن حازَهُنَّ فهو من الصِّدِّيقين المُقرَّبين، ومَن حاز منهنَّ ثلاثة، فهو من أولياء الله المُقرَّبين، ومَن حازَ منهنَّ اثنين فهو من الشهداء المؤمنين، ومَن حازَ منهنَّ واحدة، فهو من عباد الله الصالحين. أوَّلُها الذِّكر، وبساطه العمل الصالح، وثمرتُه النور. الثاني الفكرة، وبساطه بُغض الدنيا وأهلها، وثمرته الوصول إلى المحبوب. الثالث الفقر، وبساطه الشكر، وثمرته المزيد منه. الرابع الحب، وبساطه بُغض الدنيا وأهلها، وثمرته الوصول إلى المحبوب.»

من دعاء الشاذلي:

«اللهم صِلني باسمك العظيم، الذي لا يضرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهَبْ لي معه سرًّا لا تضر معه الذنوب شيئًا، واجعل لي منه وجهًا تُقضى به الحوائج للقلب والروح والسر والنَّفْس والبدن، وأدرِج أسمائي تحت أسمائك، وصفاتي تحت صفاتك، وأفعالي تحت أفعالك. درج السلامة، وإسقاط الملامة، وتنزُّل الكرامة، وظهور الأمانة، وكُن لي فيما ابتليت به أئمة الهدى من كلماتك، واغنني حتى تُغني بي، وأحيني حتى تُحيي بي ما شئت ومَن شئت من عبادك، واجعلني خزانة الأربعين، ومن خلاصة المتقين، واغفر لي، فإنه لا ينال عهدك الظالمون.»

طال قعوده بالقُرب من المقام ذي الكسوة البيضاء، في مدرسة البوصيري.

ليس ثمَّة ما يشي بحياة. لا حركة ولا صوت. اعتاد الناس جلسته الساكنة، وخروجه من مدرسة البوصيري، وعودته إليها، أهملوا المتابعة والتأمُّل.

حين بدأ يُلقي السؤال على نفسه: هل هذا الثاوي تحت المقام هو سيدي الأنفوشي، أتاه — في غفوة — صوت لم يتأكَّد إنْ كان لسيدي ياقوت العرش، أو هو صوت علويٌّ: الناس أخطئوا ضريح ولي الله الأنفوشي، ضريح قلعة قايتباي العسكري من الدولة القديمة، مجهول الشان.

وقال الصوت في نبرة رائقة: ربما تجد البشارة في علي تمراز.

– علي تمراز؟!

همس بالحيرة: هذا مقام سيدي علي تمراز.

قال الصوت الذي لم يتبيَّن صاحبه: علي تمراز مجذوب بدا منه ما يُشبه الكرامات في وقت حسن باشا الإسكندراني، فأمر بإنشاء هذا الجامع باسمه.

واستطرد في تأكيد: ولكن الثاوي في الضريح هو مَن تبحث عنه.

وعلا الصوت: اذهب إلى الموضع الصحيح.

استأذن الأقطاب أصحاب الدرك.

لم يُبدِ الشيخ عبد الحفيظ اهتمامًا بجلوسه وسط مُريديه، وأجابَ على سؤاله بلهجة محايدة: علي تمراز لم يكُن وليًّا. إنه مجذوب أخلَصَ في محبة الله.

ثم يعود إلى مُريديه: هذا كلُّ ما نعرفه عنه.

قال جابر برغوت: ما أعرفه أن الضريح لسيدي الأنفوشي؟!

رمقه الشيخ بنظرة دهشة: مَن سيدي الأنفوشي؟

أظهرَ الغضب: وليٌّ له كراماته ومكاشفاته.

قال الشيخ في دهشته: والمولد ثمانية أيام في السنة. هل هو للهواء؟!

ضغط على الكلمات: هو لسيدي الأنفوشي، وقد أخطأ الناس!

– مَن يدري؟

ربما الشيخ عبد الحفيظ يعنيه كتم الحقيقة لغرض في نفسه. أكثر من التردُّد على الجامع. يلزم جوار المقام، مثلما كان يفعل في مدرسة البوصيري، يجول في شوارع الحيِّ، ثم يعود إلى جلسته، لا يتركها، ولا يترك الجامع، إلَّا إذا قال عم سلطان: هل ستظلُّ معنا يا برغوت، أم نغلق الأبواب بعد انصرافك؟

كان عم سلطان يزوره في ياقوت العرش عندما يتردَّد على ميدان الأئمة. يزور أبو العباس وياقوت العرش والواسطي ونصر الدين والبوصيري وغيرهم من أولياء الله

الصالحين. وكانا يتحدثان في ظروف الحياة والعلاوات وإعانة الغلاء، وحصول الإمام على معظم ما يَحويه صندوق النذور. لم تعُد الأيام كما كانت.

داخل الشيخ قرشي إشفاق وتعاطف. تيقن لما يعرفه من شخصية جابر برغوت أن الرجل تحققت له الولاية، واعتقد في ولايته. لم يعلن ذلك ولا أظهره، ولا حاول الكلام عنه. حتى إذا ناله إنسان بأذًى، قتله الشعور بأنه أراد هلاك أحد أولياء الله، وقد كتب الله الستر على أوليائه. وحين علا صوت عم سلطان. أشار إليه بيده حتى يخفض من صوته، فيتيح للشيخ برغوت سماع كلام الأولياء.

تمنى ألَّا يغلبه النوم، ولا ينام. ما يشغله يجعله في حالة الصحو، لا تفارقه، ويحرص ألَّا تفارقه. يخشى زوال ما كان يلوح في قلبه من لوامع الإرادة.

فني عن هوى النفس وما تدعو إليه، وتخلص من وسوسات الشيطان، ومن الخواطر الردية. دفن نفسه، أمات شهواتها فلم يبقَ له منها حظ ظاهر. قيَّد نَفْسه بالأمر والنهي. لم يعُد يكتب التعاويذ والتمائم والرقى والأحجبة، ولا يطرد الجان، أو يفك السحر. يملؤه إحساس بأنه بين الناس في بحري، كالنبي في أمته، يهملون تنبيهاته وتحذيراته. تنشأ في داخله أحوال كما الصوفية: الإشراق، الجذبة، الوجد، الفناء، استرواح نسيم القرب في أوطان الخلوة، مشاهدة الجمال الإلهي بعين القلب. انصرف إلى أحواله. تهب على القلب رياح العناية: يصعد في معارج دُرِّية مضيئة في رحاب أولياء الله. يخرج من سجن الأكوان، يرقى إلى فضاء المراقبة والشهود والمُعايَنة. ينكشف حجاب الحس وظلمة الكون. يرى ما يتصوَّر، ما يثق، أنه الشيطان. يصرخ، يستغيث بما لا يراه، لينقذه مما يراه.

صعد إلى مئذنة علي تمراز. أذَّن للظهر دون ميكروفون. قال: قررت ألَّا أؤذِّن في حديدة.

عدل الشيخ عبد الحفيظ عن منعه من دخول الجامع، بعد أن رأى أشباحًا تتراقص — عقب صلاة العشاء – فوق سلم البيت. تصل إلى البسطة التالية للمدخل، وتعود. تواصل الرقص حتى تغيب في الانحناءة. ثم تظهر برقصاتها الطيفية، العجيبة، كأنها تداخل دخان، وإن ظهرت الأجسام — في انفصالها — واضحة.

أهمل ما رأى، وإن طاف عم سلطان بمبخرة في أركان الجامع، وتلا آية الكرسي وأدعية، ووزَّع ورقة، عليها آيات من القرآن. قرأها المصلون، والسكان داخل البيوت. أعادوا قراءتها على الماء، ورشَّه في أركان الشقق، وعلى السلالم، وفوق الأسطح.

انهالت الحجارة على الشيخ عبد الحفيظ من الخرابة المواجهة للبيت. تقذفها أيدٍ نهاياتها في الفراغ. اعتلى مَن لم تتفق الروايات على ملامحه سطحَ بيت إبراهيم سيف النصر المواجه للجامع. قذف الحجارة على رءوس المارة وعربات الكارو في ميدان الخمس فوانيس.

قيل: إن جابر برغوت أخذ العهد على رؤساء الجن من الصالحين، لا يؤذيهم ولا يؤذونه. يجعلون أنفسهم في تنفيذ إرادته، ومُناوءة خصومه، حتى وإنْ كانوا من ذوي الجلال والهيبة. وقيل: إنه أفلح في أن يستخدم جماعة من الجن، يأتون إليه بالأخبار والمغيبات، ويكشفون ما تخفَّى في القادم المجهول. أذعن له أولياء الجن، يأتمرون بأوامره، ويخضعون إرادتهم لإرادته. مَن يقدر على تسخير الجن ولي صالح، داوم على الطاعات والأذكار، حتى أُتيحَت له خوارق العادات. وروى عبد العال السكري بائع الدندرمة، أن الشيخ جابر — حين ضايقته مؤاخذات الشيخ عبد الحفيظ — طمس على قلب الرجل؛ سلبه كل ما في رأسه. حتى الفاتحة نسيها، وضاع كل ما كان في نفسه من علم. تنكرت عليه أحواله، فلسانه يتعثَّر في إلقاء خطبة الجمعة، والعجز يغلبه في الفتاوى، والنوم يغمض عينَيه وقت درس المغرب. لم يعُد إلى الصلاة، ولا إلى إمامة المصلين، إلَّا بعد أن فتح أبواب علي تمراز للشيخ برغوت، لا يعترض على دخول الجامع في ليل أو نهار.

خلَت عظات الشيخ عبد الحفيظ — في الأيام التالية — من رفض التصوُّف، والإنكار على أهل الطرق والموالد والأذكار والكرامات. لم يرفضهم، ولم يؤيدهم كذلك.

طالت جلسة جابر برغوت لصق مقام سيدي علي تمراز. تدور عيناه في أركان الجامع: الأعمدة التي تحيط بالصحن، وتتوسطه. القبلة المجوفة في الحائط مزدانة بآيات قرآنية بخط الثلث، يجاورها المنبر الخشبي ذو التداخلات المعشقة. المقرنصات والعقود المحمَّلة بالجفوت والصنج والخناصر. الزخارف الجصية الرقيقة، تعلو الجدران بامتداد الإفريز العلوي لصحن الجامع. النجفة المدلاة من السقف، واللمبات المتناثرة في الجوانب، والنوافذ الزجاجية الملونة — في أعلى — تصنع تداخُلًا بين الضوء والظلال. إلى اليمين: المقام ذو الكسوة الخضراء، المحاط بالنحاس اللامع، بالقرب من الباب المُفضي إلى شارع التمرازية، وحجرة الشيخ عبد الحفيظ التي تسبح — دومًا — في ضوء خافت. يتوجَّه نحو القبلة، متربِّعًا. يُغمض عينَيه، ويضم شفتَيه، ويضع راحتَيه على ركبتَيه، ويطرق رأسه. لا تشغله الوحدة، ولا العزلة عن الناس، ولا أصوات التلاوات والتكبيرات، وأدعية الساعين حول المقام. قطع أوقاته بالفكر والتأمل والمراقبة. وكان يلجأ إلى المكتبة الخشبية الصغيرة، بالقرب من المقام، يقرأ في التاريخ وسير الصالحين.

لاحظ عم سلطان أن الموضع الذي يرقد فيه جابر برغوت، لصق المقام، يظلُّ مُضاءً إلى الصباح. وكان عم سلطان يطمئن إلى إطفاء كل اللمبات. فإذا صحا برغوت من رقدته، يخرج منه نور يخترق رمادية الصباح الباكر، وتتضوع في صحن الجامع رائحة بخور، وتتعالى ألحان وأصوات سماوية.

تخلى عن القيود، وقطع رجاءه بدنيا الغاوين.

الناس في عمًى. سُدَّت أبصارهم، فتاهوا في أودية الحيرة، وعثرت بهم الضلالة في وهدات لا حصر لها. استولت عليهم دواعي العصيان، فهم لا يسمعون موعظة، ولا تزجرهم معصية. يرفضون كشف الغطاء، بتعرية ظلام وجودهم. أعطاهم الله الدنيا، ليستعينوا بها على خدمته، فحادوا عن موجب الأمر، ومالوا إلى جانب هواهم. أعرضوا عن الشكر، وتباعدوا عن بساط الوفاق، وظهر أهل المنكر على أهل المعروف، وتكرَّر عدوان المارقين، وانتشر شرهم، وآذوا المستأمنين، وغدروا بهم بغير حق، وانطوى بساط الخير، فعيل صبر المتقين.

متى ينزل المطر من محاضر الرحمة، يُحيي أرض القلوب الميتة، فتنبت كلأها، وعشبها الوفير؟ متى تفيض أنوار القبول، وتتعطَّر الأسرار بنسيم القرب، أو تنقلب الآية، فيدور الهلال، وتزلزل الأرض، ويُقرقع الرعد، وتُرفرف الطيور بصراخ، وتظهر في الشمس ظلمة كما الكسوف؟

صراع

رأى مهجة تهبط من ترام ٤ القادم إلى بحري.

غالبَ ارتباكه. لم يحاول اجتذابها بأي كلمة أو تصرُّف. لا يدري إن كانت لمحَتْه أم لا، لكنها عبَرَت ميدان أبو العباس إلى شارع السيالة.

ظلَّ — لحظات — مقيَّدًا في مكانه. نسي لماذا هو هنا، أو لماذا جاء.

لاحظ خلو أصابع يدَيها من دبلة. أدرك أنها لم تُخطَب بعدَ طلاقها من فؤاد أبو شنب. وأدرك أن حُبه لها ما زال كما هو، لم يتغير بانقضاء السنوات، ولا بكل ما جرى. حتى زواجها من فؤاد أبو شنب لا حيلة لها فيه، وهي التي أجبرته على تطليقها. هي تُحبُّه، وهو يحبُّها. هو الآنَ موظف بمصلحة الموانئ والمنائر. مستقبله لا صِلة له برفض أبيه، ولا بالقهوة.

– إلى أين؟

سيد الفران. الخصلة المتهدِّلة، والوجه النحيل، والعينان الواسعتان، والأنف الضخم، والسِّنَّتان العُلويتان النابيتان، تضغطان على الشفة السُّفلى.

أسعفَتْه بديهته: عائد من الحلقة. اشتريت ثلاث أقات ترسة!

قال سيد: ولماذا تتعب نفسك؟ أنا موجود!

وأعاد خصلة الشعر المتهدِّلة إلى موضعها: أنت لم ترَ كشك سيد حتى الآن. ماذا لو زرتني؟

اتسعت ابتسامته: بعيد؟

قال سيد: أبدًا. على ناصية الموازيني.

وهما يعبُران الطريق سأل بعفوية: ما أخبار ولي العهد؟

– ولي العهد؟!

لو أن هشام يعرف ماذا واجه بالأمس حتى ينتزع الأمنية الصعبة؟!

أطلق «أف» منغَّمة، حاول من خلالها أن يلمَّ مشاعره المُبعثَرة، الخائفة.

بدت الوكالة أمامه ساكنة، غارقة في الظلام، فيما عدا لمبة خافتة في نهاية الساحة الواسعة.

حذرت زمزم أنسية من أن البيت قد يكون ملاذًا لروح شريرة، تمنع الخير عن أصحابه. تجاهلت أمر سيدي ياقوت العرش إلى التاجر كمال مصباح بأن يُعطيها الشقة. بخَّرَت الحجرات كلها، ودَعَت الشيخ مكي قارئ سيدي نصر الدين، فقرأ آيات من القرآن لفك الأعمال السفلية. علَّقَت — أعلى السرير — أحجبة وقِطَع نحاس وخرزًا ملوَّنًا. وضعت في جوانبه أربعة سكاكين، تخيف الشر، تدفعه إلى التراجُع، فلا يركب السرير، لا يطول أذاه الجنين في بطنها. كتبت لها نظلة حجابًا، تشربه مع الطعام، أو مع الماء، أو مع الشاي، أو اللبن. لا تعلِّقه، ولا تضعه تحت المرتبة أو المخدة، لكنه لا بد أن يدخل معدتها، يحدث تأثير الطعام والشرب والدواء، في تحقيق العافية للبدن. خضبَّت يدَيها وقدمَيها بالحناء، ودلَّكَت نظلة جسدها بمزيج من الأعشاب البرية المسحوقة، المخلوطة بماء الورد والطلاسم والأدعية. نصحتها الكودية نظلة أن تتحمَّم في ماء مخلوط بدم قلب كلب أعمى.

قالت من بين دموعها: والمرسي ... لا تعُد من غيره.

رفع حاجبَيه في دهشة: إذا لم يكُن أعمى ... ألا يصلح؟

تحوَّل بكاؤها إلى نشيج: طلب الأسياد.

وأعادت القول: لا تعُد من غيره.

وهو يهز رأسه: بإذن الله.

داخَلَ صوتها حشرجة: سأقتل نفسي لو تكرَّرَت وفاة المولود.

الْتَمعَت عيناه: لا تكفري يا ولية ... حتى لا يعاقبنا الله.

الْتقطَ كلمات قاسم الغرياني: أغرب حراسة في وكالة درويش بسوق الترك ... الحارس كلب أعمى!

انشغل بمراقبة الوكالة، حركة الدخول والخروج، موعد قدوم الخفير، وموعد انصرافه، تبدو كقلعة ساكنة الواجهة، يشي الباب الخشبي الضخم، الموارب، بالحياة داخلها، وإن تغطَّت — في النهار — بظُلمة شفيفة. وأنارتها — إلى الصباح — لمبة صغيرة، مدلاة من السقف، في نهاية الساحة.

كان يشغله ألَّا ينبح الكلب، وألَّا يُصدر صوتًا يشرخ الصمت المحيط بالمكان. يثق أنه أعمى، وإن خاف أن يشي به نباحه.

حاول أن يدفع الباب، فزام الكلب.

اجتاحه خوف ... ظلَّت قدماه في مكانهما ... تسرَّبَت القدرة على الحركة من جسمه ... فكر في العودة من حيث أتى.

قبل أن يدفع باب الوكالة، تعالى النباح من الداخل. توالت اللحظات بطيئة تفحُّ بالخوف، فأدرك أن الكلب مربوط في سلسلة.

تعمَّد أن يحدث حركة في وقفته، لكن الكلب — في ضوء عود الكبريت — هزَّ ذيله، ولم ينبح، وظلَّت عيناه في تحديقهما الساكن.

تحسَّس السكين بيده المرتعشة ... أحسَّ ببرودتها تُلامِس أصابعه.

لما زمجر الكلب في مكانه، خمَّن أنه شعر بوجوده.

تواصَلَ زمُّ الكلب في تواصُل، دون أن يفتح فمه. ثم وقف على قدمَيه الخلفيتَين، ومال بصدره إلى الوراء، وأطلق صوتًا ممطوطًا كالعواء.

سحب السكين من جيب بنطلونه الخلفي، وتقدَّم داخل الوكالة.

ألقى أمامها جثة الكلب: أمامي مشوار إلى مستشفى رأس التين لتلقِّي حقنة في البطن واحدًا وعشرين يومًا!

شهقت في تراجُعها إلى الخلف ... علَت رائحة التعفُّن. سدَّت أنفها بأصابعها. أحسَّت بأمعائها تتحرَّك، تصعد بدوار وميل إلى الغثيان. وضعت يدها – بتلقائية – على فمها المفتوح. مالت المرئيات — بالخوف — وتشابكت، واختلطت. لم تلحظ الخدوش التي تقاطر منها الدم في وجه سيد وذراعه. تخاذلت قدماها فلم تساعدانها على الوقوف، ولا أسعفها لسانها بما ينبغي قوله. ثم أسرعت إلى المطبخ. أفرغت كل ما بجوفها.

قرفصت نظلة بجثتها الهائلة، وبشرتها السوداء، وأنفها الأفطس، ورنين الأساور الذهبية يعلو في ساعدَيها. هوت بالساطور. شطرت الكلب المذبوح، الملقى على ظهره، إلى نصفَين. ثم شطرت الصدر وأعلى البطن إلى نصفَين. أعملت السكين في الصدر، فاقتطعت الجزء الأيمن منه.

أغمضت أنسية عينَيها بالخوف، ولحم الكلب يقاسمها ماء الطشت، ويد نظلة تضوع البخور في الأركان: يا سيدي المرسي. فك عقدة أنسية بنت ...

واتجهت إليها بالقول: ما اسم أمك؟
ظلَّت عيناها مغمضتَين: أم رمضان.
قالت نظلة: اسمها هي؟
– هاجر.
واصلت نظلة تضويع البخور: يا سيدي المرسي ... فك عقدة أنسية بنت هاجر.

حمل سيد ما تبقى من الكلب. ألقى به في البحر، فلا تحدث عكوسات.

سكوبا

أما لماذا عرضت عليك أن تغوص معي، أو نغوص مجموعة، فذلك ما لم أطلبه من قبل.

الهمس بأني أهملت الجسارة القديمة، وأصبحت خوافًا، منذ لقي زميلنا طه ملوخية مصرعه. نسي ماسك الأنف المطاط، فواجه الخطر في عدم معادلة الضغط. أصابته الطلعة المفاجئة بالشلل، وظلَّ في المستشفى الأميري ثلاثة أيام، ودعناه بعدها. يصلني في جلستي في قهوة الزردوني، أو في الحلقة، أو في ورش المراكب. ربما الْتَقيت على الكورنيش بمَن يواجهني بالهمسة الشائعة. يغلف الابتسام كلماته.

لا يشغلني الغوص — كما تعلم — في المناطق الزرقاء، العميقة. أهمل الْتِماع عينَيك بالخوف وراء النظارة. غُصت ما يزيد على العشرين عامًا. تنقلت في أعماق البحر من رأس التين إلى السلوم. واجهت مشكلات ومتاعب، أنقذني منها الزملاء، أو أنقذت نفسي، ولم أتحدَّث عنها. طلعت بكميات لا أذكرها من الإسفنج.

لم أتنبَّه — ذات يوم — إلى الأمتار التي غُصتها. أذهلتني رؤية درفيل ضخم. انتترت — بالذعر — إلى أعلى. أحسستُ — حالًا — بميل إلى النوم. أنقذتني صيحة حكيم منيب، وإمساك يده بساعدي نحو البلانس.

ظللت راقدًا ثلاثة أيام لطلوعي المفاجئ، عرفت بعدها أن الدرفيل صديق الغطاسين. هكذا قال لي الخواجة نيقولا. وهو ما أكده الجد السخاوي، وأنا مستلقٍ — في البيت — على ظهري.

وحين شكوتُ ألم أذني إلى الطبيب في المستشفى الأميري، وضع أذني أمام عينَيه، وسلَّط ما يُشبه البطارية فيها. ثم قال وهو يرفع مرآة مستديرة، صغيرة، على جبهته: أنت تُعاني تهتُّكًا في طبلة الأذن.

ثم وهو ينقر بإصبعه على خدي: دخل الماء الأذن الوسطى.

أضاف للتساؤل في ملامحي: إن لم تحرص على الدواء، ربما أُصبتَ بالصمم!

وعلا صوته في تحذير: قد يُفضي الإهمال إلى تعرُّضك للشلل!

لم يكُن الخوف في بالي، ولا عرفته. أتأكد من وضع النظارة بما يمنع تسرب الماء، الشنوركل في الفم، الزعانف في القدمَين. آخِر ما أضعه فوق بدلة الغطس حزام الأثقال وأسطوانة الهواء. ربما استخدمت بدلًا من الشنوركل أنبوبة خفيفة، مستقيمة، ومفتوحة، دون صمام. هذا ما يفعله معظم الغواصين، ويفضلون عدم استخدام أدوات معقَّدة تخونهم وقت الحاجة إليها. أقرأ الفاتحة. لا أستخدم الأربطة قبل أن ألتقط شهيقًا من الأنف، وأحبس أنفاسي. تسبق يدي بسكين الغطس نزولي في الماء، أو أربطها حول ساقي. لا يشغلني إلا الصعود بالإسفنج. لا أعطي انتباهي للروايات المفزعة عن غواصين أخطأوا، ففقدوا السمع، أو قضوا بقية حياتهم مشلولين، أو ماتوا.

فتحي عبد ربه ... هل تذكره؟

زاملنا في الغوص إلى أعماق بعيدة. من العجمي — غربًا — حتى السلوم. صعد من الماء مشلولًا. نزل إلى الأعماق ما يزيد على الأربعين مترًا. واجه شيئًا لم نتبينه. بعد أن أخرسه الشلل، شيئًا قاسيًا، مفترسًا. دفعه إلى الطلوع من المياه بسرعة. نسي الحقيقة التي نعرفها. بتأثير الفزع نسيها. طلوع الأربعين مترًا مرة واحدة، أضاع توازن الدم، فشل الجسد.

تعلمت كيف أهتدي إلى الإسفنج، ملتصقًا بالقاع، والصخور، والطحالب والأعشاب الغائصة في الأعماق.

أفضل الأنواع ما أعثر عليه في المياه العميقة. أتفادى أعلام الغطس والعوامات المتناثرة. أحرص على مسافة كافية، فلا أواجه الإصابة دون قصد، وأتجنَّب قناديل البحر، والشعاب المرجانية الملونة، والأخاديد والنخور العميقة، المتعرجة، والتشكيلات الصخرية، والأسماك الكبيرة. لا أستعمل السكين. أضرب الحيوان — بقوة — من أسفل. أنتزعه، أو أخلعه ببطء، من المحيط الخارجي إلى مركز التثبيت. أنتزعه برِقَّة، فأضمن الحصول على الحيوان كاملًا، وغير ممزَّق. التقطيع — كما تعلم — يقلِّل من رتبة الإسفنج. أضيف إلى ما اصطاده الزملاء، يوضع كومات على الشاطئ، حتى تتعفَّن أنسجة الأجزاء الرخوة. تعصر الهياكل المتبقية. تغسل بمياه البحر. تربط في حزم، ثم تجفف في الهواء، وتظل منشورة حتى تتحلَّل بأشعة الشمس. تنظف جيدًا، ثم تبيض. يخلو الإسفنج من الحصى والرمال والأصداف

والأعشاب. تقص الجذور والتفريعات والزوائد. قد يأمر الخواجة نيقولا، فتصبغ باللون البني.

أتنبَّه لنصائح الجد السخاوي: حتى لا يؤذيك الضغط، اتبع الفقاعات. ولا تصعد بسرعة أكبر من سرعة ارتفاعها.

ويعتدل في مواجهة الشمس: الغوص يحتاج إلى فن. القاع مليء بالصخور التي تشبه الصدف.

ثم وهو يهز إصبعه: أقل خطأ يعرِّضك للشلل أو الموت.

يسبق استعداد النزول، تعرف إلى طبيعة المكان، مساحات الغوص، الصخور المخفية تحت الماء، اتجاه التيار وقوته، حركة الرمال بالقاع.

أطلع من الماء.

أتابع — بعين مُتعَبة — عملية التجهيز: دوس الإسفنج بالأقدام، أو عصره لقتل الحيوان، وطرد المادة الحية والسوائل، تجميعه في كومات، تغطيته بأكياس مبللة. يتحلَّل الإسفنج، ويحمل — مغسولًا — إلى البلانس. تستمر عملية التنظيف، للتخلُّص من الرمال والحصى والطحالب والأعشاب.

بداية المشكلة، لما اشترت الشركة جهاز سكوبا، وطالبتنا باستخدامه. يستطيع الغواص أن يظل به تحت الماء ثلاث ساعات. يسمح بالتنفُّس من أنبوبة مطاطية، أحد طرفَيها في فم الغواص. الطرف الثاني يتصل بأسطوانة تحمل هواء غير مضغوط. تستخدم الجهاز مراكب يونانية، تأتي من جزر الدويكانيز. تصيد الإسفنج في مرسى مطروح والسلوم والسواحل الليبية.

قال لي الخواجة نيقولا: لا أريد أي إسفنج. التعاقُد على تصدير أغلى الأنواع.

وافترَّ فمه عن أسنان سوَّدَها التدخين: إنها شركة يابانية تطلب تركي كب أو ملاتي نمرة واحد.

وأضاف بلهجة مؤكدة: إذا أحببنا أن نبيع محصول الإسفنج. فليكُن ذلك الآن.

ثم وهو ينقر بإصبعه على طرف البلانس: ما لم نبِعه الآن ... سنؤجل بيعه إلى العام القادم.

وقطب جبهته، فتكرمشت بشرتها: العادة أنهم يتركون موسمًا بأكمله حتى ينمو الإسفنج ويكبر وتتوفَّر كمياته. فيشترونه في الموسم القادم بسعر الموسم الحالي.

حين أضع الإسفنج على أرض البلانس، أخمِّن الجهة التي سيذهب إليها. التركي كب تطلبه مصانع مستحضرات التجميل. ناعم وجيد الخامة، ويتألف من خمس درجات.

الكباتجة يشبه خلية النحل، يستعمل في أدوات الحمام، وتلميع حروف الطباعة. الزيموكا تحتاجه صناعة المعدات الحربية.

قلت: الزيموكا لا يوجد إلَّا في أبو قير.

قال: أريد التركي كب. ولا يهمني منطقة صيده.

أظهرت القلق: لكنها منطقة خطِرة.

علا صوته بالدهشة: هل يتحدَّث الغواص عن الخطر؟

نصحني الخواجة نيقولا أن أضع ثقلًا من الرصاص في الحزام الملتف حول بطني. أنزل البحر، وأطفو، مثل السمك. أغوص — دون خوف — في الأعماق التي أريدها. أصعد دفعة واحدة إلى سطح الماء. لا أخشى انفجار المخ، أو الشلل.

كنت أخشى تشوُّه العمق.

رفضت عرضًا من الخواجة نيقولا بأن أرتدي نظارة تُعالج تأثيرات التكبير، وتقريب المسافات تحت الماء. أفضِّل رؤية الأشياء كما هي، بالنظارة العادية. يبدو كل ما أراه في صورته الحقيقية، وإن زاد حجمه — تحت الماء — إلى الثلث. تعلمت — بتكرار الغوص — تصحيح أخطاء التكبير والمسافات.

أفضل الغطس ساعات الصباح، أو ساعات بعد الظهر. أفضل من ساعات الظهر. حين تميل أشعة الشمس على السطح. يبدو رائقًا، وشفافًا.

عندما أغوص إلى أكثر من خمسة وأربعين مترًا تحت سطح الماء، أشعر أني أستطيع أن أغوص أعمق وأعمق. أتنفَّس في الماء. أستغني عن جهاز سكوبا.

مع أني أحذِّر نفسي — قبل الغوص — من الشعور بالسكوبا. يلفني، يدفعني إلى النزول في الأعماق أكثر. أتذكَّر تحذيري لنفسي، فأصعد إلى سطح الماء. أعاود التذكر.

أما لماذا عرضت عليك أن تغوص معي، أو نغوص مجموعة، فلأني أخشى أن يسرقني الشعور بسهولة الغوص إلى الأعماق التي أريدها، بجهاز، أو بدونه. أهمل حتى التحذيرات التي تصلني من البلانس بأن أتوقَّف عن الغوص.

إذا كنت معي، أو كنا مجموعة، فإن مَن تسرقه سهولة الحركة ينقذه زملاؤه، نتنبَّه إلى الخطر لحظة اقترابه، قبل أن يغويه جهاز سكوبا.

الرفقة والصداقة والمؤانسة، كلمات نتبادلها في القهاوي، وأثناء سيرنا على الكورنيش، وفي القعدات الخاصة، ولحظات الاسترخاء فوق البلانس. نلتقي بها في الأعماق. دنيا واسعة

من الأسماك والأعشاب والطحالب والصخور والكهوف والتوقعات. لا تقطع دقائق الغوص والطلوع صِلتي بالحياة فوق الماء. الوحدة تقذف بي في دوامة التردُّد، وربما الخوف. إذا رافقني زميل، تصوَّرتُ المساندة في مواجهة ما لا أتوقعه.

لم يبقَ إلا البحر

بسمل الحاج محمد صبرة، وحوقل، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم.

– أعوام لم ألامس بالمقص رأس زبون.

قال المعلم حنفي قابيل: أريد البركة ولا أريد الحلاقة.

رأى في منامه سيدنا الخضر راكبًا على جواد أبيض. بيده سيف أبتر، لم يستقر ولا تحرك. ظهر كالومضة، واختفى كالومضة أيضًا.

قال في تأثر: لذلك قررت أن أنهي حياتي بالحج.

– متعك الله بالعمر المديد، زيارة الكعبة وقبر الحبيب واجب على كل مسلم.

رأى بنفسه أيام فتونة الرجل، قبل أن تغرب شمس الفتوات، ويقنعون بالجلوس على القهاوي، والتجارة، ويُصدِرون الأوامر من نافذة المجد القديم.

كان أعوانه يتقدَّمون موكبه، يُفسحون الطريق بأيديهم وبالنداءات والشتائم. يبدأ معركته وسط الصهبة. يقذف كرسيًّا في الكلوب القريب، فتصمت الأغنيات والزغاريد. تنهال من بعده الكراسي، وتتمطى الفوضى، وتختلط الصرخات والصيحات والضربات الموجعة. وكان إذا نطح برأسه، كسر رأس الذي يعاركه.

وصحت السيالة — ذات صباح — على حبل يسد الشارع، لا يواصل أحد السير إلَّا إذا دفع قرشين.

لم يُخفِ غضبه عندما شكا الحاج قنديل علي الراكشي في نقطة الأنفوشي.

قال بتأسُّف: وهل قصَّرت حتى يلجأ إلى النقطة؟!

كان يعتز بأنه لم يدخل القسم في مشكلة. حتى لو أذية غدر، يتماسك، فلا يُبلِغ القسم. هو الذي أوذي وليس الحكومة. عليه أن يأخذ ثأره بيده.

حتى بعد أن قنع بالجلوس في قهوة الزردوني ظلَّ ملتفًّا بالمهابة. كانت له ملاحظاته، وآراؤه، وأوامره النافذة.

وحين غادرت الست جمالات السيالة، ذاع أن الرجل أَمَرَها بترك الحي. أغضبته حكاياتها مع الأسطى فتحي. ثم شدَّد على فتحي أن يترك السيالة هو أيضًا.

ظلَّ على حاله، لا يعبأ برجال الإدارة، ولا يُظهر لهم اهتمامه. حتى الصاغ قرة إذا وقف الرجال لمروره أمام القهوة، ظلَّ هو في مكانه. لا يغادر مبسم الشيشة شفتَيه، ولا تتحوَّل نظراته.

قال المعلم حنفي قابيل: ليس في الأمر حتى الآن مشكلة. ولكن ما الذي يمكن أن أفعله عندما يتقدَّم العمر، وأُصاب بالْتِهاب المفاصل والسكر، وأواجه أول أزمة قلبية؟!

سعى إلى صلاة الجمعة في أبو العباس، وإلى أوقات الصلاة في المساجد القريبة، وحمل مسبحة. وألف الناس تمتماته بآيات وأدعية. واختار الجلوس على قهوة الزردوني. يرد على السلام، أو التحية. لا يلح — كما الزمن القديم — في ضرورة الاستضافة، ربما مضت ساعات وهو جالس — بمفرده — إلى النرجيلة يحتسي دخانها، ويتأمَّل المدى، ويجترُّ في ذهنه ما يبين بالتأثر في ملامحه.

البداية لا يذكرها أحد. ربما قبل الحرب العالمية الأولى، وربما بعد انتهاء الحرب مباشرة. طافت المعارك بالأحياء، لترسو — في كل حي — على برِّ الفتوة الواحد: الشاطر فتوَّة رأس التين، السكران فتوَّة السيالة. لم يكُن حنفي قابيل فتوة منطقة بالذات. قدم من الصعيد إلى بحري في شبابه. رفض البلطجة، وإن عمل له الجميع ألف حساب. امتدَّت معاركه إلى كل أحياء الإسكندرية. لا يحمل سلاحًا، حتى لا يقبض عليه البوليس ومعه ما يدينه. خاتمه الضخم يلتف حول إصبعه يكفل تكسير الأنف أو الأسنان. يُحسِن الملاكمة، واستعمال المقص والروسية؛ يحيط بخصر عدوه، فيعصره، تكاد روحه تطلع من فمه، ينهال على رأسه وصدره بقبضة حديدية، قد يلوي الذراع، ويضرب الركبة في أسفل البطن، إذا مرَّ على قهوة، انتتر الجالسون وقوفًا لتحيته، لا يعودون إلى أماكنهم إلَّا بعد أن يميل في شارع جانبي.

قبض عليه البوليس، في خناقة مع عساكر إنجليز بالمنشية، عافر، وعصلج، وأوعز الضابط الإنجليزي للمُحتجَزين، فاتهموه بسرقة أموالهم.

قال عبد الرحيم، فتوة اللبان، للضابط الإنجليزي: أضربه، فتخلي سبيلي؟

وافق الضابط، مشاغبات قابيل ومعاركه همٌّ يومي لأقسام الإسكندرية. لو أن فتوة — مثله — يذل أنفه؟

دُفع الاثنان داخل زنزانة مغلقة.

أذهلته المفاجأة لما فتح الزنزانة. خرج حنفي قابيل بمفرده. سعى إلى ركن القاعة، وجلس.

من يومها، ألف حنفي قابيل التردُّد على أحياء الإسكندرية. يدخل معركة مع فتوة كل حي. يغلبه، ويعود.

طرف خيط البداية، في افتعال خناقة. اصطياد الرءوس الكبيرة، ومرمغتها في التراب. ما تكاد المعركة تبدأ، حتى تغلق أبواب الدكاكين والبيوت، وتغلق النوافذ، وتخلو الشوارع من الجالسين والمارة. تبدو المساحات متسعة، باقتصارها على المتعاركين. يعمق من الصمت ارتطام الشوم بالشوم، وبالرءوس والأجسام والصيحات والتأوُّهات والصرخات. يسير الفتوة في شوارع بحري، يتبعه أعوانه، حاملين العصيَّ والأسلحة. موكب له هيبته. كلما كان الأثر طيبًا، سارت خطوات الأيام القادمة في أرض صلبة. المبالغات تنقل تفاصيل التفاصيل إلى الأحياء البعيدة، تصنع أسوار المهابة حول أطراف الحي. يفكر أبو حمدات الأحياء الأخرى قبل أن يحاولوا اجتيازها.

كان الفتوات يحيون بين الناس. يخالطونهم في الأسواق والشوارع وعلى القهاوي. يزوون الأهل والأصدقاء، يصلون في مساجد الحي، يعقدون الصفقات، يشاركون في حلقات الذكر وليالي السمر. لا يعتدون على الجيران، أو على النساء، ولا يتردَّدون على كوم بكير، ولا يفرضون الإتاوات، وإن استحلُّوا سرقة معسكرات الإنجليز، وسياراتهم، وتحدي السلطة. يرفضون السحت والمال الحرام. مَن خالف ذلك، ينظرون إليه بسخط، ربما توسلوا لجره في خناقة.

الاعتراف بالسيطرة شرط أول، مطلوب. النظر إلى الغلابة بعين التعاطُف جزء من الصورة. الوقوف في وجه الحكومة أجزاء واجبة أخرى: كبس طربوش مأمور القسم على أذنَيه، تحدى الأوامر ببيع المخدرات، وتعاطيها — ولو للمظهرية — في عز النهار، تمزيق محاضر الضرب، كسب الأتباع والمساعدين خطوة تالية. كلما تزايد العدد، تأكَّدَت السيطرة. حتى أقواله وتصرفاته، لا بد أن تشي بانتمائه إلى دنيا الفتونة.

روى الناس عن تصدي السكران لهجوم مساعدي النجرو، فتوة حي المنشية.

كان جالسًا في قهوة البوستة، يرفع — بيد — كرسيًّا، يتلقى به الضربات، في حين تواصلت ضرباته بالعصا الغليظة التي لم تكُن تفارقه، فقضى عليهم تمامًا.

حملت الإسعاف الجرحى عدة مرات، والسكران في مجلسه، ينفث دخان النرجيلة.

رُوي أنه كان يقود عربة حانطور. ينتظر جنود الإنجليز، عند خروجهم من كازينوهات الكورنيش. يقلهم إلى أماكن بعيدة. يقتلهم، ويعود.

لما حلَّ أجلُه، انتهت حياته بصورة لم يكُن يتوقَّعها أحد، ولا توقعها هو نفسه: حدث له مرض شديد، ألزمه الفراش ما يزيد على العامَين. لحقه سرساب، وتشوَّشَت ذاكرته، ولم يعُد يتعرَّف على زواره. وصوَّت أهل بيته في وجهه وهو ينتزع أنفاسه الأخيرة.

صارح الجد السخاوي حنفي قابيل برأيه، في قهوة مخيمخ.

كان قد مضى على قدومه من قريته في الصعيد ثماني سنوات، وكان في عزه. كانت تصرُّفاته تُرضي الجد السخاوي. الأبو حمد الحقيقي يرفض الغدر. ربما نادى على خصمه ليواجهه قبل أن يبدأ خناقة. يُلقي سلاحه إذا كان الخصم بلا سلاح. يحترم المسالم والضعيف، ويحتقر الجبان، يرفض أن يوجه إليه كلمة.

لم يكُن لحنفي قابيل صِلة بالصيادين، وإن قيل: إنه تزوَّج جنية، لا يقوى على مضاجعتها إلا في الشتاء؛ لشدة السخونة في جسمها، إذا انتهى منها، أسرع إلى البحر، يستحم فيه، ليُذهب عنه الحرارة الشديدة.

لأن العروسَين اللذين ينتقلان من حيٍّهما إلى حيٍّ آخَر، لا بد أن يستأذنا فتوة الحي الجديد، اختار منطقة أبو العباس مجالًا آخر لسطوته. بركة الطواف حول المرسي واجبة لكل عروسَين ليلة زفافهما. يتناثر أعوانه حول الساحة الواسعة، يسألون عن الموافقة. الموافقة لها معلوم. مَن يغامر لقاء الرفض ليلة زفافه؟

قيل إنه صاحب فكرة الزفة الإسكندراني. اخترعها ليتقدم الزفة، ويتقدَّم الجميع. إن لم يحدث ذلك، فلا أحد يدري مصير الزفة، ولا مصير المشاركين فيها. حتى العريس قد يواجه الموت بضربة شومة.

يسبق أعوانه أهل العروسين بالهتاف:

يا عريس يا حلو يا بن الناس.

يا وردة محطوطة في الكاس.

هنزوَّرك لأبو العباس.

يصحب أعوانه موكب العروسين، حتى يغادر بحري. يتسلَّمه أبو حمدات الأحياء الأخرى. العصا الغليظة تتقدَّم الموكب. لا تشرع عصى الأعوان إلا لضرورة. ربما هُوجم الموكب المتقدِّم، فيثور غبار الأقدام والأجساد المتلاحمة والشوم والخناجر.

لما جرَت النقود في يد عبد الرحيم استأجر حجرة للدعارة في حارة الشيخ سلامة الراس، وثانية تطل على سيدي المغاوري، وثالثة في حارة مدورة. اعتبرته المعلمة إنصاف منافسًا. أبلغت البوليس بزهري أصاب واحدة من نسائه.

تناقضت التوقُّعات.

قيل إن عبد الرحيم أمَرَ أعوانه بإغلاق بيوت إنصاف في كوم بكير، وفي أحياء الإسكندرية. وروى سيد الفران عن حديث هامس في قهوة مخيمخ، بين حنفي قابيل وأحمد قاسم ضابط مباحث الجمرك، تردَّد فيه اسم إنصاف. امتدَّت التوقعات، وتشابكت، ثم فاجأ حنفي قابيل الجميع بزواجه من إنصاف.

تكاثر الفتوات كالجراد. كل مَن لطشه السلك، وصار بلا مهنة، أعلن نفسه فتوة، يخوض المعارك، أو يرشو الأقوى لقاء تغاضيه. هجر حنفي قابيل الفتونة، وفَرْض الإتاوات، والدخول بالمعلوم في معارك الأحياء. استهوته تجارة الممنوعات، ومسروقات السلطة العسكرية. يتسلَّل أعوانه إلى معسكرات مصطفى باشا وكوم الدكة ورأس التين. يتسلَّق أحدهم سيارة نقل عسكرية، يقذف ما فيها إلى الباقين، الذين يعدون خلف السيارة. زادت جرأته، فباع ملابس العساكر الإنجليز وهم يرتدونها. يشك العسكري مقلبًا، يضربه روسية، يعرِّيه من ثيابه بالقوة. لم يحمل السلاح أبدًا لعلمه بخطورته. تسلل الأعوان — ليلةً — إلى معسكر رأس التين، فسرقوا صندوقًا هائلًا. أذهلتهم المفاجأة لما وجدوا بداخل الصندوق جثة. خطف توتو الرشيدي — أقرب أعوانه — كرتونة معلبات من سيارة جيب إنجليزية في شارع إسماعيل صبري. لَمَحَه السائق، فجرى إلى الخلف — دخل وراءه — دون أن ينزع الحذاء، وسط المنتظرين صلاة الجمعة، خارج علي تمراز. أقعده إلى جواره، وانطلق بالسيارة. وشى الرشيدي بمعلمه وبقية الأعوان. عادوا — في اليوم الثالث — تسبقهم تأكيدات بحماية السلطة.

شكا الأهالي من أن البوليس يخشى الفتوَّات. يرفض تحرير محاضر الضرب والتعدِّي. يبتعد عن الخناقات حتى تنتهي.

ساعدت إنصاف حنفي قابيل بمعارفها من ضباط البوليس. خلت المحاضر من حادثة ضده، أو ضد أعوانه. تكاثر أعوانه مدفوعين بإحساس الطمأنينة. انطوى بحري في إرادته، الأنفوشي والسيالة ورأس التين، فرض سيطرته على الميادين والشوارع والحواري والقهاوي والدكاكين، صبيانه يرصدون له تحركات الفتوات الآخَرين ووجهاء الحي. حتى حفلات عقد القران والحنة والزفاف يعرف مواعيدها بالساعة. امتدت السيطرة إلى داخل البيوت. صبيانه يطرقون الأبواب — في الليل والنهار — يبلغون السكان بما يطلب، مَن يرفض أو يتأخر عن التنفيذ، يُفاجئه قذف حجر في زجاج نافذته، أو طعنة خنجر وهو يتلمَّس طريقه — ليلًا — في مدخل البيت، أو حريق داخل الشقة غاب مصدره. كان يعتز بأنه يملك الشوارع من صلاة العشاء إلى ما بعد الفجر، ويعتز بأنه يملك بحري في كل الأوقات. أعوانه المبثوثون يفرضون سطوته على البيوت والدكاكين وروَّاد القهاوي. ثم جاوزت سطوته بحري إلى أحياء أخرى قريبة. قيل إنه عقد صفقات لشراء مخلفات المعسكرات البريطانية، قبل جلائها عن المدينة.

تلاشى صغار الفتوات، وإن أوصى حنفي قابيل صبيانه بتجنُّب الخصومة ما أمكن. لم تعُد الإتاوات مقصورة على بحري فقط. تقاضى إتاوات في المكس وأبو قير. وأتاه مرعي بيبي بحمولة — هدية — من كفر الدوار. زاد، فأمر فرق الصوفية — عندما تخرج في الموالد — أن تمر بزقاق العماوي — رغم ضيقه — وتتوقف أمام بيته. يستضيفهم بأكواب الماء المثلج والقرفة والشاي.

حدث ما كان يتجنَّبه حنفي قابيل.

اقتحم الشاطر مجلسه في قهوة النجعاوي. يرتدي جلابية من الحرير، ويضع على رأسه طاقية بيضاء، ودس قدمَيه في مركوب أصفر.

رماه بنظرة متحرِّشة: تركتَ البلد لكلابك يَبُولون فيها، حتى اقتحموا بيتي.

انتزع حنفي قابيل مبسم النرجيلة من شفتَيه في قلق: مَن يجسر يا أخي؟

– الولد مرعي بيبي، تعرَّض لكبرى بناتي في طريق عودتها إلى البيت.

مسح مبسم النرجيلة بباطن يده، وقال في هدوء: أعدك بتوبيخه.

غالب انفلات أعصابه: أنا الشاطر!

في لهجة ذات مغزى: وهل أنكرت ذلك؟

وهو يضغط على الكلمات: هذا الكلب لا يدخل الأنفوشي.

ظل حنفي قابيل على هدوئه: مبلغ علمي أن الأنفوشي مِلك الحكومة.

صرخ في صوت محترق: وأنا فتوته!

طوح بمبسم النرجيلة ناحيته: دافِع عن شرفك إذَن، وامنعه من الحي.

لوح الشاطر بسبابته: سأمنعه من الحياة نفسها.

تحسَّس طرف شاربه، وغمز بعينه: لا تُسرف في توهُّم حماية الإنجليز.

اقترب منه، فلامست سخونة أنفاسه وجه حنفي قابيل: قبضتي تحميني!

أذنَ حنفي قابيل لمرعي بيبي بنظرة موافقة. قفز أمامه، ووضع أصابعه على جنبيه: أتحداك يا عرة الأبو حمدات!

جز الشاطر على أسنانه: لا تُحسن الظن بفتوتك، فحاميته امرأة!

النظرة السريعة إلى الأعوان المحيطين، وشَتْ برد الفعل. اهتزاز ساقه وشى بالانفعال الذي يغالبه. أحسَّ بما يشبه الخدر يغيبه عن العالم من حوله. قال في صوت يرعشه الغضب: أمنحك فرصة وداع أهلك!

النهاية يذكرها الجميع.

بعد هزيمة هتلر بأقل من شهرين. خناقة ميدان الخمس فوانيس: شك مقالب، ضرب روسيات، شلاليت، كراسي متطايرة، شوم، خناجر، سكاكين، بلط. لاذ مَن فاجأتهم المعركة بمقام سيدي علي تمراز، قبل أن يغلق الجامع أبوابه. أطلَّت الوجوه من النوافذ والشرفات، ومن فوق الأسطح، وإنْ ظلَّت أبواب البيوت مغلقة. حتى باب سيدي علي تمراز المطل على ميدان الخمس فوانيس ظلَّ مغلقًا، ودخل الناس لصلاة العشاء من الباب الجانبي بشارع رأس التين، قبالة محطة الكهرباء.

وقفت عربة لوري أسفل الفوانيس الخمسة، المحطَّمة. نزل منها العساكر، على رءوسهم الخوذ، وفي أيديهم الهراوات. أحاطوا بالميدان الذي خلا تمامًا إلا من المتعاركين. ماجد العطوي ضابط المباحث الجديد — بين دهشة الناس، وتردُّد العساكر والمخبرين — دفعهم بعصاه واحدًا واحدًا، إلى عربة البوكس. انطلقت بين الأعين المندهشة التي كانت ترقب من بعيد.

مضى العساكر والمخبرون وراء بقايا المعركة من الفتوات، في الشوارع المتصلة بالميدان والحواري والأزقة ومداخل البيوت. قلبوا عربات اليد، ربما تُخفي تحتها مَن يريد الفرار. قبضوا على العشرات من الذين شاركوا في المعركة، أو لمجرَّد الاشتباه. لفظهم قسم الجمرك بعد ثلاثة أيام، إلى الشوارع والأزقة والقهاوي، لا معايرة بكلمة، أو جر لخناقة، أو

محاولة لفتونة. جرت بعدها معارك صغيرة في قهوة الزردوني، في ساحة المعهد الديني، في المسافرخانة، في الباب الخلفي لجامع البوصيري، على ناصية شارع الميدان. صفافير العساكر تعلو في كل مرة. يأتي ماجد العطوي بعصاه التي لم تكُن تفارقه، يطيح في المتعاركين دون تمييز. يعاونه العساكر والمخبرون بالشوم وكعوب البنادق. يدفع المتعاركين — في النهاية — إلى البوكس.

شاهد صبيًّا في سوق الترك يردِّد: الشاطر ضَرْبه قاسي، ياما كسَّر بالكراسي.

مات الولد لما ناداه: أتعرفه؟

في خوفه: مَن؟

– الشاطر.

– سمعت الأغنية.

لكزه في كتفه: لا ترددها!

حين أصدرت الحكومة قانون إلغاء البغاء، طالبت إنصاف زوجها بأن يحمي أعوانه بيوتها السرية. خافت النسوة من القانون. تسرَّبْن من البيوت التي استأجرتها إنصاف في كامب شيزار والشاطبي والإبراهيمية. لم يعُد إلَّا أربع نساء، اضطررن — للظروف القاسية — إلى البقاء في البيوت.

لم يعُد هو الفتوة القديم، يشخط، وينطر، ويتقاضى الإتاوات، ويفرض المعلوم، ويدخل ويخرج، فلا يُصاب بخدش. تطلب منه شراء حاجاتها من سوق راتب، أو شارع الميدان، مرافقة النسوة إلى بيوت الزبائن فرارًا من ملاحقة البوليس. لم تكُن تأذن بلقاء أحد داخل بيوتها. حتى الحساب يجري بعيدًا، فلا يأخذ البوليس باله. وكان يحمل حقائبها إذا غادرت البيت في مشوار. أدرك المهانة التي وصل إليها. اعتبره الناس مجرد زوج لإنصاف. حتى اسمه يغيب إذا جاءت سيرة الفتوات.

رمقها بنظرة سخط: تحرص على إخفاء الشَّعر الأبيض بخضاب ظاهر، توصي به في سوق الدقاقين. يتألَّم لرؤيتها وهي تصحو. لا تستطيع أن تحرك مفاصلها، تعاني لأقل حركة. تبحث يدها عن دواء الضغط فوق الكومودينو، قبل أن تنزل من السرير. تقضي وقتًا طويلًا في تجلية وجهها؛ تدلِّكه باللبن، أو بالزيوت العطرية، أو ماء الورد، أو قشر الخيار. تجمِّله بمعجون الحسن يوسف، يأتي به مرعي بيبي من زنقة الستات.

قال في تسليم: انتهى زماننا، رأيي أن نفكر في مهنة جديدة.

علا حاجباها الرفيعان: دعك مني، هل تقوى صحتك الآن على العمل؟

ثم في صوت كالدندنة: مرات العليل شافت بلا جوزها، نطت من الحيطان.
فوت المعنى: يمكنني العودة إلى الصعيد، وشراء أرض نحيا من إيرادها.
فهمت ما يقصده، فقاطعته: لا أنتقل من الإسكندرية، ولا أغير الكار الذي أعرفه.
حاولت أن تفتح بيوتها لألعاب القمار، أو لتعاطي المخدرات. لم يأتِ الإيراد بهمِّ المغامرة.
غالَبَ انفعاله: كار الشؤم!
خبطت صدرها في تحسُّر: كأنك لم تكسب منه!
ارتعشت أهدابه: تتهمينني بالقوادة؟
لوَّنَت صوتها: العفو يا سيد الشرفاء!
جاهد حتى لا يفتضح انفعاله: من حق الرجل أن يصحب زوجته إلى حيث يقيم.
بصقَت في عب فستانها: فإن رفضَتْ؟
اربدَّت ملامحه: يطلقها!
ألقت برأسها إلى الوراء: عين المراد؛ طلقني!
وانتهى عهد الفتوات.

أُفُق بلا غيوم

مضى في الشوارع الضيِّقة، لا يجيل عينَيه في النوافذ المفتوحة، ولا الأبواب التي سُدَّت بالنسوة الجالسات، يعددن الطعام، ويغسلن، ويثرثرن، والبيوت قصيرة، متساندة، تطلُّ من شرفاتها الصغيرة ونوافذها مناشر عُلِّقَت فيها قطع الغسيل، وتكوَّمَت أمامها، ولصق الجدران، عروق الخشب، والشباك القديمة المثقوبة، والصفائح الصاج، والإسفنج، وأعشاب البحر. تتبيَّن أذناه طشيش التقلية، ويشم رائحة التراب والعطن والأسماك الميتة والبول والغائط، وهبات من الهواء البارد تنداح في الْتِقاء الأزقة.

تلفَّتَ — بعفوية — لضحكة امرأة تناهت من نافذة قريبة، تشابهت النوافذ المفتوحة، الخالية. فاتَّجه بعينَيه إلى الأمام، وواصل السير، يحاذر مياه الغسيل الزرقاء المختلطة بالتراب، والأوساخ المتخلفة من تنظيف السمك.

كان يطيل الوقوف على ناصية السيالة — يتوقَّع — أو يتمنى خروج مهجة إلى الشرفة، تنشر الغسيل، أو تُدلي السبَت لبائع، أو تتفرج؛ يشغله أن ينظر إليها، وتعرف أنه يفعل ذلك، تُرهقه الوقفة، فيسير خطوات، ويعود، وعيناه ترنوان إلى شقة عباس الخوالقة.

في شهادة الابتدائية، كتب إلى أبو العباس رسالة، يطلب فيها مساعدته على النجاح، أودَعَها مقصورة الضريح. هل يكتب للسلطان رسالة تحنِّن عليه قلب مهجة فتعود إليه؟ هل يستجيب المرسي؟

حاول أن ينساها.

تردَّدَ — مع أصدقاءٍ، وبمفرده — على كوم بكير. تأمَّل، واختار، وأغلقت صاحبة النصيب الستارة عليهما، يحتضنها دون كلام. لا يسألها عن اسمها، ولا تسأله مَن هو. يكتم رغبته في أن يزيل ارتباكه. تمدُّ يدها. يتمنى أن تشعله المرأة، تزيد من الدفقات الموارة

داخله. يكتفي بفك أزرار البنطلون، حتى لو عرَّت نفسها من الثياب تمامًا. ينتهي، فيُعيد ترتيب بنطلونه. يضع النقود على الكومودينو المجاور، ويمضي. لا يقرِّر العودة إلَّا إذا امتلأ.

لم يكُن يتصورها في نساء الكوم، وإن ظلَّت في باله ساعات وساعات، لا تغادره. يرى صورتها على الوسادة بجانبه، تطلُّ عليه من النافذة، تطالعه في صفحات الكتاب، تتقافز صورتها بين السطور، تكلِّمه، وتُنصت إليه، وتبتسم، وتضحك. يلمحها في زحام شارع الميدان. وحتى لا تغيب عنه، كان يُغلق عليها عينَيه، يتأمَّل ملامحها، وربما صحا على صورتها: الوجه الباسم، العينَين البنيتَين، الواسعتَين، الشَّعر الأسود المُنسدِل على الكتفَين، الشفتَين الرقيقتَين كورقتَي وردة. تتشرَّبها عيناه بنظرات متأملة. تتحدَّث، ويكتفي بالإنصات. سعادته في أنه يجلس إليها، يطمئن إلى وجودها بالقُرب منه. يتأمل تعبيراتها وهي تقوم، وتقعد، وتخرج، وتأتي، وتتكلَّم. يُفاجئها باحتضان أصابعه لأصابعها. تجتذب يدها، ثم تتركها له. يرفعها إلى فمه، ويُقبِّلها.

كان يسرح في تهويمات لا نهاية لها، متداخلة، متشابكة. يمتزج وضوحها وغموضها وبساطتها وغرابتها: يتمدَّدان على رمال الأنفوشي، يتمشَّيان على الكورنيش، يختبئان تحت ظِل شجرة في حديقة رأس التين، يركبان بلانس يُبحر بهما إلى مدن بعيدة، تروي له عن الحياة في الحلقة، ويروي لها عن الحياة في قهوة كشك. عيناه في عينَيها، ينظر إليها، وتنظر إليه. أنفاسهما تختلط. بدَت له ملامستها، يدها أو شعرها أو فستانها، حلمًا يتوق لتحقيقه. لا يكلمها ولا تكلِّمه. لا يطيل الوقوف أمامها. تكفيه الملامسة، ثم الابتعاد.

مالت معظم مشاويره إلى الوسعاية، يبحث عن الوجه الذي لا يخطئه بين البنات الواقفات حول الحنفيَّة. يفرح لرؤيتها. تبطئ خطواته، أو يتظاهر بحاجته إلى الشرب ليقترب، يكتم الخيبة في نفسه إن لم يرَها، ويمضي بالأمل في أن يراها عند العودة.

فوجئ بسيرتها على قهوة كشك.

قال بيومي جلال إنه شاهدها مع شاب غريب في لسان السلسلة، كانت أصابع أيديهما متداخلة، وكانا يضحكان.

قهره الألم.

لم يكُن في بال بيومي جلال فشل زواجه من مهجة، ولا أن المسألة تهمُّه أصلًا.

لم يتدبر السؤال، أو أنه فوجئ به: هل تعرفها؟

قال بيومي جلال: طبعًا. مهجة بنت المعلم عباس الخوالقة.

استطرد في تنبُّه: لا شأن لك بها منذ زواجها من أبو شنب.

شعر بسخونة أذنَيه لسماع اسمها: أنت تحكم على سلوكها.

أطرق برأسه: حكيت ما شاهدته.

تكرَّرَت السيرة، وهو يصيخ السمع لهمس — داخل القهوة — بين مصطفى حجازي ومؤمن الدشناوي، وهو يتابع مباراة الكرة في ساحة السيالة، وهو يفاصل على شروة سمك في شارع الميدان، وهو يقرأ الفاتحة لسيدي خضر.

لم تعُد مهجة التي يعرفها.

رآها تخرج مع بنات في العصاري إلى ما بعد أبو العباس، ترقص في حفل ختان، تحمل صينية البطاطس إلى حلقة السمك، ورآها في ظِل المراكب بالقزق، وتثرثر مع البنات، وتداعب، وتضحك أمام حنفية الماء. وثمَّة بنات وعجائز أخذن جانبًا، يملأن الصفائح، ويغسلن الملابس والحلل والأطباق والأكواب والصواني، يدعكن ويعصرن ويشطفن، ويتبادلن الحكايات والنكات والتعليقات التي لا تنتهي.

مال إلى الحنفية، يتظاهر بالرغبة في غسل رائحة الزفر من جسمه. الحوض الصغير من الطوب المكسو بالأسمنت. يمتلئ، فتصبح الأرض حوله بِركة آسِنة.

عاودتها مشاعر التحدي.

هل يكلِّمها؟ هل يؤذيها؟ ولماذا؟ كلمات طه مسعود ليست قرار الموت. لماذا لم يرفض؟ لماذا لم يصرَّ على زواجهما؟

أبعدت يده وهي تضحك: غسل اليدين مع شخص آخَر في نفس الحنفية، شؤم.

أضافت للدهشة في وجهه: إذا غسلت يدك مع آخَر لا بد أن تتعاركا قبل أن يحل المساء.

قالت أشجان بنت خميس شعبان: فإذا حدث الاغتسال في الليل؟

قالت مهجة: أتكلم بجد.

أردفت كالمتذكرة: وأنا أقف فوق سطح بيتنا أمس، حامت حمامة مرتين من حولي.

وغمزت بعينها: هذا يعني أن مَن يحبني لم ينسَ حبه.

داخلته فرحة، أدرك أنه هو المقصود، وإن ظلَّ على صمته.

دفعت يد الطلمبة، فاندفع الماء في دفعات متوالية، حتى امتلأت الصفيحة.

فاجأته بالقول: يدك معي لأضع الصفيحة فوق رأسي.

تلفَّتَ — بعفوية — حوله. لم يتصوَّر أنها تكلِّمه، فلماذا صدَّته حين الْتَقى بها في شوارع بحري؟

قال بلهفة: أحملها عنك.

هزَّت أصابعها في تظاهر بالخوف: تذهب بها إلى بيتنا ... يراك أبي فيقتلنا.

تباطأت في رفع الصفيحة، شلحت طرف فستانها، ومدَّت ساقَيها تحت الحنفية، دعكت باطن القدمَين والكعَبين، وجانب عينَيها يتأمل وقفته المتحيِّرة، وارتباكه.

أعادت القول: يدك معي.

تقدَّم يرفع معها الصفيحة إلى رأسها. مدَّ يده، ومدَّت يدها. حين تلامست اليدان، شعر بتحرُّك شيء في داخله، ما يشبه الفرحة، أو النشوة، أذهلته عن كل ما حوله، عكسَت ابتسامتها الواسعة سرورها لارتباكه. تخلَّلت بأصابعها أصابعه، فانتفض. نسي أنها تركت يدها في يده، وتكلَّما، وقال لها: أحبك، وقالت له: أحبك، وتكلَّما في خطوات تأثيث البيت، قبل أن يصدر الإمام أمره القاتل.

قالت لأشجان وهما تميلان بالصفيحتين فوق رأسَيْهما داخل السيالة: اسمعوا اليمام ... سبِّحوا ربكو ... جوِّزوا بنتكو.

لم تعُد تفارقه في اليقظة ولا في النوم، ألحَّ عليه إصرار في أن ينفرد بها، يكلمها. يأخذ منها ويُعطي، مجرَّد جمل قصيرة، يوجِّهها إليها هي بالذات، وتوجِّهها إليه هو بالذات. لا يبوح، ولا ينطق عيبًا. يقول كلمات عادية مما يتبادله الناس في لقاءاتهم: الصحة والجو والوقت وغيرها مما يفِد عفو الخاطر. ربما فتحت له قلبها، وفتح لها قلبه، ووصلا البدايات بما انتهى إليه حالهما.

لمحها في انحناءة الطريق إلى الموازيني.

حيَّاها بهزة من رأسه. واجهته بنظرة باسمة، ثابتة، وواصلت طريقها. خمَّن أنها سترُدُّ على تحيته لو ألقاها، وتجيب على أسئلته. تطمئن إليه، وتروي له عن حياتها بعد الطلاق.

لبد لها في عتمة شارع حداية المتفرِّع من السيالة. توقَّع أن تميل إلى الشارع، فيجتذبها. يدفعها إلى سماعه أو ... ماذا؟ لا يدري! المهم أن يجدها أمامه، في النور أو الظلمة، يحدثها عما يُعانيه، ويتعرَّف إلى ما تنوي عمله.

غالب نفسه مرات، خشي أن توبخه، أو تلم عليه الناس.

دبَّر في ذهنه الكلمات، بدل، وأخَّر، وحذف، وأضاف. وحين رآها — ذلك الصباح — تصعد الدحديرة، بيدها كيس لم يتبيَّن ما بداخله، نسي كل ما أعدَّه من كلمات. لفحته سخونة وجهه، وهمَّ بالعودة. لمح وميض ابتسامة وهو يتظاهر بتأمُّل جدران الجامع. استجمع الكلمات من أغوار بعيدة: مهجة ... أقول لك كلمة.

أدرك أنه يجب أن يقول شيئًا، أي شيء. مجرَّد أن يتكلم، وتنصت. يأخذ منها ويعطي. ينكسر حاجز الارتباك والصمت.

كانت قد أولته ردفها، ومضت في اتجاه الموازيني.

لحقها في ناصية شارع حداية.

صدَّته بنظرة عابسة، وأسرعت في خطواتها.

لاحظت أنه يقترب باتساع خطواته. همَّت بالتوقُّف ومواجهته، لكن أضواء ميدان المساجد، القريبة، دفعتها إلى الإسراع في مشيتها، حتى خرجت إلى الميدان.

همس في هدوء القيلولة أمام مدرسة البوصيري الأولية: أريد أن أكلمك.

وهي تُبدي الضيق: عيب يا هشام.

انبثق في صدره أمل: العيب لو أني أعاكسك.

فاجأه عباس الخوالقة — عصر اليوم التالي — بوقفته الغاضبة على باب القهوة، انتزعه — بصوته الزاعق — من انشغاله في قراءة كتاب: ماذا تريد من مهجة؟

فطن إلى أنها روت له ... غمغم: أنا؟

رماه الخوالقة بنظرة ساخطة: تلاحقها أكثر من ظِلها.

واتَتْه جرأة: كانت ستصبح زوجتي لولا الفرية الكاذبة.

ظلَّ الخوالقة على صوته الزاعق وهو يتجه إلى الطريق: هذا كلام لا معنى له. لا تُفسد العلاقة بيني وبين والدك!

لاحظ تردُّدها — عصر كل يوم — على مساكن خفر السواحل. ظلَّ على مراقبتها، فعرف أنها لم تكُن تذهب — كما ادَّعت — للمذاكرة.

طال ترقُّبه لها بجانب دكان الحاج محمد صبرة، كأنه ينتظر مريضًا بالداخل. نظرته ثابتة نحو حنفية الماء. يبدِّل رجلًا برجل. يعاني الحرج في سؤال معارفه: مَن تنتظر؟ يهمهم بكلمات مدغمة، ويحوِّل عينَيه، يلمحها، فتتبعها نظراته وهي تميل من شارع أبي السعادات إلى الكورنيش، تمضي ناحية سينما الأنفوشي، ومنها إلى الساحة الترابية المُفضية لمساكن السواحل.

فاجأها بوقفته على الأرض الردم بجوار سينما الأنفوشي، قاست — بعينَيها — المسافة بينها وبينه.

اعترض طريقها.

أول مرة — من زمن — يقترب منها إلى هذا الحد، توقفت، اختارت بين مواصلة سيرها، أو العودة، تحرك نحوها ببطء، فتراجعت متوجِّسة. هل يؤذيها؟ اقترب منها. دفعَت يده، وتراجعت إلى الوراء.

تقافزت الكلمات على شفتَيه، وإنْ لم ينطقها: أين تذهبين يا مهجة؟ أنا أعرف كل شيء عنك، وأعرف الشاب الذي تصادقينه، والبيت الذي تذهبين إليه فيه. أنا أعرف كل شيء ... كل شيء.

صرخَت بتلقائية صرخات عالية متوالية، جرى نحوها العشرات من داخل السينما، ومن قهوة بركات القريبة.

واصل تراجُعه أمام الاندفاع الغاضب، عانى تعثرات اصطدامه بالصخور والحصى الصغيرة. واصلوا تقدُّمهم، وواصل تراجُعه بالقفز دون أن يلتفت وراءه. لامسَ حدَّ الأرض أعلى البحر. تشبَّثَت قدماه، واهتزَّ جسمه، ارتفع ذراعاه يتقي ما لا قِبَل له على مقاومته، ثم انفلتت منه صرخة مذبوحة، أسكَتَها صوت ارتطام جسمه بالصخور الناتئة، المتصاعدة من المياه.

الاتهام

تناهى صوت مصطفى حجازي من شارع فرنسا: الساعة لم تبلغ العاشرة.

قال حسنين الدمنهوري وهو يُعيد فتح الباب، ثم يغلقه: مَن تطيعه نفسه على السهر؟!

القهوة على حالها: النصبة والطاولات والكراسي والبطاطين والجدران المتآكِلة والضوء الخافت. لكن الأنفاس الحزينة ملأت المكان، فغطَّتْه تمامًا. اختفت الضحكات، وقلَّت التعليقات والتعقيبات. حتى الأخبار لم يعودوا يُتابعونها، بعد أن صمت الراديو خلف قعدة المعلم كشك.

مَن أخطأ؟ ومَن يدفع الثمن؟

قال هشام: طالبتني بأن أحلق ذقني، أنا لن أحلقها إلَّا إذا تزوَّجتُ مهجة.

علا الغضب بصوته: نذر يا بن الكلب؟!

ولاحظ المعلم أن عينَيه أطالتا النظر إلى الجريدة بين يدَيه، لا يقلب صفحاتها: اللي واخد عقلك.

انتزع ابتسامة: مصلحة المواني كلها تحقيقات من باب الجمرك إلى بعد البوغاز.

قال عباس الخوالقة: هل أصدِّق أنك المسئول عن البحر؟

قال هشام: طبعًا لا. لكن الإدارة القانونية مهمة.

أنصتَ المعلم كشك — بعينَي الذهول — لِمَا رواه حسنين الدمنهوري. الْتَقط هشام همسات تبادلها مع مصطفى حجازي.

جلال هاشم.

الْتَقط الاسم. تناثرت المعلومات في سمعه، وأمام عينَيه، وهو يُتابعها من السيالة إلى مساكن السواحل. لمحَ جلال هاشم وهو يطلُّ من النافذة المواربة، وراء السور الممتد بواجهة

المساكن. حدَّق في الجسد الواقف في تمازُج الضوء والظلمة. بدا في نحو الثلاثين. طويل القامة. يرتدي بيجاما مكويَّة، وإن لم يتثبَّت من لونها.

ثابر هشام على السؤال. حتى رأى الرجل — ذات صباح — يدخل مدرسة قاسم أمين. تأكَّد مما رُوي له من أن جلال هاشم مدرِّس في قاسم أمين. والده صول في السواحل. نقلَتْه المصلحة إلى السويس، فلحقته الأم وأختٌ صغرى، لم تتزوَّج، وظلَّ جلال — بمفرده — في الشقة.

لماذا تتردَّد على البيت؟ وما صورة علاقتهما؟ هل تحبه؟ وهل يحبها؟ وهل يصارح عباس الخوالقة، أو يحذرها؟

لمحته مهجة في وقفته أمام المدرسة.

كان ينتظر خروج جلال هاشم، فلم يبدِّل موضعه. حين قلَّب ما تخيله من ردود الأفعال، فطن لسخف ما اعتزمه، وانصرف.

هتف المعلم كشك: لماذا لم ترِ لي ذلك من قبل؟

ضرب الدمنهوري كفًّا بكف: هل كنا نتصوَّر ما حدث؟!

وبهمس مشفق: كان يحبها.

زفر الخوالقة في غضب: هل يحب امرأة فضَّلَت سواه عليه؟

وتهدَّج صوته: لو أني كنت أعرف، لنصحته بأن يبتعد عن طريقها.

قيل إن الشيخ طه مسعود أصيب — عندما بلغه ما جرى — بأزمة قلبية. أدرك أنه أخطأ إذ لم يتبيَّن النبأ، قبل أن يصرَّ على فصم خِطبة الشاب للفتاة.

قال المعلم كشك: لو أننا زوَّجناهما.

قال عباس الخوالقة: نزوِّج أخوين في الرضاعة؟!

صرخت أم محمود: غير صحيح. مجرَّد افتراءات قالها الشيخ جابر زفت.

اعتبر المعلم كشك نفسه مسئولًا عن موت هشام. لو أنه وافق على عودته إلى مهجة؟ لو أنه لم يُنصت إلى الشائعات والوقائع الكاذبة؟ لو أنه ألحَّ على الخوالقة بأن يكمل الولد والبنت ما بدآه؟ لم يُعنَ حتى بأن يتأمل الولد وما آلَت إليه أحواله. سكت عن توبيخات الأم واتهامها وصراخها في وجهه. هو المسئول عن كل ما جرى.

تذكر عباس الخوالقة موت مصطفى. غالبَ — لأول مرة — دمعًا في عينَيه. يغيب هشام مثلما غاب مصطفى من قبلُ.

الموت؟

هو حق. لكن الفراق مما يصعب تحمُّله. مَن كان بيننا، تكتفي ذاكرتنا باستعادة أيامه؟!

بكت أم محمود في العزاء كما لم تبكِ امرأة. استدعت الغالي، فلا أحد يعرف مَن تقصد بتعديدها: هشام أم مصطفى؟ لم تعُد تعرف — منذ وفاة مصطفى — إلَّا الصمت، والحزن، والعزلة، ولزوم البيت.

وشَت لهجة عباس الخوالقة بإشفاق: هل ترتدين السواد طول العمر؟

أشاحت بيدها: أنا ست كبيرة.

وأجهشت في البكاء: هل نسيت مصطفى؟!

كانت تحدجه بنظرة متأمِّلة: هل يشعر الرجل بفقد ابنه؟ هل أثَّرَت فيه طبيعته الباردة، فنسب وفاة مصطفى إلى الماضي؟

لم يتزوَّج عليها، ولا يذكر أنه هدَّدها بالطلاق، أو أقدَمَ على أذيتها. حتى لحظات انفعالها كان يقابلها بابتسامة هادئة. هي العمر والعِشرة وأم الأبناء. أزمع أن يترك للزمن إقناعها بأن مصطفى ذهب، ولن يعود.

قال جابر برغوت في جلسته المستندة إلى مقام سيدي علي تمراز: حلَّت اللعنة على الولد لأنه أراد الزواج من أخته في الرضاعة!

هل يظلُّ الناس على انهماكهم في الإباحة المُطلَقة، ورفع الحجاب، واستباحة المحظورات، وإنكار الشرائع؟ إلى متى يُقبِلون على عاجل الدنيا، ويُهمِلون نفيس الآخِرة، ويجنون على أنفسهم بالإضلال والإغواء؟

ركن الخلق إلى الغفلة، وانجروا إلى ما قادهم إليه الهوى، وأصرُّوا على العصيان، والزهد فيما هو مأذون لهم بالشرع. اغتروا بطول المهلة. غُشي على أبصارهم، وظلُّوا في ضَباب الجهل، واسترسلوا على الهوى، وأهملوا اعتناق أوامر الله، والانتهاء عن زواجره، فحُرموا من شهود الحقيقة، وحُرموا من استشراف يوم، لا يسمع لهم عذر، ولا تنفع لهم حيلة، ولا تُقبل فيهم شفاعة، ولا يُؤخَذ منهم فداء ولا عدل.

الستر والتجلِّي

فاجأه بضربة على كتفه. ثم توالت الضربات عنيفة، قاسية. لا يعطيه وقتًا لردها.

وقع على الأرض، فبرك خوفه. كالَ له بقبضة يده في رأسه. تمازجت الآهة بانبثاق الدم من مقدمة الرأس.

الْتَقى به في بداية الطريق إلى مساكن السواحل: إلى أين؟

قال محمد الراكشي: الجامع.

قال مرعي بيبي: لماذا؟

رمقه بنظرة دهشة: لأصلِّي!

فاجأه بضحكة سخرية: هل تنوي الدروشة كأبيك؟!

ارتعشت أهدابه. قبض على جلباب مرعي بيبي من الصدر. صرخ وهو يهزه: الدرويش أشرف من البلطجي!

قال له الحاج قنديل: أريدك أن تعمل معي في الحلقة.

قال محمد الراكشي: بيع السمك مهنة لا أعرفها.

وهو يربت كتفه: لن تفعل شيئًا. أنت بركة من رائحة أبيك.

ضايقته الكلمات. استفزَّته. وافق على العمل مساعدًا لعم محمد كسبة في رفو ثقوب الغزل. يظل يومه في الساحة المقابلة لمساكن السواحل. رفض الحياة بلا عمل. في باله ما قاله حنفي قابيل: مَن معه نقود، فهو أبو أحمد، فتوة. مَن يفرض إتاوات، فهو بلطجي!

شاطه مرعي بيبي بركلة في بطنه. صرخ من الألم، وتقوَّس جسمه، وتعثَّر في وقفته. لحقه بيبي بركلة، فسقط، توالت الركلات، فتحمَّلَها، احتضن الساق المندفعة. تراجَعَ الرجل بأعلى جسمه، وحاول أن يجتذب الساق المُقيَّدة، لكن محمد الراكشي وضع فيها كل قوته،

فلم يُفلِتها. علا الرجل بالساق الأخرى، فسقط على ظهره. ارتمى محمد فوقه. كال له الضربات في رأسه ووجهه، وخمش ظهره.

[قال له حنفي قابيل: إذا لم يعتدِ عليك أحد، فلا داعي لإظهار قوتك. وقال: لا تعتدِ على أحد إلَّا إذا اعتدى عليك. مَن يحترف أذية الناس، بلطجي وليس أبو أحمد. ليس فتوة. وقال: لا تظهر قوتك إلَّا لَمن يستهين بها. لَمن يستهين بك. انزع ثوب التواضُع والبساطة والملاينة، وواجهه. قِف على نقطة الصفر، واستعِد لخوض المعركة. إذا خضتها، فإلى النهاية.]

تملَّص مرعي بيبي من تحته. داسه في صدره — وهو يتهيَّأ للوقوف — بضربة من كعب الحذاء. تحاملَ محمد الراكشي على نفسه. طوَّح قبضته في وجه مرعي، فتطاير الدم من الأنف.

مسح مرعي أنفه بظهر يده، ونزع البنش عن كتفَيه. طوَّح به، واقترب بقبضة مكوَّرة، وعينَين تومضان بالشرر.

[قال حنفي قابيل: إذا أُصبت، فلا تُظهِر تأثُّرك، حتى لو ساح الدم على جسمك، واصل الضرب. اكتم ألَمَك، وتماسَك، وخُض معركتك إلى نهايتها. لا تُظهر التخاذل، ولا الخوف.]

لحق مرعي بيبي بلكمة ثانية. تعثر في نفسه، وسقط. حاول النهوض، فعاجله محمد الراكشي بركلة في بطنه، تطوَّح من قوتها على ظهره.

فزَّ مرعي بيبي. اندفع ناحية الشارع بكل سرعته. مدَّ محمد ساقه في طريقه. تعثَّر. انقضَّ عليه محمد، وجذب ذراعه خلف ظهره. ضغط، وضغط، وضغط. أطلق مرعي بيبي صرخةً، ونتر جسمه. اختلطت الصفعات والركلات وقبضات الأيدي والشتائم والصرخات والصيحات. امتلكه محمد من الخلف. أدخل ذراعَيه بين ساعِدَي مرعي بيبي، وضغط. مال بأعلى صدره، فتأوَّه مرعي لألم رقبته. واصل محمد الضغط، وتأوُّهات مرعي تعلو. ثم أخلى ساعِدَيه، فسقط الرجل من طوله.

قام مرعي بيبي بجانب كتفه. ثم استلَّ من جراب في ساقه مطواة ملتمعة، قذفها واستعادها. تراجَعَ وتقدَّم. تحرَّك إلى اليمين وإلى اليسار. قرَّب المطواة بين عينَي محمد، وقال: نهايتك!

تمنى لو أنه كان يحمل مطواة.

[قال له حنفي قابيل: إذا أفلحت في استخدام المطواة، أخرِجها من جيبك في الوقت المناسب. وافتحها بلا ارتباك. صوِّبها في موضع يُصيب ولا يقتل. تصبح — بعون الله — أبو أحمد، لا يقدر على هزيمتك أحد.]

طال طرف المطواة وجنته، فأدماها. أحسَّ بسخونة تنبثق من أنفه. تحسَّسها بأصابعه. أخافته رؤية الدم.

[قال له حنفي قابيل: احرص على رأسك وعنقك وصدرك وبطنك. إذا نال الساعد طعنة خنجر، فما أيسر أن يلتئم الجرح بالخياطة. أما إذا نالت بقية الجسم، فإنك لن تضمن حياتك.]

عاد إلى الوراء. أطار المطواة بساعده. اصطدمت بالأرض الحجرية، وانتترت إلى بعيد. لحق مرعي بيبي بقدمه، وهو يحاول الجري. تخلخلت ركبتاه، وسقط من طوله. ارتمى على تكوُّره، وهوى عليه بلكمات سريعة.

[قال له حنفي قابيل: لا تمل المحاولة. فالمسمار لن يخترق الحائط من أول ضربة!]

لمح أصابع الرجل تتحسَّسان الأرض، بحثًا عن السكين. أطبق بيدَين كلَّابتَين على جانبَي فمه. فشخه بما وسعه. غاب صراخ الرجل بالألم، وإنْ توالى ضربه للأرض بقدمَيه في توالٍ.

[قال له حنفي قابيل: حاول أن تُصيبه بجرح. احرص، فلا يكون الجرح نافذًا. مجرَّد أن يتحسَّس الدم في وجهه وذراعه. يقتله الخوف، ويجري.]

رفع مرعي بيبي قطعة خشب مُلقاة على الأرض الجيرية. هوى بها عليه. تفاداها محمد بإمالة رأسه، ثم دفع رأسه في بطن الرجل.

انتهيا إلى الكومة الحجرية المُطلَّة على أول الأنفوشي. تعثَّرا في عدم استوائها. تماسكا ليحمي كلٌّ منهما نفسه من السقوط. فزَّ مرعي بيبي ووقف. لحق محمد بساقه، فأمسكها. تشنَّجَت عليها أصابعه. دفعه مرعي بيبي في جنبه، حتى يُخلي ساقه، وسار خطوات متعثِّرة. ظلَّ محمد مُمسِكًا بساقه، وظلَّ مرعي يواصل الضرب بالقدم الأخرى.

[قال له حنفي قابيل: إذا قُطعت يدك اليمني في معركة، فإن عليك أن تقاتل باليد اليسرى. وإذا شق خنجر بطنك، فإن عليك أن تعيد أمعاءك إلى جوفك، وتواصل العراك حتى النهاية. هذه هي أخلاق الفتونة!]

قوَّس محمد جسمه. أمسك بموضع القدرة في مرعي بيبي. ضغط بآخِر قوته. أهمل صراخ مرعي واختلاجاته المُرعِبة، حتى غلب البياض عينَيه، وسقط من طوله.

تهيَّأ محمد الراكشي فوق رأسه لمواصلة العراك.

تحامل مرعي بيبي على نفسه، وابتعد يتقافز على يدَيه وقدمَيه.

[قال له حنفي قابيل: إذا لاذ خصمك بالفرار، فاتركه. لا تجرِ وراءه. ولا تدفعه إلى العودة للعراك. فقد انتصرت. والكل عرف بفراره، وانتصارك.]

التحليق بلا أجنحة

أمواج البحر تتشابك زرقتها في نهاية الأفق بزرقة السماء. لا شيء حوله إلَّا الماء. وفي مرمى البصر، البيوت العالية تطلُّ على الكورنيش، تنتهي — من ناحية — إلى السلسلة، ومن ناحية إلى قلعة قايتباي.

حين دخل المعلم أبو الحسن هنو قهوة البحر، كان مختار زعبُلَّة قد استقرَّ وراء البنك، وياقوت ينثر على الأرض نشارة الخشب.

عرفه مختار.

غالب البياض سواد الرأس، وتخلَّلت الوجه خطوط وتجاعيد، وضاقت العينان. لكن ملامح الوجه لم تتبدَّل. حتى القامة النحيلة لم يطرأ عليها امتلاء، وإن استبدل بالجلباب قميصًا، وبنطلونًا، ووضع على رأسه — مستغنيًا عن الطربوش — قبعة من الخوص.

قال: تعرفني؟

قال مختار زعبُلَّة بصوت مُهلِّل: طبعًا. معلم الجميع الحاج أبو الحسن.

هجر بحري. ترك تصريف أعماله لموظفِّيه وصبيانه. لا يزور المنطقة إلَّا لأمر مهم: مشكلة يعجز الموظفون عن حلِّها، أو مجاملة عقد قران، أو عزاء.

وهو يهز رأسه: هذا ييسِّر مهمتي.

ثم اعتدل في مواجهته: عرفت أنك ستوقِّع في الصباح عقدًا بشراء بلانس.

هزَّ رأسه: صحيح.

قال أبو الحسن: مبارك!

واعتمد على الطاولة بكوعَيه، واتجه إليه بنظرة متسائلة: هل تنوي أن تصبح معلمًا؟ شيخًا للصيادين؟

انتزع مختار ابتسامة هادئة: أبدًا. أشتريه لأركبه بنفسي.

ظلَّ ركوب البحر أمله الذي لم يفارق خياله. يمضي إلى آفاق الأمواج من كل الجوانب، وأضواء الفنارات، والبوغازات، والمدن البعيدة. اختلطت الذكريات — لطول غيابه عن البحر — وتشوَّشَت، وذوَت. لم يعلق في ذاكرته إلَّا صور كالومضات، لا يعرف أين: زقاق خلفي يلتف بالظلمة، شارع عريض، الأضواء على جانبَيه ملوَّنة ومُبهِرة. قارب صغير ينقله إلى مرساة خشبية، فندق صغير يشغى ببحارة يتكلَّمون بلغات لا يفهمها. حلقات دخان تتصاعد في دوائر، تصطدم بسقف حجرة، تتسع، فتمتلئ الحجرة بما يُشبه الضباب الشفيف. ضوء فنار يمسح السماء. بلدوزر هائل، تتدلَّى منه حبال معدنية ملفوفة، تنتهي بكلَّابة. ميدان يمشي الحمام في ساحته، ويطير، أبواب مُغلَقة، تتناهي من ورائها أصوات واضحة، وغامضة. جثة متفسِّخة، تطفو في قلب البحر. الرعد يبرق خارج الكوة المستديرة، وقطرات المطر تصطفق بالزجاج.

عرف أن تحقيق حلمه بيده. لن يركب البحر إلَّا بالبلانس الذي يملكه. وضع القرش على القرش، يشتري — ويبيع — ما يحمله بحَّارة البواخر الأجنبية من المعلَّبات والسكر والدقيق والزبد والحلوى، ويشتري من البحَّارة صورًا عارية، يبيعها بأضعاف ما يدفعه، ويفوِّت بيع الصنف على القهوة لقاء عمولة، ويغلق القهوة — في بعض الليالي — على لاعبي القمار.

قال المعلم أبو الحسن: عرفت أن ظهرك يؤلمك.

قال مختار: سأُباشر لقمة عيشي. لا أقود البلانس، ولا أصطاد.

وواجه الرجل بعينَين متأثِّرتَين: إن لفظ البحر سمكة. ماذا يجري لها؟

وهو يهز رأسه: تموت.

قال مختار: هذا أنا. إذا ابتعدتُ عن البحر أموت!

رسم الرجل على شفتَيه ابتسامة ود: ما دمت تريد ركوب البحر. فأنا أرحِّب بك ضيفًا على أي بلانس لي.

– لا أريد الفسحة.

ثم وهو يحدجه بنظرة جانبية: بصراحة. أحب رزق البحر.

وبنبرة ملونة: كله حلال.

قال أبو الحسن: مشيخة الصيادين لا تهمني.

واستعاد نبرة الود: أنا أعتبر نفسي مجرَّد صياد. مثلكم تمامًا.

وهو يعبِّر بيدَيه: مضى زمن الشراع. نحن الآن في زمن البلانسات ذات الموتور.

شحب الود في صوت أبو الحسن: لكننا ورثنا من آبائنا نظامًا لا نستطيع أن نبدله. لا بد من معلمين وصيادين وسماكين.

وتلكَّأَت الكلمات على شفتَيه: هذه هي أصول المهنة من أجيال.

لم يتصوَّر أنه يستغني عن البلانس. ركَّب فيه موتورًا، وترك الأشرعة في أماكنها. وكانت قد ظهرت في مياه الأنفوشي سفن كبيرة بشراعين، وبلانسات ضخمة برفاص.

غالب مختار ارتباكه: على العين والرأس. لكنني أريد أن أكون حُر نفسي.

قال الرجل في صوت أملَس: وما يمنعك؟

ونزع القبعة، وهرش رأسه بطرف إصبعه: هل وجدتَ مَن اقتنع بالعمل معك؟

قال مختار بلهجة مؤدَّبة، حاسمة: ربنا يوفق!

فكر في منصور مكاوي لموتور البلانس، يُعطيه مرتبًا أول كل شهر، فلا تتبادله البلانسات. عرض على محمد الراكشي أن يعمل معه، الْتِماسًا لبركة أبيه. اعتذر محمد بغضب أمين عزب لو أنه ترك العمل في الدائرة الجمركية. الْتَقى به في اليوم الثالث لمعركته مع مرعي بيبي.

– ماذا حدث بينك وبين مرعي بيبي؟

قال محمد الراكشي: حاول أن يعتدي عليَّ. فدافعتُ عن نفسي.

نطقَتْ عينا الرجل بالألم: كان أبوك رجلًا طيبًا. ماذا تريد أن تكون؟

اتجهت نظرته إلى الأرض: أبي لم يخلف لنا أي شيء. وعليَّ أن أنفق على إخوتي.

رفع حاجبَيه في دهشة: ليس بالفتونة يا محمد.

همس بالتهيُّب: أذكر أنك طردت الرجل الغريب من قهوة الزردوني، عندما حاول فرض البلطجة.

أهمل الملاحظة: ما شهادتك؟

– خرجت من الأولى الثانوية.

وهو يمضي ناحية المسافرخانة: ربما استطعت تدبير عمل لك في الميناء.

توسَّط له في وظيفة كتابية بمخازن الدائرة الجمركية. ابتعد عن البلانسات والصيد، وإنْ ظلَّ يتردَّد على الحلقة، ويتنقل بين قهاوي مخيمخ والزواوي والبحر. ينصت إلى أحاديث الرجال عن ولاية أبيه، فلا يناقشها.

قفز السلالم ليقضي على تردُّده.

لم يُخفِ ثروت دهشته: مختار.

ملأت البسمة وجهه: خاصمتني بلا سبب. قلت أصالحك.

وهو يسبقه إلى الداخل: لا خصام. لكنني مشغول في تجارة تأخذ كل وقتي.

استأذن، ودخل المطبخ.

طافت نظرته بالصالة الواسعة، الساكنة، تحيط بها حجرتان تطلَّان على زقاق العماوي، وطرقة تُفضي إلى المطبخ والحمام. الكنبة الإستامبولي الملاصقة للحائط في موضعها. تتقاسم عيناه قراءة رسائل المدن البعيدة، ورؤية قميص النوم الذي تهدَّلَت حمالته، فظهر الجِيد العاري، وتَعرِّي الفخذ في تربيعة الساقين. اطمئنانها إلى نوم سحر في الحجرة المغلقة.

وهو يرفع كوب الشاي إلى فمه: أريد أن تعود إلى البحر.

هتف ثروت: مَن؟ أنا؟!

قال مختار: اشتريت بلانس تمنع ظروفي أن أكون رئيسًا له.

أدار نحوه ملامح مندهشة: أنا لا أفهم في البلانسات. طول عمري في المراكب الكبيرة.

رمقه بنظرة معاتبة: نسيت أني ركبت البحر معك؟!

لم يعُد بوسعه ركوب البحر في السفن الضخمة، ولا التطلُّع إلى البلاد البعيدة، لكن البلانس ينزل به البحر. يظلُّ في حضنه أيامًا كأنها العمر. البواخر الضخمة لنقل الناس والبضائع والسفر إلى مدن لا يعرف أسماءها. وفي البواخر أوامر وشخط ونطر وصداقات يحبُّها، أو لا يريدها. البلانس للصيد والسفر إلى السواحل القريبة. لكن ركوبه البحر هو الهدف. الحياة داخل الأمواج والآفاق المحيطة، المترامية. هو المسيطر على الدفة والقلوع والشراع والتموين والصيادين. كلمته لا تُرد، ولا يشغله الفصل لإصابته.

تُدار الماكينة، وتُبسط الأشرعة، فتمتلئ بالهواء. يُمسك الدَّفَّة بيده. ينطلق البلانس إلى داخل البحر. لن يرسو على الموانى البعيدة، لكنه سينقله إلى حياة البحر، إلى المياه المحيطة من كل الجوانب، والأفق الذي بلا نهاية، والشمس والرياح والنوات والتوقع.

– البلانس للصيد. ولا أعرف الفرق بين البوري والمياس.

وأردف بنظرة قاطعة: عندما أتخذ قرارًا لا أرجع عنه. قراري منذ أعوام هو البُعد عن البحر.

هل اتخذ قراره بقتل يُسرية، فلم يرجع عنه؟!

كان يطيل تأمُّل البواخر العملاقة الراسية على رصيف باب نمرة ستة. يهمس لنفسه بالسؤال: هل يركب — ذات يوم — واحدة من هذه البواخر الضخمة، تمضي به إلى بلاد الله خلق الله، يرى ما لم يره من المدن والبشر؟

قرَّر أن يكِل أمر البلانس إلى قاسم الغرياني. لم يكُن يُخفي إعجابه بقدرته على طي الشراع، ونشره، يتحكَّم فيه حين تهب ريح مفاجئة. يجيد طيه في عز النوة. يتسلَّق الجراندي، أكبر صواري البلانس، في خفَّة، يستخدم يدَيه، والريح تلطمه. يقيِّده في القلع، ويلف الحبل حوله. يعرف كل أنواع الصيد: شباك الجر، الجرافة الساحلية، حبل السنار، غزل السردين، والمياس، والبوص، والبوري، شباك الطرح. يجيد التصرُّف في التيارات المائية العنيفة والرياح المفاجئة والدوامات. قاسم صياد، وصديقه، وهو يثق به. لمَّح بالعرض.

قال الغرياني: ألا تخاف الوحش؟

جاشت مشاعره: أنت قتلته؟

وهزَّ قبضته في تأكيد: الجميع يعرفون هذا.

هز الغرياني رأسه: ما عدا المعلمين. يرفضون التعامل معي.

قال مختار في جَيَشان مشاعره: لكن الجد السخاوي أيَّد كلامك.

ولكزه في جنبه: سأسمي البلانس قاسم. وتكون أنت رئيسه.

واجه الوحش بمفرده، وقتله. هو وحده الذي أقدَمَ على الفعل. لم يرَ أحد ما حدث، فتهامسوا بعدم التصديق.

قال عباس الخوالقة: لعله استعان بالجنِّية التي يزعم أنه يُواخيها.

قال حمودة هلول: لكنه أُصيب في وجهه وصدره. وتحطَّم لنش حمادة بك.

وهو يشيح بمبسم النرجيلة: لأنه لا يُحسن قيادة اللنش، فقد اخترع مسألة قتله للوحش!

قال الغرياني: هل البلانس لمعلم في الحلقة.

قال مختار: لا معلم ولا دياولو. لن يسألك صاحب البلانس إلَّا عن الإيراد.

ولانت ملامح وجهه: ربما طلع البحر معكم في بعض الرحلات.

ثم قال في ابتسامة كبيرة: بصراحة، أريد أن أشتري بلانس.

وفي نبرة واثقة: عرفت أني أستطيع سداد ثمنه في ظرف عامَين.

ضرب قاسم الأرض بقدمه: ولماذا الغلب؟ ورش المراكب تصنع لك البلانس الذي تريده بسعر أقل.

ذهب إلى «القزق». طلب من الأسطى أبو المكارم النجار أن يصنع له بلانس جديدًا بموتور. يعلو صاريه صواري سفن الأنفوشي كلها.

راقب العمود الرئيس والأضلاع، ثم التكسية بالألواح. الخشب مصقول، والأبواب لامعة، والمقابض النحاسية تضوي ببريق، والغزل لم يلامس الماء، وعين الحسود مرسومة على جانبي البلانس، والكلمات ضد الحاسدين مكتوبة بخط الثلث.

هلَّل الأسطى أبو المكارم ذات صباح:

– بسم الله مجراها ومرساها.

قرَّر أن ينفِّذ نصيحة الجد السخاوي. لا يأذن للنساء بالسير فوق البلانس قبل أن ينزل البحر. ربما كانت المرأة عاقرًا، فهي — إن قفزت فوق قاعدة البلانس الجديد — لا بد أن تنجب طفلًا، ولأن الله عادل، فهو لا بد أن يأخذ روحًا، بدلًا من الروح الجديدة. يحل الموت قبل أن يهبط البلانس الماء، أو وهو يقطع رحلته الأولى. حفظ من الجد السخاوي عبارة «البر جل جلاله». ظلَّ يكرِّرها — كل فترة — سبع مرات، فيتحقَّق له الأمان، في البر والبحر.

يزدان البلانس بالرايات، وقطع القماش الملونة. تدقُّ الطبول، وتتعالى الزغاريد، وصيحات الأولاد. تجري يد شبيرو الجزار بسكين على عنق عجل. ينبثق الدم. يغمس فيه يده، ويخمِّس على جوانب البلانس وهو يواصل انزلاقه داخل البحر. يقف على المقدمة. يواجه البحر في نزول البلانس إليه للمرة الأولى، أو يتحامل على نفسه، ويدير الدفة بنفسه، يوجهها صوب الدنيا التي يحلم بالعودة إليها.

تلفَّتَ حوله، يتأمل السحب البيضاء، المتناثرة، والأسماك الصغيرة تتقافز على السطح الهادئ، وتناثر — في المدى — بلانسات وصواري وأشرعة، ومد الموج يلامس المكعبات الأسمنتية، أسفل الكورنيش الحجري.

ضم قبضته، وهزَّهما. خبط الأرض بقدمَيه. علا صوته بكلمات لم يفهمها هو نفسه. غنَّى:

والله إن نصفني زماني لاشتري جارب
واملاه صبايا واعمل مجدِّمه عايج
واحرَّش الموج من بحري يجي هايج
وإيش يعمل الموج لي مجدِّمه عايج؟!

تعالى الانفجار. اخترق سكون الشاطئ الخالي. تناثرت قطع الأخشاب المشتعلة على المياه، وعلى الشاطئ. سقطت كرة لهب على شادر البطيخ، الملاصق للمحكمة الوطنية، فاشتعلت فيه النيران. تدافعت الأمواج — في تلاحُق — نحو الشاطئ، ساحبة معها بقايا البلانس المحطَّم.

ملامح ضائعة

الصياد يبتعد عن المنطقة التي تخلو من السمك، والأرض المالحة يهجرها الفلاح. اعتادت سماع كلمات لم تكُن تعرفها، ولا سمعتها من قبل. فهي امرأة متعوِّقة، وهي عندها السقط. الجنين لا يستقر في أحشائها، وينزل قبل موعده، وهي مصارينها ناشفة، وهي امرأة جلد، وهي مدكرة، وهي كالبيت الوقف، كالأرض البور، كالنخلة الذكر، كالشجرة التي بلا ثمار، كالشيخ المقطوع نذره!

أعادت السؤال، حتى ملَّه أطباء مستشفى الملكة نازلي. حتى الحكيمات والممرضات وجَّهَت إليهن سؤالها القلق: لماذا يسقط الحمل في كل مرة؟ لماذا لا يستمر؟

اعتادت دلائل الحمل: انقطاع الدورة الشهرية، تضخُّم الأنف والشفتَين والصدر، الميل إلى أكل ما لم تتصوَّر أنها تأكله. تعرفت حتى إلى تخلُّق الجنين، منذ يبذر فيها سيد نطفته. الأشكال التي يتحوَّل إليها، فيسقط قبل أن يكتمل.

أَلِفَت المستشفى ذا الطابقين، المطل — من واجهته — على الميناء الشرقية، وينفتح بابه — من الجانب الأيسر — على الحديقة المستديرة، ويطل — من خلفه — على سيدي البوصيري. يُفضي الباب الحديدي الواسع إلى حجرة الاستقبال ومكاتب الموظفين. الطرقة الطويلة تنتهي بالسلم. تتسلَّم البطاقة الزرقاء الصغيرة. تصعد إلى العنابر. صفت الأسرَّة على جانبيها، واختلطت التأوهات والنداءات وصراخ الأطفال ومعاطف الممرضات ورائحة الأدوية والبرمنجنات والصابون والقيء والجدران المتسخة بالنشع والصديد وبقع الدم. تضايقها نظرات الحكيمات والممرضات. تظهر التعرف والألفة. تقول — حين تقع عليها داخل المستشفى: هذا أنت.

قال الطبيب: حالتكِ نادرة. توجد أجسام مضادة في الدم تقلِّل مناعة الجسم.

أضاف لنظرتها المتسائلة: لكل جسم مناعة. قوة. ومناعتك ضعيفة.

ضربت على صدرها: أنا آكُل جيدًا.

– هذه مسألة لا شأن لها بالطعام.

ومدَّ يده إلى مكتبه. خطَّ على الدفتر الصغير أمامه كلمات. فصل الورقة عن الدفتر، ودفعها إليها: هذه الأدوية، ستحقِّق لك المناعة.

لَمَّا أخبرها الطبيب أنها خالية من موانع الإنجاب، هتفت: أنا أحمل. لكن الجنين يسقط.

مطَّ شفتَيه: ربما العيب في زوجك.

قالت بلهفة: دعك من زوجي. ماذا أفعل لأحتفظ بالحمل؟!

قال الطبيب: هل أصيب زوجك بالزهري، أو بأي مرض جنسي؟

أطرقت إلى الأرض: لم يكلمني في ذلك.

– اسأليه. لعل هذا هو السبب.

هزَّت رأسها بالموافقة، وإن غاب عن بالها التصوُّر أنها تسأل سيد ما إذا كان قد أصيب بمرض جنسي. لن يفوِّت السؤال. ربما لَمَّز إلى أن المرض أشد احتمالًا فيها.

فاجأها الطبيب: لو أنك كنتِ تزوَّجتِ من غير زوجك، وتزوَّج زوجُكِ امرأةً أخرى. ربما أنجب كلٌّ منكما.

– سيد؟!

النساء بالزوفة. يستطيع أن يقترن بمَن يشاء. الماضي الملتصق بلحمها، يقذف بزواجها من سواه خارج دائرة التوقُّع.

هل تظهر — في حياته — مَن تعِدُه بما لم تحقِّقه؟ توغر صدره عليها. تلزم البيت، ويتركه إلى الكشك، وإلى جلسات القهاوي، وعلى شاطئ البحر، والشوارع، وما يغيب عنها تصوِّره. يصعب عليها تصوُّر يومه، منذ تركه للبيت حتى العودة.

استأذنت سيد.

حضرت حفل زار في بيت بقبو الملاح، صحبتها إليه الكودية نظلة. تطوَّحَت في مكانها، ورددت ما استطاعت تقليده من الأصوات الصارخة. لم تقف، ولا أقدمت على حركات عنيفة حتى لا تتأثر بطنها.

همست نظلة بخوفها من أن تكون أنسية مسكونة بالجن، فهي لن تأذن لها بأن تلد من بني آدم. حتى الزار قد يذهب بالجن، لكن التأثيرات التي أحدثها ستظل داخل جسمها. إذا كان الجن مسلمًا، فإنه يفي بوعده، وإذا كان يهوديًّا، فإنه يفر من الوعد.

حدَّثَها سيد عن زوجة محيي قبطان. شالت بعد أيام من دخلتها. رمقها بجانب عينه، يبحث في عينَيها عن المعنى الغائب.

لم تعُد حياتهما كما كانت. في عينَيه نظرة غريبة، لم ترَها فيهما من قبل. شيء غير واضح، يلتمع في عينَيه، يصعب عليها تحديده. وثمَّة حزن غامض وفتور يرين على كلِّ تصرفاته، لا يتكلم إلَّا إذا طلب شيئًا، ويردُّ على أسئلتها بكلمات مقتضبة. وربما ظلَّ على صمته، لا يتكلَّم إلَّا إذا ناوشته، ولا يدخل البيت إلَّا لينام. حتى الأكل يعتذر — في الأغلب — عن تناوله. لم يعُد يأذن لها بأن تدخل الحمام معه، ولا تدلك ظهره. يدخل الحمام عقب عودته إلى البيت، يغلقه عليه. تستمع — في جلستها بالصالة — إلى صَب الماء على جسمه.

كان يُشقيها الشرود الذي يسلِّم نفسه إليه عندما يجلس في البيت، شرود حزين يتأمل ما لا تراه، ويحيا في دنيا غير الدنيا. لم يُعايرها بعدم الخلفة، وإنْ غاب الود القديم والمؤانسة والمناغاة. يتذمَّر لأقل سبب، وبلا سبب. يلاحظ، ويعيب، ويشكو، ويشخط. يبحث عن منفذ للخناق، قال في صوت كالزعيق: لا تضعي الخبز مقلوبًا على الطبلية، حتى لا يحلِّق الشيطان فوق البيت!

ومنعها من رتق الخيط في سرواله. نزعه من جسمه، ودفع به إليها: رتق السروال وأنا أرتديه يجلب الفقر.

وارتفع صوته بضيق: لا تكنسي البيت في الليل. قد تهدمين بيتًا لإخواننا دون قصد!

ونبَّه عليها ألَّا يعلو صوتها، حتى لا تزعج الأرواح الساكنة في البيت. قد يبدر منها ما يؤذي.

وصرخ: يا ولية. كفاية دق الهون حتى لا تؤذي رءوس الملائكة!

وقال لرؤيتها تقتل عنكبوتًا بالشبشب أعلى الجدار: أنتِ بهذا تجلبين النحس!

وهزَّ إصبعه: لا تصفِّري، هذا يجلب الشؤم!

– لكنك دائم الصفير.

بحلقَتْ عيناه: أنا رجل، صفير المرأة شؤم!

– هل في الصفير رجل وامرأة؟!

أشاح بيده: هذا ما أعرفه.

وهي تتهيأ للبكاء: كل ما أفعله كان يستهويك.

تحس بالتخاذل. تفاجئها الرغبة في البكاء، لا تقوى على كتمها. يغلبها النشيج، ويهتز جسمها. تلين مشاعره، يلاطفها، يجري بأصابعه على شَعرها وخدها ورقبتها وظهرها. يجتذبها في حضنه. هو يثق أنها هجرت حياتها القديمة تمامًا، لكن الطرقات الخافتة علت بغياب حلم الإنجاب. يثق من بذرته. التوقد، والفعل، والرجفة التي تلفهما تمامًا، فهل العيب في الأرض المستهلكة؟ مَن لم ينشئ علاقة معها من رجال الحي؟ غازلها، أو شتمها؟ كيف يتناولون سيرته في الحمام، والحلقة، وقهوة كشك، وقهاوي الحي؟

لم يعُد سيد القديم. الإنجاب شاغله الوحيد: أنا بلا أهل. أريد طفلًا يطيل عمري بعد موتي.

وهي تخمِّس في الهواء: أطال الله عمرك.

وشى صوته بتأثُّر: أطاله أو قصره. مَن ينجب لا يموت!

وزفر في ضِيق: أنا مقطوع من شجرة. ومن حقي أن يصبح الفرع شجرة لها أغصان وأوراق.

أظهرت التألُّم: تعبت من كثرة الإجهاض والعمليات.

رماها بنظرة مشتعلة: كله دون فائدة.

خرجت الكلمات من فمها مبحوحة، متعثرة: تعاطيت الأدوية. ونفذت كلام الأطباء. فماذا أفعل؟

نطقت نبرات صوته بالسخرية: بطون النساء تمتلئ بهبة هواء. وأنت ...

وسكت.

هزمتها الرغبة في البكاء: أنت تظلمني.

ملأت الدهشة ملامحه: أظلمك لأني أطالب بحقي في الأبوة؟

تغيرت ملامحها: حتى المومس تطمع في الأمومة!

وتهدَّج صوتها: أنت تريد طفلًا. وأنا أيضًا. ولست وحدي المسئولة عن هذه المشكلة.

أشاح بوجهه بعيدًا: الأرض المالحة لا تنبت.

عقدت يدَيها فوق صدرها: والماء المالح لا يروي.

غمغم: ماذا تقصدين؟

شوَّحَت بيدها: فسِّره كما تريد.

فاجأته صفقة الباب، أذهلته.

هل هذه أنسية؟!

داخل الطمأنينة قلق في قول زمزم: ربما الرجل دمه غير نقي. فالسبب لا يعود إليها، ولكن: كيف تخبر سيد بهاجس المرأة؟ وكيف ينقِّي الإنسان دمه؟

نسي — في تطلُّعه إلى الولد — أنها تحنُّ إلى الإنجاب. يتألَّق الحلم بالصور الجميلة. أشهُر الحمل أجمل سِني حياتها. تسرح في الآتي. تتصوَّر ملامحه. تنظر إلى صدرها. تتخيل امتصاص الطفل — أو الطفلة، لا يهم! — حلمة الثدي.

نادت على الطفل.

نظر إلى الأطفال حوله. في حوالي السادسة. له وجه دقيق الملامح. ينسدل حوله شعره الأصفر اللامع، يتناقض مع العينَين السوداوين. يرتدي بنطلونًا أزرق قصيرًا، وفانلة حمراء عليها صورة قلب، بلا أكمام، وبلا رقبة. في قدمَيه حذاء كاوتش، وجورب أبيض يمتد إلى نهاية الساقين.

– تعالَ.

نظر إلى البرتقالة في يدها. تناول البرتقالة. رفع نظرته إلى عينَيها، ثم قذف البرتقالة، وجرى.

هل حذَّره أهله ففعل ما فعل؟

قال سيد: لا تحمِّلي الأمور أكثر مما تحتمل. إذا كانت جارة الشقة العلوية تعرف، فإن بقية الجيران في حالهم، أو مشغولون بأنفسهم!

رفعت عينَين مخضلتين بالدمع: سيد!

أومأ برأسه يستحثها على الكلام: لو طال الانتظار. هل تتغير؟

رمقها بنظرة متسائلة.

وهي تمسح الدمع بظاهر كفها: ألن تتغير نفسك؟

ضغط شفته السفلى في تأثُّر. لزم صمتًا، واكتفى بالنظر إلى قدمَيه.

تساءلت في حيرة: لماذا تخلى عنها سيدنا السلطان؟ كيف يرفض أن تنجب، فتظل زوجًا لسيد، ويظل سيد زوجًا لها. يستطيع المرسي أن يتشفَّع لها، ويستطيع ياقوت العرش، مثلما وهبها الشقة، أن يتوسط فيثبت الحمل في بطنها.

أغثني يا سيدي ياقوت العرش. خاطرك معي!

لو أن الله أطعمها، لن تنال الأمومة وحدها. ستتمكَّن من سيد، فلا يصبح تطليقها سهلًا. ولا تظل العلاقة هواء. تكلمه، تختلق كلامًا، فيشيح بوجهه. تداعبه فينهرها. حتى إذا لامست أصابعها يده، أجفل. اغتصبت ابتسامة، ومالت تقبِّله، فدفعها بيده.

تهز رأسها للسؤال: هل تسكت عن تصرفاته، وتسترضيه، لأنها تريد الحياة معه، أو لأنها تخاف الحياة بعيدًا عنه؟

لاحظت أنها تكلِّم نفسها. لا أحد سوى الجدران والنوافذ المغلقة والصمت. يعلو صوتها. تسأل وتجيب، تأخذ وتعطي، تنفعل وتحرك رأسها وعنقها ويديها، تشيح وتطوح وتفشل في السيطرة على انفعالها، وتعاني القلق والخوف.

هل هذا هو الجنون؟!

الطيران بجناح الهمة

الدنيا ليل.

شفت الظلمة بلمبات الاستصباح المتناثرة، والكلوبات المعلَّقة على أبواب الدكاكين، وفي عربات اليد، والأضواء المنبعثة من الشرفات والنوافذ التي فتحت مصاريعها للنسائم المحمَّلة برائحة الملح والأعشاب. هدير البحر يترامى، ونجاتي يمد عنقه، يعلو بآخِر صوته، في تنغيم، ينادي على المطلوب.

قال إبراهيم سيف النصر: نحن الآن في الجانب الصيفي بالقهوة.

كان يرتدي قميصًا أزرق من البوبلين المخطَّط، وبنطلونًا أبيض، وحذاءً يتقاسمه الأسود والأبيض.

رفع أدهم أبو حمد عينَيه في تثاقُل: وأين الجانب الشتوي؟

مال سيف النصر على الكرسي، وشبَّك أصابع يدَيه على صدره: الرصيف.

كانوا يتابعون انطلاق الصواريخ في الميناء الشرقية، تتصاعد من السلسلة، فتضوي السماء بالألوان المتطايرة والأشكال والتكوينات والألعاب النارية والأصوات المتفجِّرة. في وسط البحر، تزيَّنَت البلانسات بلمبات ملوَّنة، وأعلام.

قال إبراهيم سيف النصر: كان ينقص هذه الاحتفالات وجود الأسطى مواهب.

قال فهمي الأشقر: لعلك لم تستمع إليها وهي تغني «زهر الربيع ترى ... أم سادة نجب؟»

وضم أصابعه على شفتيه: صوتها في هذه الأغنية أجمل من صوت أم كلثوم!

قال أدهم أبو حمد: رائحة البارود وصلت إلى هنا.

قال الشيخ قرشي: ثمانية أيام مضت ولا تزال حفلات عيد الجلوس.

غمز إبراهيم سيف النصر بعينه: ألم تحتفل بطريقتك؟

لاحظ سيف النصر أن الشيخ قرشي نسي القول في أذان الفجر: «الصلاة خير من النوم». رفع الأذان كأنه للصلوات الأربع الأخرى. تحرج في مصارحته بنسيانه.

قال أحمد أبو دومة: لا حياء في أمور الدين، إذا لم تصارحه فسأكلمه أنا.

قال أدهم: السهو من طبيعة البشر.

قال أبو دومة في دهشة: هل في الأذان سهو؟!

قال فهمي الأشقر: لاحظ رفعه لأذان فجر الغد. إنْ كرَّر ما فعل لا بد أن تكلمه.

أردف بلهجة مشفقة: مصيبة لو أن الشيخ عبد الحفيظ أخذ باله.

كان الشيخ يرفض التلحين والتغنِّي في الأذان، ربما — للمحافظة — على توقيع الإيقاعات والنغمات، لا تتوضح الحروف والحركات والسكنات. وكان يكره الفصل بين كلمتين بسكتة. عاب على الشيخ قرشي أنه يمد صوته أكثر مما ينبغي. يغفر الله للمؤذن مد الصوت، لكن الإطالة تضع الأذان خارج العبادة.

كان يرى في المنبر عرش الله، لا يرتقيه إلَّا مَن اطمأن إلى طهارة نفسه.

عاب الشيخ على المهدي اللبان أنه يسرق من صلاته، فهو لا يُسبغ الوضوء، ويخطف الركوع والسجود، ولا تبدو عليه خشية.

قال: الصلاة هي أول ما يحاسب عليه العبد.

ولاحظ أن المصلين انشغلوا بأحاديث جانبية. تشابك الهمس، فبدا لغطًا.

علا صوته في غضب: نحن في جامع لا في قهوة!

وخالف رده ما توقعه إبراهيم سيف النصر: كيف يكون سؤال القبر لَمن غرق في البحر وأكله السمك؟

قال في لهجة باترة: الميت يسأل بعد موته. سواء دُفن أو لم يَدفن. حتى لو أكله السمك، لا بد أن تسأله الملائكة.

علا صوت أدهم أبو حمد: هل قرأتم أسماء الوزراء الجدد. أتعجب؛ كيف مارس هؤلاء الناس الوطنية ذات يوم؟!

ثم وهو يدفع بالجريدة إلى إبراهيم سيف النصر: كيف ارتضوا لأنفسهم أن يصبحوا وزراء في حكومات مشبوهة؟!

وعلَت الحمرة وجهه: هذا سيرك لاعبوه من المستوزرين!

قال زكي بشارة: حتى نجيب الهلالي الذي جعل شعار وزارته التطهير، يتكلَّم عن آمال مصر بين يدي الملك عزه الذي يرام وكنفه الذي لا يضام.

ثم وهو يحكُّ ذقنه في حيرة: أي ناس هؤلاء؟!

تنبه سيف النصر لوجود زكي بشارة: حمد الله على السلامة.

مدَّ زكي بشارة يده بالمصافحة: الله يسلمك.

قال الشيخ قرشي: لك وحشة.

قال زكي بشارة: كنت خارج الإسكندرية.

تحدَّث عن شراء بيت في كنجي مريوط. بلدة للصيد، هواؤها جاف، فهي مشتى ومصيف معًا، ومنتجع، وشهرة طواحين الهواء بها واسعة.

مدَّت المرأة يدها بورقة يانصيب إلى أدهم أبو حمد: جرب مرة.

أزاح يدها في ضِيق: أنا لا أحب البخت.

ضحك فهمي الأشقر: يسمونه حظًّا وليس بختًا يا أدهم أفندي.

وربت — بودٍّ — كتفه: سأشتري الورقة على حظك!

قال أدهم: أنت إذَن أضعت ثمن الورقة.

قال إبراهيم سيف النصر: ثمنها لا شيء أمام ما يُنفقه على اليانصيب.

همس إبراهيم سيف النصر في أذن حمدي رخا بما لاحظه. فهمي الأشقر له ولع ببائعة اليانصيب، الوقفة المتأودة، والعينين المكحولتين، والشفتين الممتلئتين، والأنف الأفطس، وخصلة الشعر المخضَّب بالحنَّاء على جبهتها، وغنة الصوت الواضحة.

استطرد وهو يكتم ضحكة: لعلها تُرضيه بما لا يجده في بيته!

واتجه إلى شرود حمدي رخا: اللي واخد عقلك.

كان خياله يجسد الصور التي تأتي في التعبيرات. يضع لها ملامح وقسمات. يبتسم لتجسيد الصورة، أو يحزن، أو يُعاني القرف. كانت فايزة تتكلَّم، وتتكلَّم، وتتكلَّم. يكتفي بالإنصات. يتظاهر بالإنصات. تجتذبه عوالم يتصوَّرها. يتخيَّل ما بها. وكان يرافق خياله في مشاوير لا تختار مقصدها. غاب المعنى، فألقى التأمُّل في الشرود. لا يقصد وجهة بالذات، وإنما يترك قدمَيه تمضيان إلى ما يجذب انتباهه، فيطيل الوقفة. تشرد نظراته. تستقر على مكان غير مرئي في المدى البعيد. ربما تبين أن جيشان الذهن أملى عليه خطوات المسافة — للمرة الثانية، أو الثالثة — بين السلسلة وانحناءة الطريق إلى الأنفوشي. يقف على رصيف نمرة واحد، يرقب البواخر الضخمة وناقلات البترول والحاويات والسفن الحربية. الجلسة المسترخية — تحت شمسية الشاطئ في أبي قير — وامتدادات المياه بلا أُفق. يمضي. على الكورنيش، إلى الشاطبي. يعدُّ النوافذ على الجهة المقابلة للكورنيش، بطريقة لا تعني العد بالفعل، يبطئ الخطوات في لسان السلسلة. يرقب صيادي السنارة وباعة

الترمس والذرة. يتأمَّل طيور البحر في أسرابها المتداخلة. تسترخي نظرته أمام فاترينات وسط البلد. يفاصل بين الأفلام المعروضة في الهمبرا وريتس وفريال وراديو. يلحظ اجتذاب الظلام لشروده. تبدو أحداث الفيلم — في ذاكرته — منفصلة، وغير مترابطة، ومملة. يعاود السير في الشوارع المحيطة. يحاول — في وقفته أمام قهوة البلياردو — فهم قواعد اللعبة، معنى ارتطام الكرات، وتلقف الثقب المستدير لها. يهزُّ كتفَيه، ويواصل السير. ربما مال من صفية زغلول إلى المستشفى الأميري. يستلقي تحت شجرة في حدائق الشلالات. يخلو إلى ما يحيا في داخله. تغيب عنه الهمسات ونداءات باعة اللب والسوداني وتنغيم الغجريات: أدق واطاهر. ربما أفاق على ارتطام كرة بجسمه.

تتكرَّر هذه الجولة مرتين، أو ثلاثًا، كل شهر. تبطئ خطواته بتلقِّي نسائم اعتدال الجو. إذا كان الجو حارًّا، أو في الشتاء، يميل من الشارع الجانبي إلى شارع حسن باشا عاصم، حتى الْتِقائه بإسماعيل صبري. تبدو حلقات الجالسين على الرصيف — في نصف دائرة — حول المهدي اللبان. ربما تدفعهم حرارة الشمس، أو هبات الهواء الشتوية، إلى الجلوس داخل القهوة المغلقة.

يصل إلى قهوة المهدي عقب صلاة المغرب. لا يتكلَّم عن الأماكن التي تردَّد عليها، ولا ما صادفه في طريقه. يدخل محارة صمته. يتابع المناقشات بعينَين يغشاهما الشرود.

السير في نفق الحيرة

وافق على إجراء تحليل في مستشفى الملكة نازلي.

أعطاه الممرض أنبوبًا زجاجيًّا، وأغلق عليه دورة المياه: إذا انتهيت. هات الأنبوب.

نصح الطبيب بأدوية ومنشطات.

عاود رفضه: أنا لا أشكو شيئًا. صحتي بمب.

قال لها الطبيب: نصيحتي أن تتجنَّبي الحمل فترة.

– كيف؟

لم تعُد تُنصت إلى الكلمات بلهفة اعتادتها منذ فاجأها المخاض الأول في الشهر الثالث. بدَت أقرب إلى الاستسلام، وربما البلادة. ثمة أمل يحيا داخلها، ملامحه شاحبة، ولا صوت له، لكنه قائم، يشاركها أنفاسها.

فاجأها الطبيب: الإجهاض المتكرر أثَّر على صحتك. ولا بد من استعادتها.

قال سيد: ولكن ...

قاطعه الطبيب: من الصعب أن تحملي وأنت في هذه الحالة.

واتجه إليه بابتسامة ود: هذه فرصة لاستعادة نشاطك.

همس سيد في عودتهما إلى البلقطرية: يبدو أن حياتك السابقة أثَّرت على الوعاء.

تحرَّكت شفتاها. انفرجتا. ارتعشتا قليلًا، ثم التصقتا، وانفرجتا ثانية. ظلَّت صامتة، وبكت. انهمرت الدموع من عينيها. هو لم يفاجأ بغير المتوقع. يعرف من حياتها كل شيء، فلماذا وافق؟ ولماذا يحاسبها الآن؟ حتى في لحظات ضغط اليأس على عنقه، لم يحاول الإساءة إليها، لم يواجهها، ولا تهكَّمَ عليها، وإن كتمت ضيقها من نظرته اللائمة. يفاجئها بها، كأنه يدينها على ما لا حيلة لها فيه. تحاول الكلام. مجرد أن تعطي معه وتأخذ. تصطدم الكلمات بصمته السادر. مساحات لا نهاية لها من الصمت. يصد حتى محاولاتها

لاستدعاء حكاياتهما القديمة: تردد الخائف على بيت شارع سيدي داوود، والرغيفين الرجوع، ولقاءاتهما في دحديرة أبو العباس، ومفاجأته لها يوم الإضراب، والنزهة في الشلالات، والتمشي على الكورنيش، وليلة زفافهما في قهوة كشك. هل يفكر في تطليقها؟ هل يتزوج عليها؟ وإلى أين ينتهي بها الحال لو أن الظروف ظلَّت على عنادها؟

لاحظت أنه لم يعُد يعنيه أن يطيل نومه معها حتى تتحقق لها الرجفة. يقذف بما لديه، فيقوم من فوقها. يرتدي جلبابه، ويتمدَّد على جنبه إلى الناحية المقابلة.

حانت منها الْتِفاتة إلى مرآة التسريحة بجوارها: ماذا جرى؟

طفت الهموم على ملامحها. غاب الجمال القديم. علا الوجه شحوب، وتورم جفناها، وذبلت العينان، فقدا بريقهما، وأحاطت بهما هالات سوداء. وتسلَّلت التجاعيد إلى بشرتها، وعلَت الجبهة، وأحاطت بجانبي الفم. وغارت الوجنتان، واصطبغتا بالشحوب. حتى الشعر الناعم تقصَّفَت أطرافه، وتشعَّثَت، وتسلَّل الشعر الأبيض قبل الأوان.

– الطبيب أكد أنك ...

وبدلت الكلمات: الدلَّالة نصحت بشراء حجر جهنم.

زوى ما بين عينَيه: ماذا؟

اصطنعت ابتسامة: هذا هو اسمه. يأتي من بلاد برة. قطعة منه تجعلك مثل الرهوان.

قاطعها: وهل أنا في حاجة إلى مَن يؤكد رجولتي؟

في لهجة معتذرة: أنا لا أتحدث عن رجولة ولا أنوثة.

علا صوته: أريد ولدًا يحمل اسمي.

همست في تألُّم: قال الطبيب إن السبب هو ضعف حيواناتك المنوية.

قذف الهواء بقبضته: فليقُل الطبيب ما يشاء.

غمغمت: لا تشتمني إذَن!

ارتعش صوته بالتوتر: أنا أذكر الحقيقة!

هل رجولته ناقصة؟ هل هي مجرد ماء بلا خصوبة؟

زار الشيخ كراوية قارئ مسجد الشوربجي. عرض الأمر عليه منذ بداياته. حتى ما لا يصح قوله رواه. قدم منديل رأسها أثرًا يستعين به. انشغل الشيخ بتأملاته وأوراقه، وتقليب الأثر، ومخاطبة أشخاص مجهولين. ثم ألقى أسئلة. أجاب عليها سيد، وحبس أنفاسه.

قال الشيخ: رحم المرأة مغلق، فلا تستطيع الإنجاب.

هتف سيد في قلق: هل تنصح بعملية؟

تكرمشت جبهة الشيخ: مَن يجريها؟

قال سيد: الطبيب ... أي طبيب.

وشي صوت الشيخ باستياء: للأطباء حدودهم ... هذه إرادة الله.

غادر الجامع، وفي يقينه ما قاله الشيخ: قرينة أنسية تحسدها على إنجابها. القرينة لا تستطيع الإنجاب، فهي تهاجم الطفل حتى يموت. لا بد — كما نصح الشيخ — أن يشتري السبعة عهود السليمانية، العهود التي أخذها سيدنا سليمان على أم الصبيان، بألَّا تمس الطفل الذي يحمل هذه العهود في رقبته.

مال إلى فرن التمرازية.

تكررت زياراته باشتغال صابر الشبلنجي فيه، صداقتهما بدأت في قهوة كشك، واستمرَّت. صابر يزور سيد في الكشك، وسيد يزور صابر في الإسطبل، ثم في الفرن. اغتصب ابتسامة لرؤية صابر ينفض عنه غبار الردة والدقيق، علقت بشعره، ورموش عينيه، وداخل أنفه وأذنيه، وعلى ملابسه.

قال صابر متهلِّلًا: يا روائح السيالة ... أنت ثاني مَن ألتقي به اليوم.

رنا إليه بنظرة متسائلة: مَن الآخَر؟

وهو يعبر بأصابعه: الأسطى فتحي الخياط.

لمحه في زحام شارع الميدان. يزك بساقه المهيضة، وعصاه.

هتف صابر بعفوية: أسطى فتحي.

يتساند على العكاز ليعوض ساقه المهيضة، وإنْ ظلَّ يظلع في مشيته. طفولة وجهه تُخفي حقيقة سنه. أبرز ما فيه جبهة عريضة، وعينان واسعتان حادتان، وأنف أقنى. على شفتَيه بسمة ثابتة، تُخفي ما يدور في داخله من مشاعر. يرتدي جاكتة خفيفة، يطلُّ من جيبها العلوي طرف علبة سجاير، فوق جلباب أبيض من البوبلين، ويحرص على إمالة طربوشه ناحية اليمين.

وبَّخ صابر نفسه في اللحظة التالية. توقَّع أن يذكِّره الرجل بفعلته مع جمالات، لكن كلمات الأسطى فتحي اقتصرت على تبادل التحية. لم يأتِ بسيرة المرأة.

– دكاني الآن في الإبراهيمية.

ثم وهو يحيي بهزة رأس: دعنا نراك!

همَّ بسؤاله: أين ذهبت جمالات؟ هل هي تحيا معه، أو تحيا بمفردها، أو أنها تزوجت مَن لا يعرفه. وهل تركا بحري بغضب حنفي قابيل؟

– أراد أن يتكلم، لكن الكلمات عصته، وكان الأسطى فتحي يمضي — بخطواته القافزة — ناحية شارع الميدان.

مضى سيد في اتجاه الموازيني.

لمح أمين عزب في ناصية الْتِقاء التمرازية برأس التين.

لحقه.

مدَّ أمين عزب يده: كيف حالك يا سيد؟

وهو يغالب ارتباكه: الحمد لله.

وفرك كفًّا بأخرى: أريدك يا مولانا في مسألة مهمة.

اتسعت ابتسامته: زمان ... كنت تستطيع رؤيتي كل وقت.

دخل زاوية خطاب — مترددًا — قبل أذان العصر.

حكى، وإنْ لم يُشر إلى ما قالته أنسية.

قال وهو يحيط إصبعه بخصلة الشعر المتهدِّلة: اللي خلف ما ماتش، واللي ما خلفش ما تولدش.

وتدلَّت يداه المضمومتان أمامه: أنا حتى الآن لم أحيا، لأني لم أنجب.

وتنهَّد: مَن يزور قبري بعد موتي؟!

قال أمين عزب كلامًا كثيرًا، فهم منه أنه يجب أن يلتزم بالصبر، وأن لكل شيء أوانًا.

غادر الزاوية قبل الصلاة.

ارتمى في ظلام المسافرخانة.

تأخَّر في العودة إلى البيت، فنامت أنسية. استيقظت على صوت حركته في الصالة. قامت لتعد له العشاء. كان قد ارتمى على الكنبة مهدود الحيل. شوَّح بزجاجة غامقة اللون في يده. أدركت أنه مخمور. وضعت العشاء على الترابيزة أوسط الصالة، ومضت — صامتة — إلى الداخل.

كان الشيخ عبد الحفيظ — إذا دخل عليه أحد غرفته في الجامع — دارى المصحف الذي يقرأ منه بطرف ردائه، فلا يعلن أنه يتعبَّد. كان يستقبل في حجرته مَن يريد لقاءه، ويرد على الناس — في الطريق — سلامهم وأسئلتهم، وانْ ظلَّت نظراته تمسح الأرض. يخشى أن

تزني عيناه، مثلها مثل الجوارح، إن جاوزت النظرة الخاطفة للتبيُّن. الملامح الجادة تُخفي قلبًا طيبًا، وروحًا صوفية عذبة.

انحنى على يد الشيخ عبد الحفيظ يُحاول تقبيلها، فشد الشيخ يده.

قال الشيخ: ما دام لا يوجد عيب في زوجتك أو فيك، فهذه إرادة الله، وعليك أن ترضى بها.

واتجه إليه بنظرة مُشفِقة: قل اللهم أجِرني فيما حرمتني منه، واخلفني فيه خيرًا كثيرًا.

وشى ارتجاف رموشه بالتأثُّر: تعنى أني لن أنجب؟

قال الشيخ في نظرته المشفقة: هذا كلام في علم الله، ونحن لا نملك إلا الرضوخ لإرادته.

وهز إصبعه: لا تجعل من حاجتك بلاءً، واذكر أن آدم لما تعلَّق قلبه بالجنة، جعلتها القدرة محنة عليه، حتى زالت الجنة!

وخالط صوته حزن: أنت مشغول بالمفقود، ونسيت أن تشكر الله على الموجود؛ زوجة طيبة.

هل هو مجرد كلام، أو أن الرجل لا يعرف ماذا كانت تعمل أنسية؟ وهل مسحت مكاشفة السلطان ما يعرفه الناس عن حياتها القديمة؟

الْتَمعَت عيناه بالقلق: ما أريده طفل مثل بقية الآباء.

قال الشيخ: ما يشاء الله سيكون!

لحقه صوت الشيخ وهو يخطو إلى الباب الخارجي: اذكر «المصور جل جلاله» عشر مرات عندما تأوي إلى فراشك، وقبل الوطء.

ونطق صوته بطيبة واضحة: مَن يفعل ذلك قد يرزقه الله ولدًا صالحًا.

قالت الطبيبة: نصيحتي أن تتجنَّبي الحمل سنتين أو ثلاثًا.

وقرصتها من خدها برفق: لا بد أن تستعيدي صحتك أولًا!

راودها الخاطر، فنفذته.

أهملت التسوق في شارع الميدان، ومالت إلى دكان مانيفاتورة كمال مصباح. سِره باتع مع سيدي ياقوت العرش، فهل يعينها بسِرِّه على مواجهة ظروفها؟ هل يحنِّن قلب سيد، فيصبر عليها، ولا ينفذ ما تلتمع به عيناه؟

الرجل يقف وراء البنك الخشبي في نصف مربع، بجواره عمال يرصُّون الأقمشة، ويعرضونها، ويفاصلون، ويبيعون، ويتقاضى الثمن. الأرفف صفت عليها أنواع الأقمشة إلى السقف.

لمحها من انفراجة طولية بين الواقفين.

هتف بالتذكُّر: أهلًا يا ست!

خوف المفارقة

فوجئ المصلون حين رأوا شيخًا آخَر يصعد المنبر، بدلًا من الشيخ عبد الحفيظ. قيل إنه أُصيب بوعكة مفاجئة، فتخلف عن الحضور. فلما صعد منبر جامع القائد إبراهيم، عرف المصلون أنه نُقل إليه.

تباينت الشائعات حول أسباب نقله.

قيل إنه يقول كلامًا لم يذكره القرآن ولا أحاديث الرسول، إنما هو يقول ما يفد إلى خاطره، ويعلن تفسيرات غريبة. وقيل إن وزارة الأوقاف عابت عليه شهوة الخطبة في صلاة الجمعة، فهو يطيل ويطيل، لا يعنيه إن أدرك الناس الملل، أو تضايقوا. يأخذه الاستطراد، فينتقل من حديث إلى آخَر، وربما أعاد كلامًا ذكره في خطب سابقة. وقيل إن أعوان الملك أشاروا عليه بشراء الشيخ عبد الحفيظ. تلقى الشيخ رسالة تبلغه اعتزام الملك أداء صلاة الجمعة المقبلة في علي تمراز. آخِر زياراته للجامع في ٧ سبتمبر ١٩٤٥. أتى — في الأيام التالية — عمال ومشرفون، أعادوا تأثيث الجامع، واستبدلوا بالحصر سجاجيد من الصوف. طاف بأرجاء الجامع رجال يرتدون الثياب الميري، وثياب الأفندية. أغلقوا معظم الحجرات والأبواب. حتى الباب الخلفي المُطِل على محطة الكهرباء، أغلقوه، واكتفوا بالباب الرئيس. وقف عليه عساكر، لم يغادروه إلى صباح يوم الزيارة. أتى الحرس الملكي، ضباط وجنود، أحاطوا بالجامع، وانتشروا في صحنه، وأمام الحجرات المُغلَقة، وفوق السطح. زيادة في الحيطة، صعد بعضهم إلى أسطح البيوت المجاورة، وسدوا الحواري المُطلَّة على الميدان، فيما عدا الاتجاه إلى شارع فرنسا وأبو العباس ورأس التين. والْتفَّ تلاميذ المدارس حول الساحة المقابلة للجامع، لتحية الملك.

قيل إن الشيخ عبد الحفيظ ابتعد في خطبته — للمرة الأولى — عن السياسة. ذكَّر الحضور بالآخِرة وبالحساب والعقاب، ودعا لأُولي الأمر أن يهديهم الله سبيل الرشاد.

رُوي أن الملك خلع على الشيخ عبد الحفيظ بردة من الجوخ، ومنحه كيسًا به نقود، ووعده بزيارة تالية. لكن التنقلات التي أجرتها وزارة الأوقاف بين الأئمة جعلته إمامًا لجامع القائد إبراهيم بمحطة الرمل.

علا صوت الشيخ عبد الحفيظ بالغضب حين همس الشيخ دسوقي رزق مفتش إدارة الوعظ بالملاحظة: هل تخلع الجبة في الجامع؟

قال: ومَن يُطيق ارتداء الجبة في حَر أغسطس؟

وحوَّل وجهه إلى الناحية الأخرى: إذا حان وقت الصلاة ارتديتها.

لم يكُن يغادر البيت إلَّا إذا اطمأن إلى ما يرتديه: القفطان الشاهي، المزهر، والجبة الجوخ، والحزام الأخضر، والعمامة المنقوشة، والحذاء الأجلسيه ذي الرقبة. وتجري أصابعه على حبات المسبحة العاجية الحبات.

قال المفتش: يا شيخ عبد الحفيظ. مَن تقصد برؤساء الدول الإسلامية الذين يجب أن يراعوا في سلوكهم تقاليد الإسلام ويتمسكوا بقواعده؟

في صوت متلكئ: أقصد مَن ذكرت.

نطقت الدهشة في وجه المفتش: مولانا ملك دولة إسلامية.

قال الشيخ عبد الحفيظ: وهل ترى أن الملك لا يُراعي تقاليد الإسلام؟

وهو يدفع براحته خطرًا غير مرئي: حاشا لله.

كور الشيخ عبد الحفيظ مسبحته، ودسها في جيبه، ثم واجه دسوقي رزق بنظرة مستريبة: ما معنى سؤالك إذَن؟

فاجأه المفتش بما أذهله: هل صحيح أنك لا تُعطي وقتك للإمامة؟

اهتز جسمه بالانفعال: ماذا تقصد؟

وهو يطوي ساقه تحت فخذه: جاءتنا معلومات أن التجارة تبعدك عن الجامع.

توقع اتهامات، لكنه لم يتوقع أن ينقلها الشيخ دسوقي رزق. هو زميل دراسة في المعهد الثانوي، وفي كلية أصول الدين. وأقاما — لفترة — في بيت المسافرخانة.

قيل إن الشيخ يشارك في شادر البطيخ بجوار المحكمة الكلية، وفي عمليات بيع بهائم ودواجن، يتاجر بها أقارب له في المحمودية.

قال دسوقي رزق: ليتك تعرض عليَّ موضوع خطبة الجمعة.

أعاد القول: أعرض الخطبة عليك؟!

في نبرة تهوين: الفكرة العامة.

ورسم على شفتَيه ابتسامة: هذه مسألة وظيفية.

ألغى الإمام الجديد درس ما بعد صلاة المغرب. الجامع للصلاة وحدها. مَن يريد الفقه، فعليه أن يلجأ إلى المكتبة. الوعظ في خطبة الجمعة لا سواها. وقال من فوق المنبر إن احترام الحاكم واجب، حتى لو كان جائرًا. وقال: إن الله هو الذي ولَّى على الناس الحاكم، والخروج عليه عصيان، وتمرُّد على حكمه.

غاب الإمام عن الجامع، إلا في بعض أوقات الصلاة، وإلقاء خطبة الجمعة.

قيل إنه كان إمامًا للبوصيري، قبل أن ينتقل إلى ديوان وزارة الأوقاف. رأى تحويل الترام إلى الناحية المقابلة، وفصله بالحديقة الصغيرة عن الجامع. انزعج الملك فاروق — عند زيارته للجامع — من قرقعة الترام في تراميها إلى غرفة صاحب الضريح. أمر بإبعاد الترام، وأظهر عدم الرضى، فلم يمنح الإمام كسوة. نُقل الإمام — في اليوم التالي — إلى ديوان الوزارة.

تناقص المتردِّدون على سيدي علي تمراز، فلم يمتلئ بهم صحن الجامع، وظلَّ الميدان خاليًا. وقيل إن أمين عزب رجع عما اعتزمه بإهداء مكتبته الخاصة إلى سيدي علي تمراز. حافلة بعلوم التفسير والفقه والحديث والتصوُّف والتاريخ الإسلامي. نقلها في عربة كارو إلى زاوية خطاب. وقاطع أحد المصلين خطبة الإمام الجديد: لم يعُد الجامع في حاجة إلى إمام.

ساد هرج واضطراب. هوش المصلون على الإمام، وصاحوا، وزيَّطوا، وهتف عجوز في الصف الأول: لا يخطب فينا إلا الشيخ عبد الحفيظ!

تكاثرت أعداد المصلين في القائد إبراهيم، حتى أعلنت القنصلية البريطانية القريبة من الجامع قلقها. خُطب الشيخ تقتصر على السياسة، وردود الأفعال تلقائية، ويصعب علاجها.

وقائع ظهور قناديل البحر

١

سكن الموج، والرمل، والنخيل المتناثر على الشاطئ. صيحات النورس تعمق من الصمت السادر. مد الموج متكاسل، حصيرة. يقترب من الشاطئ أشبارًا — في رتابة — ثم ينحسر. الجو حار، وموسم صيد المياس في ذروته.

كان يتمشى على الشاطئ. قدماه تغوصان في الرمال، تنثران الماء حولهما. وعلى امتداد الشاطئ تناثرت أعشاب البحر، والطحالب، والحصى اللامع المسنون. وثمة — في السماء — ندف متفرقة من السحاب الأبيض تتجه إلى الأفق، وأسراب النورس تغادر مكامنها بين حنايا الصخور المتلاصقة على الشاطئ، تطلق أصواتها العالية، تبين لصيادي السنارة والجرافة والطراحة عن وجود الأسماك، تنقنق، تلعلط الأسماك في المناقير. تعلو بها النوارس، ثم تلقيها. تنزل ثانية فتأكلها.

لمح جسمًا يسبح في الماء، منتفخًا، ورخوًا، وشفافًا، كأنه لمبة مضاءة. شاطه بقدمه، فأحسَّ في القدم ألمًا حادًّا. ظهرت — بعد لحظات — فقاعات موضع اللسعة، كأنها انسكاب زيت مغلي. قاوم هرشها، ثم جرت أصابعه، يحكها، فنزف الدم.

٢

قال عادل عبد الوهاب مرزوق لطبيب العيادة الخارجية بمستشفى رأس التين: لامس ساقي فكأنها لسعة كرباج!

أضاف، وهو يحاول كتم ألمه: شاهدته وهو يلسعني. أطرافه طويلة مؤذية.

قال الطبيب بثقة: قنديل البحر.

ثم وهو يقلب في الصيدلية الصغيرة، المثبتة على الجدار: إنه يأتي وينتشر مع ارتفاع درجة الحرارة.

ومسح بالمرهم على موضع اللسعة: القنديل لا يهاجم الإنسان إلا إذا لمسه.

قال عادل في صوت مرتعش: لم أكُن أعرفه.

٣

قال الحاج أحمد الزردوني لعبد الوهاب مرزوق، وهو يهز رأسه: لا دواء لابنك عند الطبيب. خذه إلى البحر، وضع على موضع اللسعة قطرات من الخل.

ظلَّ عادل يحس بالألم أربعة أيام، دون أن يبدو على جسمه شيء. ثم ظهرت بقع زرقاء، مصحوبة باحمرار في خطوط منتشرة، حول القدم والركبة.

٤

صحت حارة الشاروني — ذات صباح — على صراخ في شقة أم الطاهر. وضعت راحتها على فخذها، وأطلقت صرخات متشنِّجة، وهي تنظر إلى قنديل البحر الذي لم يكُن فارق السرير.

علَت — في الساعات، فالأيام، التالية — صرخات الألم من شوارع الأنفوشي وحواريه. يتوقَّع الناس أن تكون لقرصة قنديل. نسوا الأسباب الأخرى، كالصوات عند الوفاة، أو خلف الجنازات، أو الخناقات بين الجيران. القنديل توقعات اليوم من بدايته: أحاديث القهاوي، وخطب الجمعة، والدروس بين صلاتي المغرب والعشاء، وتحذيرات الاقتراب من الشاطئ، وحرص الصيادين على الذهاب إلى المناطق البعيدة.

تناثرت على سطح المياه، في امتداد الأنفوشي، آلاف الأجسام الجميلة، المنتفخة، تبرق كاللمبات، أرجوانية مشوبة بالأزرق. مَن يصطدم بها تفرز على رجله سائلًا حارقًا.

قيل إن خطر القنديل لا ينتهي عند لسع مَن يلمسونه. الأسماك تهرب حين تشعر بالمادة الكاوية التي يُفرزها. إذا استمر قدومه وانتشاره، فإن الأسماك ستغيب عن الشواطئ، ويدوخ الصيادون.

٥

أمر الحاج عباس الخوالقة رجاله. نصبوا حاجزًا من الشباك داخل المياه، على امتداد الشاطئ. ثبَّتوها بأثقال، هلب وعوامات، لكن الشباك لم تفلح في صيد القناديل. كان المطلوب شباك ذات أطراف طويلة، تحيط بالقناديل، فلا تتيح الاقتراب من جسم الصياد أو ملامسته. ربما كانت سامة، فيموت المرء في دقائق.

توقفت الأيدي عن العمل، حين علا صوت الجد السخاوي الغاضب: هل تملكون تكاليف إقامة الحاجز من القلعة إلى سراي رأس التين.

اقترح عبد الوهاب رزق أن يرش الشاطئ بالمبيدات ضد القناديل.

صاح الجد السخاوي: ستقضي عليها. وعلى الأسماك أيضًا!

ثم تسلَّلت القناديل تحت الشباك، ومن بينها، ولسعت ناسًا آخرين.

٦

تعددت محاولات العلاج من لسعات القناديل: الماء، والخل، والرمال. وكتب طبيب المستوصف بشارع الجمرك القديم، دواء تركيب، صرفه أهالي المصابين من صيدلية الإسعاف بالمنشية. لما زادت الإصابات، أعدَّ الحاج محمد صبرة تركيبة خاصة، أكَّد جدواها: خليط من الكحول والخل والبول البشري. ونصح الطبيب الأرمني في عمارة أمين عزب، بغسل أماكن الألم بالخل، فيزول حالًا.

انشغل الناس برفع القناديل من الشواطئ، تختفي وتعود، وتختفي وتعود، وتعود. ولأنها تأتي من خارج المياه، طلب الحاج قنديل تحديد أماكن التجمعات التي تفد منها.

نفى الصيادون أن يكون قدوم القناديل مع الشباك، فيلقون بها على الشاطئ. نحن أبناء الشاطئ، فهل نؤذي أنفسنا؟!

طافت السيارات في الميادين والشوارع، تدعو الناس إلى عدم النزول في البحر، أو الصيد فيه. وضع العساكر طابورًا طويلًا أمام رصيف الكورنيش، يرفضون الإذن حتى لَمن يطلب البحث عن قريب في مساكن السواحل، أو ورش المراكب، بالنفاذ من الحائط الذي أحكموه بأجسامهم.

٧

قال أمين عزب: زادت قناديل البحر لأنكم تصرون على صيد الترسة.

قال عباس الخوالقة: وما شأن الترسة بالقناديل؟

قال أمين عزب: الترسة هي العدو الأول للقناديل، لكننا نصطادها.

قال الخوالقة في عجب: تنصحنا بعدم صيد الترسة؟!

قال أمين عزب: أو تتحملوا أذى قناديل البحر!

قال الخوالقة: هل رأيت زحام النسوة، وبأيديهن الأكواب لشرب دم الترسة؟

قال أمين عزب: تخريف! زوال العقم بإرادة الله، ثم بعلاج الأطباء. وليس بشرب دم الترسة.

قال الخوالقة: من يشرب دم الترسة يصبح في قوة الحصان.

قال الشيخ عوض مفتاح: حُرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير.

همس الخوالقة بالدهشة: تفتي ببطلان شرب دم الترسة؟

قال خميس شعبان: دم الترسة يشفي من أمراض كثيرة.

أسرع كر الشيخ عوض مفتاح بحبات المسبحة: ألست مسلمًا؟

قال خميس شعبان: بالطبع يا مولانا.

قال الشيخ عوض: فعليك أن تؤمن بما أحله الإسلام، وما حرمه.

اتسعت عينا عم سلامة: فهل أصبح كل الذين شربوا دم الترسة من الكفرة.

قال الشيخ عوض: إذا لم تكُن تعلم، فلا تثريب عليك. وهل يعلم أحدكم أن لحم الحوت حرام؟!

ثم وهو يبعد ما بين يدَيه في تأكيد: لا يحل للمسلمين أن يأكلوا أو يبيعوا من السمك ما ليس له قشر!

قال محمد صبرة: على المعلمين أن يمنعوا ذبح الترسة في الحلقة.

قال عباس الخوالقة: وماذا عن خارج الحلقة؟

قال محمد صبرة: أعرف أن الحلقة هي المكان الوحيد لذبح الترسة.

استطرد عم سلامة: والصيف هو موسم التكاثر.

٨

وزع الشيخ عبد الحفيظ على المصلين في علي تمراز مصاحف، يتلون منها عقب صلاة العشاء. زادت أعدادهم، فضاق بهم صحن الجامع، يتلاغطون بالقراءات المرتلة، العالية، والهامسة، والمتباطئة، والمتلعثمة. لا يترك أحدهم المصحف إلا بعد أن يتم جزءًا من القرآن، ثلاثين يومًا متصلة، أتموا فيها الأجزاء كلها.

٩

عجزت كل المحاولات عن رفع القناديل من امتداد الشاطئ.

قال الجد السخاوي: لا تتركوا الشاطئ مهجورًا أو هادئًا. اشغلوه بالحركة. عندما يشعر القنديل بالحياة من حوله، فإنه يفرُّ إلى بعيد.

ارتفعت الطبول والدفوف، وجرت الحركة في امتداد الشاطئ. بدا مميزًا هتاف المتظاهرين في ميدان محمد علي باشا. اختلط بهتافات المتظاهرين في الميادين والشوارع الأخرى. وزاد المشجعون في استاد البلدية من هتافاتهم. حتى مُشيِّعو الجنازات إلى العامود والمنارة، علَت تكبيراتهم. تعالى الأذان في غير موعده من مآذن الجوامع والمساجد والزوايا، ودقَّت أجراس الكنيسة المرقسية، وأطلقت المراكب في الميناء الغربية صفافيرها، وارتفعت تهليلات حلقات الذكر، ودعوات رجال الطريق. وصخبت النداءات في زحام شارع الميدان. علَت الصيحات من النوافذ والشرفات، وفي الدكاكين والقهاوي، ومن فوق الأسطح، وترامى نباح كلاب ومواء قطط، وأجفلت طيور النورس، فأطلقت صيحاتها على امتداد الشاطئ، وتقافزت الأسماك فوق المياه.

١٠

لا أحد يدري من أين، ولا متى انطلقت الشائعة.

قاسم الغرياني هو أول مَن همس بها إلى حمودة هلول في قهوة الزردوني. علا صوت هلول بالخوف. عرف الجالسون ما حدث. ردوه إلى آخَرين، وهم يسرعون الخطا إلى البيوت. قيل: إن مئات الألوف من قناديل البحر طفت فوق المياه على امتداد الساحل بأبو قير، وإن التكاثر يتسع، فلا بد أن تجاوز القناديل البحر والشاطئ.

١١

صعد جابر برغوت إلى مئذنة سيدي علي تمراز. دعا: «اللهم، وقد دعاك هذا النفر من عبادك، الساعون إلى ثوابك، المجتمعون ببابك، فزعًا من عقابك، وطمعًا في ثوابك، وقِبَلهم من الذنوب ما قد أحاط به علمك، وأحصاه حفَظَتُك، فعُد عليهم في موقفهم هذا برحمة تُوجِب لهم جنتك، ونجيرهم بها من عذابك. آمين، يا أرحم الراحمين!»

بحر الأنس

قال أبو الحسن الشاذلي:

«اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم، فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم؟ فمتى فتح لك أيها المريد باب الفهم عنه في المنع، وعلمت ما فيه من الشر والخير، وحسن النظر لك، عاد المنع في حقك هو عين العطاء.»

قال أبو العباس المرسي:

«أهل المحبة والشوق على قسمين: قوم اشتاقت نفوسهم على الغيبة، فلا سكون لهم إلَّا باللقاء، وقوم اشتاقت أرواحهم على الحضور والمعاينة والشهود، فلا سكون لهم إلَّا بالغوص في بحر الأسرار، وتنزُّل المعاني على قلوبهم.»

أزعجت عباس الخوالقة شائعة تناقلتها الأفواه في الحلقة، أن الحكومة ستمنع صيد الترسة. هي عدو القناديل، ولا بد أن تحيا، وتتكاثر، لتواجه خطر القناديل.

قال لمحمود في لهجة تحذير: هذه مسئوليتك.

منذ اختطف الموت مصطفى، ترك لمحمود التعامل مع مصلحة المصايد وخفر السواحل، وصيادي البلانسات، والسماكين، وشروات الحلقة، وإيجار شقق العمارتين في الحجاري والكورنيش. لا يسأله عن تصرُّفاته. يأخذ ما يُعطيه له محمود، يدسه — بتلقائية — في جيب السيالة، أو الجلباب.

قال جابر برغوت بنبرة متوعدة: هذا نذير.

وداخل صوته المتسائل غضب: ألَا بد — لكي تصدقوا — من ظهور الدابة والمسيخ الدجال؟!

راعه نور لامع كالومضة، عبر الأنفوشي من خلف مساكن السواحل إلى سراي رأس التين، واختفى. خطف نظره، فغابت ملامحه، وما إذا كان شهابًا أو معجزة إلهية يقتصر فعلها على أولياء الله الصالحين.

لو أنه أطال النظر، ربما اكتملت الإشراقات والإشارات النورانية.

لاحظ أنه يُطيل — في الفترة الأخيرة — مراقبة حاله مع الله، ويترصَّد خطوات نفسه. أنس إلى الخلوة. استوحش ممَّن ضدها. وقف في محل المناجاة. تعلم أسرار الحضرة: المفاتحة، والمواجهة، والمجالسة، والمحادثة، والمشاهدة، والملاطفة، وصفاء التسبيح. قطع المسافات، وقاسى الشدائد والأحوال، واستقام في مواصلة السرائر، واستبصر بشموس المعارف، وتمكَّن من البساط من حيث القرب، حتى تكشَّفَت له الأنوار، وأدرك المقامات، وملأ نور المعرفة زوايا نفسه. تمنَّى أن يُحيي طرق الأنفاس الصادقة بعد درسها.

مضت أزمان وهو في حال التطهر عن محبة المخلوقين. أزمع أن يترك التقدُّم بين يدي الله، فكل شيء موقوت بأمره وشرعته. وكان يلزم معظم وقته مقام سيدي الأنفوشي في جامع علي تمراز. يتولى بنفسه تبخير المقام، ويوقد الشموع، يؤنس نفسه بالذكر، وتحصيل الأوراد، ويقرأ من حزب الشاذلي. يدرك أن مَن صدق في الولاء، وفي التوجه، وسلامة القصد، لا يحتشم من مقاساة العناء، وتحمل الأذى. وكان يردِّد «السلام جل جلاله» ليسلم من شياطين الإنس والجن، ووسوستهم، وكيدهم.

فاض الوارد الإلهي عليه، غيَّبه عن نفسه، واقتطعه من مشاعره. احتدَّ بصره وبصيرته، وأصاخ السمع إلى الهاتف بداخله. استروح ما لاح له من مكاشفات الأقطاب، وسمع وَقْع أقدام النمل. أحسَّ بتعاظُم في داخله، فهو أكبر من الفراغ المحيط. زادت الأمكنة اتساعًا. امتلأت بالتكوينات المتراقصة والألوان والظلال. أشرقت الآفاق بضياء لم تألفه عيناه، وسرت أشعة الشمس ساطعة، باردة، بأشواق الروح في بدنه. تشكَّلَت حركات واختلاجات وتمايلات وارتعاشات. ارتفعت الأشكال الشفافة إلى الفضاء العلوي. تراقصت الحوريات في الجنة. انبعث من داخل النفس أصوات نورانية لم يستمع إليها من قبلُ، ولا يعرف كيف أتته. تعالت الهمهمات والقراءات والتلاوات والأدعية والابتهالات والتسابيح والأهازيج والزغاريد، وتردَّدَت الأصداء. اختلطت أهازيج السحر بأصوات الملبِّين حول الكعبة. تصاعد الذكر. شحبت — في ارتفاعه — كل الأصوات المتلاغطة، وعلت دقات الدفوف ونغمات الموسيقى وأصوات المنشدين والمغنين، وترنمات الأوراد الصوفية، وتضوعت روائح الورد والمسك والنرجس والكافور والطيب والعنبر.

تاه في عظمة الله. تحيَّر في قدرته. خشع له بدوام الانكسار. شغل قلبه بتسبيحه، عوَّد نَفْسه الاشتغال بذكره، ألزمها حجة الرحمن. شرب في كأس حُبه. غرق في بحر أنسه، وتلذَّذ بمناجاته. لا يتدبَّر، ولا يختار، ولا يريد، ولا يتفكر، ولا ينظر، ولا ينطق، ولا ينبسط، ولا يمشي، ولا يتحرك، إلَّا بالله العلي العظيم. تبدو له بوارق أمل في ضبابية الأشياء، فالمدد لا ينضب، والخصوبة لا تنتهي.

ركن إلى راحة ضميره. تيقَّن أنه قد قام بكل ما أوحى به إليه وأمَرَه أولياءُ الله الصالحين.

ظلَّ على نذره للرحمن بالصمت مع الخلق، وترك المخاطبة معهم. هجر هوى نفسه، وجانب ما يشغله ويحجبه عن الله. لم يحفل بدعوى الناس، ولا لما أصابه من بلاء، وظلَّ الصبر هو الغالب من أحواله، واستغرق الإيمان بالله جميع أوقاته.

قال للغضب في عيني أمين عزب: أنا مجرد ناقل رسالة.

زعق أمين عزب: مَن أرسلها؟ وإلى مَن؟

واجهه بعينَين محدِّقتَين: أمرني بحملها سيدي الأنفوشي إلى كل مَن رأيته ولو مرَّة في حياتي.

انتزع ابتسامة مريرة: هي ولاية إذَن؟!

دون أن يجاوز هدوءه: أنقل الرسالة. ثم أعود إلى الخدمة في جامع سيدي ياقوت العرش.

لم يحاول في نفسه أن يجاوز ما هو عليه: خادم سيدي ياقوت العرش. وضع على كتفَيه عبء التكليف، ومضى. يبحث عن ولي الله الأنفوشي في الجوامع والمساجد والزوايا وأضرحة الأولياء. يتلقى الأوامر وما ينبغي عليه فعله. ينفذ ما طلبه ياقوت العرش. لا يضيف ولا يحذف ولا يتصرَّف بالهمة، حتى يؤدي الأمانة بالتمام، فيعود إلى مألوف أيامه. لم يدَّعِ لنفسه العصمة، ولا الاطلاع على حقائق الأمور وأسرار الشرع، والاستغناء عن النظر والاجتهاد بالظن. تيقَّن أنه ليس من أهل الأسرار والإشارات. لا شأن له بولاية، ولا مطمح، ولا تطلُّع إلى حياة غير الحياة التي اعتادها. إن هو إلَّا محب للتصوف وأربابه، لم يذُق ما ذاقوه، ولا عرف ما عرفوه. يقف على ساحل السلامة، في حين غاص أولياء الله في البحر دون أن يخشوا الغرق. للقطب خمس عشرة كرامة، يصعب عليه أن يرقبها. الظل الوارف غاية السائرين — مثل الراكشي — في طريق الاجتهاد، لا يصرفه انشغال بدنيا ولا بآخِرة. أحوال أولياء الله مع الله، كما حال الناس قبل الخلق وإنزال الشرائع.

تفجر في داخله من الطاقات ما لا يقوى على كتمه. خربت الأرواح، فزايلتها الحقائق. لم يحصل الخلق على الموعظة في الوباء الذي بدَّدته بركات الأولياء، ولا في الحريق الذي أكل بيوتهم وأموالهم، ولا في قناديل البحر التي اقتحم بها الخوف كل البيوت. تلبست عليهم حقائق الأشياء، فظنوا القبيح جميلًا. سلكوا سبل الغي، وتنكبوا سنة الرشد، واشتغلوا بما يُلهي عن الحق.

طويت الصحف، وجفَّت الينابيع، وشحبت الألوان، وذوت، وانطفأت الإشراقات، وانطمست رائحة العطور. اضمحلَّت الديانة، واستولت الغفلة، ومحا الله الإيمان من القلوب، وعمَّت الفتنة، وفشت الضلالة، وقلَّ العلم، وشاعت الجهالة، وفشا الفسوق والعصيان، وقطعت الأرحام، وبيع الحكم، وعطلت الحدود، وعز الحق، وكثر أهل الفساد، فغلبوا، وقلَّ أهل الصلاح، ففقدوا، وأُهينت النفوس المكرمة، وهلك الفقراء من الناس، وتعطَّلَت الحدود في كل جوانبها، وعظم الكرب، واشتدَّ البلاء، وعظمت المحن، وشاع ما هو من أشراط الساعة. بدَّل الخلق نعمة الله كفرًا، ولم يقابلوا إحسانه لهم بالشكر. الناس في بحار القدرة، تتلاطم الأمواج حول سفينتهم، لا ينجو إلَّا مَن يشاء الله بنجاته.

صغرت الدنيا في عينَيه، وأثقله الفزع من العقاب. لم يعُد يؤدي صلاة الجماعة في مساجد الحي، وإن لم يدَّع إسقاط التكليف، ولا الراحة من أعبائه، ولا حاول مجاوزة السكون والرضا بحكم الذات الإلهية. الجماعة وحشة لا أنس، والبدع والمنكرات تتكاثر، فهي بلا حصر.

هل دنا فناء الدنيا، وزوالها، وأذنت بالوداع؟

لجأ — بالدعاء — إلى الأخيار من رجال الغيب. سبعة أو ثلاثمائة، لا يعنيه العدد. ما يعنيه مواضعهم بعد العمد، وقبل النجباء، لكنهم في سياحة دائمة بلا مسكن ولا مستقر، وإن أكدت الروايات أن إقامتهم في مصر. أكثر من الدعاء ليهتدي إلى البدلاء السبعة. يشرق على سره أنوار صحبتهم، ويقع عليه شعاعها. يُلامسه، فينقله من حال إلى حال. قيل إن البدلاء سبعة، وقيل: إنهم أربعون، يعرفون سائر الأولياء، ولا يعرفهم من الأولياء أحد. إذا نقص واحد من الأربعين أُبدِل مكانه من الأولياء. حتى النجباء القائمين بإصلاح أحوال الناس وحمل أثقالهم. لم يلتقِ بالمشاهدة، ولا بالإلهام، بواحد من الأربعين. قيل إنهم يتصرَّفون في حظوظ غيرهم، وإن كانت حظوظهم بلا مزية. تطلع إلى الأوتاد، الرجال الأربعة من رجال الغرب، في مقام التمكين، منازلهم على منازل جهات العالم الأربعة، ثبتت أركانهم، وبهم قوام العالم كالأوتاد للخيمة، مع كل وتد خيمة، فهم أفضل من البدلاء متبدِّلي الأحوال والمقامات، وأخص من البدلاء وأرفع درجة. ثبتت أركانهم.

ثمَّة لائحة برقت له من حيث لا يدري، ثم انطفأت. صبر على الوجيعة، وسلم النفس إلى مولاها، يظهر خصوصيته في أقوال وتصرُّفات. ينزل في ضيافة الحق: الخلوة مجلسه، والأنس شهوده، والجوع طعامه، والمحبة شرابه.

طال توقعه لما صدق المجاهدة في انتظاره، من ولي الله الأنفوشي، أو سواه من أولياء الله الصالحين.

انتقال إلى الأسمى

رفع المخطاف من الماء.

كان الموج الهادئ يتدافع في موجات قصيرة، بطيئة، نحو الشاطئ، تتداخل بالمياه، وتنحسر. يبهت التألُّق، وتخلف مساحات غير مستوية من الرمل المزبد. وكان الموج يرتطم بجانب الفلوكة فيتناثر الرذاذ. يعلو، ويتسع مداه. تتشكل غلالة شفيفة. وترامت أصوات قريبة لنوارس.

الصخرة، الجزيرة، الحلم، ملأت عليه صحوه ومنامه. ما قاله الجد السخاوي عفو الخاطر، وأثاره الرجال في جلسات الزردوني، تعاظم في داخله. ناقشه بينه وبين نفسه. تشكلت صور وتكوينات وألوان وظلال. بدت هدفًا يستحق بلوغه المجازفة.

انتقل الحديث على أفواه الرجال — إلى حمام الأنفوشي — نفاه عم محجوب. علا الصخب بالتعليقات. هدأ الصخب في أذنَيه بعد أن غادر الحمام، وإن ظلَّ داخله. يندى ويتشكَّل ويهب ملامح.

قال الجد السخاوي: الجزيرة تحيط بها طلاسم تحمي كنوزها. يكفي الإنسان ما ينوي فعله لتفعل هذه الطلاسم أفعالها.

قال بيومي جلال: ألا أردِّد قراءات أو أدعية؟

قال الجد السخاوي: لا شيء. إلَّا أن تسقط من بالك كل ما تسعى إليه.

ووشى صوته بطيبة: الناس يذهبون إلى الجزيرة، ويجلسون فوقها، فلا يواجهون الخطر.

ثم وهو يزيح بقايا زعانف علقت بظهر يده: إذا أفلحت في إسقاط التدبير من رأسك، فلن ينالك أذى.

تمنى الزواج — وهو طفل — من جنِّية بحر.

علا صوت أمه: لا تذهب بعيدًا. فقد تخطفك جنية البحر.

سأل: هل تقتلني؟

قالت للفزع في عينَيه: لا. لكنها قد تغوص بك لتحيا في مدينتها تحت البحر.

فكر لحظات: أتمنى أن تخطفني جنية البحر.

دفعت الأم أمامها بأصابعها الخمسة: الشر برَّة وبعيد. أمك تريدك.

الكوة الصغيرة، المغلقة، خلف الصخرة، تضع فيها عرائس البحر من كنوزها. ما يدخرنه للبشر إذا أردن إغوائهم للغوص في البحر. تهمل العرائس حراسة الكوة. ساعة محددة، صعب على الغرياني تحديدها. يرقصن فوق المياه، وفي الْتِماعات أشعة الشمس، يعلو معها نثار الأسماك ويهبط. لكن سطوة المعلمين، وسلف الشتاء، والتسديد في الصيف، وكثرة المناطق الممنوعة. ذلك كله — وغيره — يستحق المجازفة. يجدف بالفلوكة، يطمئن إلى خلو المكان. غياب الأصوات والطرطشات وتحرك الموج. يرصد الكوة قبل أن يقترب منها. يقترب منها في لحظات، ويعود في اللحظات التالية، يحصل من داخل الصخرة — دون أن يتعرض لأذى العرائس أو الجنيات — على كنوز وأموال ونفائس وجواهر. يحيا بها إلى آخِر العمر.

همس للجد السخاوي بما يشغله، فقال في تأكيد: البحر مِلك لعرائسه.

وشردت نظراته: في قاع البحر أسرار يصعب على البشر رؤيتها أو فهمها؛ فهي تتصل بالقدرة العلوية.

قال محيي قبطان: حتى إذا استطعت الحصول على ما تريد، فلن تستطيع بلوغ الشاطئ.

وهمس بالتأثر: البحر يعطي ويأخذ. يُعطي الرزق ويأخذ — إن أخذ — الحياة نفسها.

وعلا صوته في تحذير: حتى إذا عدت إلى بيتك بما يعينك على الحياة، فلن تستطيع الاقتراب من البحر ثانية.

وواجهه: هل تقوى على الابتعاد عن البحر؟!

هذه الأخشاب الصغيرة، المتناثرة، كثيرًا ما تطفو على الشاطئ. بقايا مراكب، أهمل ركابها النصيحة، واقتربوا من الجزيرة بنية الصعود إليها. فاجأتهم الأمواج العالية، فابتلعتهم، وحطمت ما كانوا يركبونه من فلوكات ودناجل. وثمَّة مَن تضطرب الأمواج حوله، وتثور. تصبح جبالًا صغيرة، تتقدح منها النيران. تحرق القارب بمَن فيه، حتى تأتي عليه تمامًا. قد تقترب من القارب أسراب كأنها النورس، ما تلبث أن تثقب القارب

كأسماك المنشار، حتى يتفكَّك ويغرق، أو تظلم السماء لهبوط طائر هائل الحجم، ينقض على القارب بمخالبه، ويرتفع به، ثم يبصقه، فتتلقَّفه المياه الشديدة الحرارة، كأنها إناء كبير يغلي. ربما اجتذبته الصخرة الزلقة إلى هوَّة يسقط فيها، لا يجد ما يأكله أو يشربه، حتى يموت. وربما هب إعصار، يرفع الأمواج، وتثور الرياح والعواصف، وتهب النوات على البحر والشاطئ. تؤدي جنِّيات البحر رقصات، ترافقها أصوات تغنِّي بما لا يقوى على احتمال صخبه. تنهشه — إذا حاول الفرار — من مؤخرته، يهوي به الألم في قاع البحر، أو يعوم وهو ينزف، فلا يصل إلى الشاطئ. في الليل، تخرج مخلوقات سوداء، تصعد إلى المركب، وتصحب — قبل أن يأتي الصباح — كل من فيه، إلى حيث لا يعرف أحد. وربما لحقه الموت قبل أن يصعد إلى باب الجزيرة. الأعشاب الخضراء تتشكَّل في ثعابين وحيَّات تتقافز عليه، وتدخل عينَيه وأنفه وفمه وأذنَيه، لا تتركه حتى يغيب عن نفسه، وعن الحياة كلها. الحيات الهائلة الحجم، تظلُّ في مواضعها، تطيل النظر إلى الإنسان الذي تواجهه حتى يفقد الوعي، ويسقط في مياه البحر، فتصعد إليه أسماك متوحشة، تنهشه، وتلتهمه. الأعشاش الساكنة في الواجهة، تنطلق منها غربان سود، تخترق حدقة العين، وتبتلع ما بها. وتنطلق من الثقوب طيور تضرب الإنسان بأجنحتها. كل ضربة تخلف نارًا في الموضع الذي تلامسه. لا تهدأ حتى تنتشر النار في الجسم، وتأتي عليه. الأسنان الحادة المتناثرة في الصخرة، تمزق لحمه، تقطعه. يفقد توازنه، فيسقط في الأمواج الدائمة الفوران حول الصخرة. يعجز عن الصعود على الطحالب الزلقة.

قال الجد السخاوي: لا خوف على مَن يكتفي بالكوَّة ويظلُّ بعيدًا عن الباب.

همس بيومي جلال: الباب؟

قال الجد السخاوي: للصخرة باب. وراؤها أضعاف ما في الكوة من كنوز.

قال خميس شعبان: اتجه إلى الجزيرة دون أن تضع في بالك أنك تتجه إليها. العرائس يعلمن بما يشغل النفس. يأمرن الأمواج فتثور، ربما اجتذبتك دوامة لا تفلح في التخلُّص منها.

همس بيومي بالتهيب: سمعنا عن غياب مَن تزوجوا عرائس البحر.

وداخل صوته توتر: هل سمعت عن أحد مات عند الصخرة؟

قال حمودة هلول: لأن الجميع يعرفون خطورة الاقتراب منها.

قال خميس شعبان: هناك روايات عن رجال فكُّوا الطلسم، وأفلحوا في النفاذ إلى باب الجزيرة.

وشوَّح بيده: ولكن هؤلاء الرجال ليسوا في زمننا.

همس بالتوتر: لا أحد من العائلات التي نعرفها؟

قال خميس شعبان: هم من بحري. ثلاثة أو أربعة. يذكر الجد السخاوي أنه عاصر واحدًا منهم. المعلم سباعي سويلم مات في شباب الجد السخاوي.

فكر لحظات، ثم قال: سأكون رجل هذا الزمن!

لا شأن له بكل ما تفضي إليه الصخرة من عوالم جميلة: الأسماك المضيئة، الأعشاب الخضراء تتشكل في سندس. البرتقال المسحور بذره من الياقوت، النوارس تحمل في مناقيرها حبات لؤلؤ.

ارتخت قبضتاه على المجدافين. أطال تأمُّل ما حوله.

تناثرت على الشاطئ مزق أوراق وملابس، وفردة شبشب، وقطع خشبية، وعلب سجائر فارغة، وبقايا لعب أطفال. الْتَمع زبد الماء تحت انسكابات أشعة الشمس، والصخور في القاع مغطَّاة بالأعشاب الخضراء، والأسماك الصغيرة تتقافز على السطح الرائق. وثمَّة نسائم هادئة تلامس جريد النخيل في الجانب المقابل من الطريق، فتصدر صوتًا كالوسوسة.

تناهى الأذان من أبو العباس بما لم يستمع إلى عذوبته. تجلت — في السماء — أشكال كأنها السحر. ترامت — فوق الأمواج — أصوات غناء غامضة. غابت الكلمات، وإن بدا اللحن سماويًّا. اصطبغت المياه بألوان قوس قزح. حلقت طيور بيضاء، ابتعدت عن الشاطئ، وعادت إليه. اختفت الظلال بتقاطُع الألوان، وتشابكها. تضوعت رائحة مازجت بين الياسمين والقرنفل والعنبر. انثالت على الذهن رقصات عرائس البحر، وملاطفات حور العين، وسحر جواري الحكايات القديمة.

اعتدل في جلسته. أمسكت قبضتاه بالمجدافَين، وبدأ يحركهما، يدفع بهما الماء، يحاول الوصول إلى الْتِقاء زرقة السماء بزرقة البحر.

حين الْتَفتَ — بعفوية — إلى الوراء، بدا الجانب المقابل للشاطئ صفًّا طويلًا من البيوت المتلاصقة. شحبت، وذوت. تحوَّلَت إلى خط رمادي، متماوج.

الوقوف على باب الولاية

قال أبو الحسن الشاذلي:

«كنت أنا وصاحب لي نعبد الله في مغارة، ونقول: في هذا الشهر يفتح الله علينا. في هذه الجمعة يفتح الله علينا. فوقف على باب المغارة رجل عليه سمات الخير، فقال: السلام عليكم. فرددنا عليه السلام، وقلنا له: كيف أنت؟ فنهض علينا، وقال: كيف يكون حال مَن يقول: في هذا الشهر يفتح الله ... في هذه الجمعة يفتح الله ... لا فتح ولا فلاح ... هلا عبدنا الله كما أمرنا؟ ثم غاب عنا، ففهمنا من أين أخذنا، فرجعنا على أنفسنا باللوم، ففتح الله علينا.»

قال ابن عطاء الله:

«لا يكُن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجبًا ليأسك، فهو يأمن لك الإجابة فيما يختاره لك لا فيما تختاره لنفسك، وفي الوقت الذي يريد، لا في الوقت الذي تريد. لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك، فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعًا، من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه، فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعًا؟ ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك.»

بدا له الجامع في غير الصورة التي تركه عليها. كأنه قد مضت على مغادرته الجامع أعوام طويلة. الباب الخشبي الضخم ذو الضلفتين بدا أصغر مما اعتادته عيناه، والصحن أضيق مما تركه عليه.

منع قلبه من الأمور الدنيوية، وجميع ما سوى الله. قطع علائقه، وفارق ما أَلِفَه من العادات، واكتفي بالله مطلقًا. ظلَّ على وحشته عن الخلق، ورغبته في الفرار منهم. أصمَّ

أذنَيه عن سماع كلماتهم. سد أنفه عن شم رائحتهم. أغمضَ عينَيه عن رؤيتهم. داوم على ملازمة القرب، ومنع قدمَيه من السير في غير الطريق التي حدَّدها له سيدي ياقوت العرش.

ضاقت به السبل. ركبه شعور بالعزلة والوحدة وفقدان الحيلة، وأدركه اليأس والقنوط من أن يرى فرجًا. لم يعُد أمامه إلَّا أن يأمل في ظهور ولي الله الأنفوشي. يبلغه بما كان، وما يجب عليه اتخاذه، تعلو هواتف الحقيقة، ترفع الهمة عن الأكوان، وترقى به مقامات الفناء في الأفعال، والفناء في الصفات، والفناء في النفس. يستشرف الفتح الذي هو جزاء السائرين، ويهيئ له أولياء الله التنعُّم في جنات المعرفة.

لو أنه تعلم اللغة الخفية، وأدرك السر، وتكشف له ما يصعب فهمه؟

الإشارات والأسرار والرموز، لن يفهمها إلَّا بالتلقي عن أولياء الله. أودعت الإرادة الإلهية فيهم أنفس الأسرار، وهم معصومون من الخطأ. قلوب الأولياء مرايا، يرون فيها ما غاب عن سواهم. تشرق الأنوار الإلهية على قلوب الأولياء، تنعكس في أورادهم وأحزابهم وأقوالهم. لهم الولاية الكبرى، والمكاشفة العظمى. يُدركون العلوم والمعارف من الظن واليقين والشك وملامسة الحقيقة.

أجهده البحث عن سيدي الأنفوشي، في داخل قلعة قايتباي، وفي مدرسة البوصيري، وجامع سيدي علي تمراز. استبطأ وجود الإقبال. لم يبلغه سيدي الأنفوشي بما نذر المتبقي من حياته لأجله. لم يلتقط الإشارة ولا الوميض. أهمل وجوب اقتصار تلقِّي الأوامر على القطب ياقوت العرش. كلماته هي الجسر بين ما تطلبه الإرادة السماوية وبين الناس. اتجه بدعواته، وأمله، إلى الأوتاد الصالحين، ثلاثون وتدًا، لا يراهم، ولا يراهم أحد، وإن كان بيدهم أمور المسلمين، لكن الأيام ظلَّت على وتيرتها الواحدة، وإن لم يتخلَّ عنه إصراره في أن يلتقي بسيدي الأنفوشي، يفصح له عن مقام نوره، في مكان لا يعرفه. يثق أن اللقاء حتم. يُنصت لتوجيهات ولي الله، يهبه القدرة على المواصلة، تتكسَّر له قوانين الوجود.

هذا زمان أشهب لا يراه إلَّا البصير. القول الفصل في عزم أولياء الله الصالحين وإرادتهم. أولياء الله هم أئمة العارفين، وخلاصة الصالحين، وقدوة الواصلين، والمقربون من الحضرة الإلهية. فرُّوا بقلوبهم وعزائمهم من دنيا الخلق الزائلة. طلبوا الفناء عن أنفسهم، والفطام عن شهوات الحياة، والزهد في ملذاتها، والابتعاد عن مظاهرها، والصيام عن حرماتها، والإخلاص في مشاهدة الحق، حتى اتسعت لهم ميادين الأسرار، وأشرقت أنوار الحضرة. لم يرَهم إبليس في الدنيا، ولا حاسبهم منكر ونكير، ولا فتح لهم رضوان أبواب الجنة. هم في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

غاب الزمان والمكان والمرئيات والتوقُّعات. لم يعُد إلَّا الحق الموجود الثابت. الأقطاب باب الله الأعظم، واليد التي تأخذ بأيدي الداخلين إلى الحضرة. سفن النجاة، والأنوار الهادية. يفرح بهم أهل السماء، وأهل الأرض، والطير، والأسماك في البحر. حصلوا على مفاتيح العلوم يهتدون بها إلى الطريق السالكة. يفيدون من خزائن العلم، وخفايا الحكمة، فيستنقذون الناس من الضلالات، ويقضون بما يرون أنه الصواب. الظفر مقرون ببنودهم، والنصر معقود بألويتهم.

راعه أن الناس لا يزالوا واقفين مع ظواهر الأشياء. اغتروا بعاجل الدنيا، ولم يعنوا بما تخفيه الآفاق. ولا عرفوا قدر أنوار الملكوت، أو شعروا بها. طوَوْا بساط العبادة، لا يقربوه، واستطابوا الدعة، فخصَّهم الله بخذلانه، وصرف قلوبهم عن ابتغاء رضوانه. أسندوا ظهورهم إلى أموالهم، فخذلتهم، واحترقت.

الدنيا هرج ومرج، والسبل مقطوعة، والمسالك مسدودة، والمهالك كثيرة، والفتن لا نهاية لها، تنتهي لتبدأ، تتواصل وتتشابك وتمتد. اختنقت أهازيج السحر. تعثَّرَت الكلمات على شفتَيه فلم ينطق بها. تصاعدت الأشكال الهلامية إلى فوق، إلى حيث لا يراها أحد، وتغيب. ارتفعت الريح السوداء، كنست أمامها مروج العنبر، وآكام القرنفل، وميادين الصندل، وتضوع المسك الأذفر والكافور، وتغريد الطير، وإشراق الحور العين، والأنوار المتدفِّقة من بحار الجبروت والإمداد الرباني والعظمة والرفعة والجلال والبهاء. خلت الصواري من الأشرعة، طيَّرَها الريح إلى مدى الأفق. بدت مئذنة علي تمراز مائلة، توشك على السقوط. صرخ، وجرى في اتجاه شارع فرنسا.

أسرف في التحذير من الفتنة، والتخويف من المحنة الوشيكة، والأهوال الشديدة، الأليمة، والأمور الصعبة، والكرب، والبوار، والكشف عما هو مستور. عمي الخلق عن شهود الحقيقة. ماتت قلوبهم كما تموت الأبدان. ركنوا إلى اختيار الدعة، وآثروا طلب الدنيا على الزهد فيها، وجاهروا بالمعاصي، وقارفوا الجحد، وأصروا على الغيِّ، وتطوحوا في متاهات التفرقة، وتعودوا الإعراض عن الإيمان، واحتالوا في موجبات التخلف. استولى الباطل على الحق، واستولى الحرام على أموال الناس، وضلوا عن دينهم، فلم يعودوا يأبهون بتواتر الفتن، وتقارب الأمور، وإحياء البدع، وإضاعة حقوق الله، وإماتة سنة الرسول، وإهمال المجردات المقدسة، والملائكة المكرمة، وإهدار الدماء والفروج والأموال. تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. استباحوا الحرام والفواحش والظلم، وحرَّموا على أنفسهم كل ما افترضه الله من الفرائض، وبدا عوار الدنيا واضحًا، فازدادت إدبارًا، وازداد الناس شحًّا، وانطوى بساط الشرع بالكلية.

كلما تصوَّر انقضاء الفتن، عادت كأشد ما تكون. لاحت نذر مخيفة. انطمس نور الحقائق، واشتد حجابها، وذهب المعروف، وفشا المنكر، وقبض العلم، وتقارب الزمان، وظهرت الفتن، وكثر الهرج، وعظم الكرب، وعم الرعب، واشتدت المشقات والأنكاد، وسقط الناس في وهدة ضيق التدبير، ومحنة الغفلة، والغيبة من شهود التقدير. طلعت الشمس من المغرب حالكة السواد، وبدَت الدنيا مثل الفضاء قبل ظهور الشمس، تملؤه الظلمة.

ثمة فارق بين أنوار النجوم الضعيفة، وأنوار القمر التي تخفف ظلمة الليل، وأنوار الشمس الساطعة. أنوار الأولياء دائمة لدوام ظهور نور رسول الله فيهم. أوقاتهم ليس لها طرفان، وبحورهم بلا ضفاف، فهم ورثة العلم الذي للرسول دون الخلق. أولياء الله ماتت أهويتهم، وخلصت أرواحهم، وتجردوا من الريب، وسلموا من العيوب، وتجاوزوا مراتب الحجج والبراهين، واستقامت بواطنهم وظواهرهم لله، ووصلوا إلى مرتبة الكشف الإلهي، واختصت أرواحهم بشهود عظمته تعالى، وبالحقائق والأحوال والمقامات، وتخمَّر في بواطنهم صريح العلم، وانكشفت لهم الآخرة، وتبينوا الحشر والصراط والميزان وتطاير الكتب وأحوال الجنة والنار.

الله وحده يعلم خواص عباده، ويسترهم عن الأجانب. لا يعرفهم إلا أهل الحقيقة. أولياء الله — لهم المقام الأكمل — أفضت مجاهداتهم الشرعية إلى المقامات المحمودة في دار الآخرة. اجتباهم الله، فأكمل لهم النعمة. يملكون رجاحة الذهن، وصحة النظر، وصدق الرؤية، وهو ما لا يثق أنه يملكه، أو يثق أنه لا يملكه. وهبهم الله شراب العشق والمحبة، وعرفهم علوم الباطن، وفَّقهم علوم الظاهر، ويسَّر لهم معارف وأسرار ومنازل وأحوال وأذكار وأوراد وأقوال وكرامات، فتحقق لهم المحو والفناء، حالة لا يعرفها إلَّا أرباب المجاهدات والرياضات والذوق والمشاهدة من صرعى العشق الإلهي، وهيأ لهم الكرامة، وميَّزَهم بالقدرة على استجلاء غوامض المعاني والأحوال، فبلغوا مقام المعرفة، وانتهوا إلى مقام الوصول. يشاهدون في اليقظة الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون كلمات عنهم، ويكتسبون منها الفوائد، تهيأت أسرارهم لحمل أعباء العرفة، ومسئولية التبليغ، وقدرة المتابعة، فهم يصدرون آراءهم عن تدبر. ويجاهدون في الله حق جهاده، ويحيون السنن التي أميتت، وينفخون الروح في الجذوة الخامدة، ويستدفعون الشر، ويستجلبون الخير. الحق أعينهم التي يبصرون بها، آذانهم التي يسمعون بها، ألسنتهم التي ينطقون بها، أيديهم التي يبطشون بها. يتقاصر نور الشمس في المقابل من أنوارهم. يطهرون البلاد من الأدناس، ويسترون — بعدلهم وبركتهم — قلوب المؤمنين. يفتح الله على أيديهم حصون الضلالة، والقلوب المغلقة، ويطهرون وجه الأرض من الطغاة، والبغاة، والساعين في الأرض

بالفساد. تنعدم الغارات، ويحل الأمن والأمان، ويكثر الخير، وتعمر الأرض، وتعظم البلاد، وتشرق الصحبة، والأسرار الصافية.

متى يغيثه الأقطاب العظام، زينة الأرض. زينة الجنة. ورثة الأنبياء، القائمون بالقسط، المعتصمون بكتاب الله، المجتهدون في متابعة الرسول. يمدُّونه بزيادة زيت المدد. يظل مصباح القلب متقدًا إلى غير نهاية، لا تطفئه النوات، ولا العواصف. يهبونه الكلمات التي طال تشوُّقه لها، فتنقطع همته عن المتعلقات، ويفتحون عليه بابًا من المعاني؟

متى يأتون، أو يأتي الدجال، وينزل عيسى، فيقتل الدجال، ويخرج يأجوج ومأجوج، ودابة الأرض، ويذوب قلب المؤمن كما يذوب الملح في الماء، وتطلع الشمس من المغرب، ويقبض الله الأرض، ويطوي السموات كطي السجل للكتب؟

لمح بقعة مضيئة، كأنها نجم، ظهرت في أفق الميناء الشرقية، ثم اختفت. أثارت خلفها ذيلًا من الألوان. هتف: هذا إنذار من السماء!

الشمس في أفق المغيب

دخل قهوة البحر، وأغلق الباب وراءه.

قصد الكرسي المجاور للنصبة. وضع «الغلق» أمامه، وطلب كوبًا من الشاي.

تبادل الرجال نظرات الدهشة، وبدوا غير مصدقين.

كانوا يلتقون به في وداع البلانسات المسافرة، وفي الشاطئ، وفي شوارع بحري، وفي المساجد والزوايا وحلقات الذكر والدكاكين. لكنهم لم يعودوا يرونه في القهاوي، ولا يجلس مع الرجال، بعيدًا عن البلانس.

قال له محيي قبطان يومًا: أريد أن أرى نقودك!

أطلق الجد السخاوي ضحكة مبتورة: نقودي أولى بها كفني، وإلَّا دُفنت عريانًا!

أصبح فمه بلا أسنان. تبدو الكلمات مدغمة، ويأكل على لثته، أو يمضغ الطعام في جانب فمه، أشبه بالكلب عندما يضع بين أضراسه قطعة لحم. وكان يحرص أن يكون الطعام طريًّا.

رويت حكايات عن صداقته لأهل الباطن، فهم — منذ وفاة زوجته — يلبون ما يطلبه، فلا يحتاج من الناس شيئًا.

انسحبت نظرات الدهشة، وعادوا إلى المناقشات والنرد والكوتشينة.

بدا وحيدًا في جلسته، يرشف من كوب الشاي. ترك نفسه للشمس تمامًا. عرَّى صدره ذا الشعيرات البيضاء القليلة. وظلَّ رأسه بلا غطاء في مواجهة شمس الصيف الملتهبة.

أَلِف العزلة في أيامه الأخيرة. لا يشغله إن أخذ الآخرون وأعطوا، أو لم ينصتوا إليه.

قال في نبرة هادئة: أنا ماشي.

هدأت الأصوات، واتجهت الأعين إليه. حتى عبد البصير، عامل النصبة، توقفت الماشة في يده قبل أن يضع الحجر في الجوزة.

قال موضِّحًا: أتأهب لسفر طويل.

وأسبل جفنَيه على عينَيه: سأنام في قبري بعد ستة أيام.

عبر الصمت الذي حلَّ فجأة: ربما استطعت أن أحمل منكم كلمات إلى الغائبين.

بدت لهجته أسيانة بما لم يعهده الرجال. كأنه يرى النهاية في مدى الأفق. ولتساقط أسنانه، كان ينطق السين ثاءً.

انطلقت من حمودة هلول ضحكة، حاول كتمها، فأخفق. قال: قل لأبي إني أحسده على الآخرة!

أنَّبَه قاسم الغرياني بنظرة مشفقة، ومال على الجد السخاوي: هل تشكو مرضًا؟

صدَّق الجد السخاوي طلوعه للوحش داخل البحر، وقتله. أصرَّ أن يظل السكوندو في رحلات البلانس، واختاره — بدلًا منه — في قيادة البلانس، حين خذلته عافيته.

هز الرجل رأسه بثقة: صحتي جيدة والحمد لله.

قال الغرياني: فلماذا تخشى الموت؟

هز رأسه: أنا لا أخشاه. وإنما أتوقعه.

وتهدَّج صوته: أعرف أني سأموت خلال أيام.

قال الغرياني: وكيف عرفت؟

أغمض عينَيه: أعرف!

وضع الغرياني وجهه بين يدَيه: المسألة أنك تريد العودة إلى البحر.

أضاف في مرح مُتكلَّف: أنت الريس وأنا السكوندو في الرحلة القادمة.

لاحظ أن الدوخة كانت تدهم رأسه، وقدمَيه لم تعودا تساعدانه على الوقوف، أو المشي. إذا مشى، يجرُّ خطاه. يعلو صوت احتكاك مداسه بالأرض. يبطئ من خطواته، لا يقعد أو ينهض إلا إذا امتدت إليه يد تُعينه، والرعشة تُضايق حركة يديه. حتى عيناه، غامت الرؤية أمامهما فلا يتأكد إلَّا إذا اقترب. وحين زادت آلام جسمه، قال له الطبيب في مستشفى رأس التين: أكلك الروماتيزم يا رجل. ولاحظ أنه يتردَّد في عبور الطريق من السيالة إلى سور الأنفوشي. يتأكد من غياب السيارات العابرة. كان يعبُر الطريق، دون أن يشغله التلفُّت.

همس محيي قبطان: ربما زاره عزرائيل فطلب مهلة!

جاراه حمودة هلول في الهمس: وربما أخبرته الشمس التي يصاحبها.

تداخلت في صوته بحة غريبة: مَن يريد أن يبلغ موتاه شيئًا مهمًّا، بوسعه أن يقوله لي.

انفسح السبيل للضحكات. انطلقت بلا قيد، حتى قاسم الغرياني داري فمه براحته، وأهمل الجميع ما بأيديهم.

مع تقدُّم أعوام الجد السخاوي، فإنهم لم يتصوروا أنه يُصاب بالخرف. وكانوا يلجئون إليه في مشكلاتهم، وفي مواعيد الطلوع إلى البحر، والهروب من النوات. حتى في المرض، كانوا يفضلون نصائحه على الذهاب إلى الحاج محمد صبرة، أو إلى مستشفى رأس التين.

لاحظ الرجال تغيُّره، منذ موت زوجته.

عاد من البحر. فوجئ بنسوة يعرفهن ولا يعرفهن. غطين البيت بالسواد: الباب الخارجي، والسلم وحجرات الشقة التي فتحت عن آخرها، وزوجات أبنائه، يتنقلن داخل الشقة، ويبكين.

فتش — بالذهول — عن امرأة بالذات، عن وجهٍ بالذات. انتفض لصوات امرأة في وجهه. تبعها بقية النسوة بنحيب وبكاء وصراخ وصوات. جلس إلى أبنائه الثلاثة في زاوية الزواوي الملاصقة. عرف أن ذلك هو اليوم الثالث لوفاة زوجته. صرف الجميع — عقب صلاة العشاء — وأغلق الباب عليه، وعليها. يجدها في أنحاء الشقة، تمشي، وتقعد، وتنام، وتصحو، وتقف في المطبخ، وتؤدي الصلاة، وتنادي — من البلكونة — على ولد ليأتي لها بما تحتاجه. لازمته ذكريات أكثر من خمسين عامًا، حتى طرق أبناؤه الباب في ضحى اليوم التالي. شاركهم الفطور. حادثوه. بدا في وضع المنصت، لكنه كان قد أسلم نفسه لذكريات قريبة وبعيدة، لأخذ وعطاء، ودعابات، وضحك، وخصام، وأيام صفو ومرض وتوقع، وزيارات، وقعدات في صالة الشقة، وفي البلكونة، وداخل حديقة رأس التين، وعلى شاطئ البحر.

سأل: هل كانت بمفردها؟

قال أكبر الأبناء: حرصت في الأيام الثلاثة الأخيرة أن تترك باب الشقة مفتوحًا.

علا حاجباه: لماذا؟

– لم تقُل السبب.

قال بنبرة متشككة: كنتم معها؟

– جلست معنا يومًا كاملًا.

في لهجة مشفقة: هل تعبت؟

– همست بالشهادتَين عند أذان المغرب. ثم …

وخنقه البكاء، فسكت.

صحبوه — فجر الخميس الأول — إلى مقابر العامود، والسؤال يلح عليه: هل رحلت المرأة بالفعل، فلا تعود؟

كان — إذا خلا إلى نفسه — في البلانس، أو في القهوة، أو في الشقة، أخرج من جيبه صورة صغيرة متهرئة. يُطيل تأمُّلها، ويشرد، يدقِّق فيما يراه هو، ولا يراه أحد. استغرق في حياته معها. التفاصيل الصغيرة والمنمنمات. تكرر نسيانه، فأعاد ما روى مرات. ورأى زوجته، فيما يرى النائم. كانت جالسة مغطاة بالورود والرياحين. ترتدي ما لم يرَه في حياته. سألها عن أحوالها. قالت: إنها على خير، وإنْ طال انتظارها له. ورأى المرأة معه في مركب، صاريها ذهب، وقلعها حرير، وحبالها حرير، وفرشها سندس أخضر، وفيها كنب مبطَّن بريش النعام.

قيل إنه اشترى كفنًا، دسَّه تحت مرتبة السرير. أحزَنَه أنه يموت دون أن يسافر إلى الحج، ويزور قبر الرسول. في إحدى المرات القليلة، المتباعدة، التي كان يزوره فيها أكبر أبنائه، أوصاه بأن يؤدي فريضة الحج بدلًا منه.

روى قاسم الغرياني عن حمادة بك. إذا شاهد جنازة في الطريق، لاذ ببيته. يدسُّ جسمه في الفراش، ويغطِّي حتى رأسه، خشية الموت!

قال قاسم الغرياني وهو يربت — بودٍّ — كتف الجد السخاوي: هذه فرصة ليتحدث كلٌّ منا عن وصيته بعد الموت.

قال محيي قبطان: أوصى جميعي حميدة أن تُلقَى جثته في البحر بعد موته.

قال حمودة هلول: هل يريد الفرار من حساب الملكين؟!

قال الغرياني: بل هو يفرُّ مما توعدته به امرأته.

وعبر بيديه: أعلنت أنها سترقص فوق قبره.

قال خميس شعبان: زوجة هلول تزمع اختصار المسافة، فتبصق على كفنه!

وتنهَّد: عندما أحس مختار زعبلة بنهايته، نزل البحر، ومات فيه!

انكشاف السر

اقتحمت غرفته أصوات متداخلة.

مشى — بين اليقظة والنوم — إلى النافذة المطلة على ميدان الخمس فوانيس. نفض رأسه. أغمض عينَيه، وفتحهما. تبيَّنَ أمام سيدي علي تمراز رجالًا لا يعرفهم، أحاطوا برجل عارٍ إلَّا من سرواله الخارجي. حتى الحذاء خلعه، ووقف حافيًا. أمسك شاب يرتدي بنطلونًا وفانلة صيفية، بما لم يتبيَّنه في وقفته خلف النافذة. ويدفع — بأصابع اليد الأخرى — صدر الرجل العاري، والغضب البادي في وجهه يبين عن قسوة الكلمات المتلاحقة.

هتف بالمفاجأة: مَن؟

بدا تردُّده على سيدي علي تمراز مفاجأة للكثيرين. لم يعرف عنه أنه يؤدي الصلاة. علا إيقاع المفاجأة في حرصه على صلاة الفجر. لم تصدق الأعين المتشككة ما رواه عن صدق توبته، واستعداده للسفر إلى الحجاز، والعودة كيوم ولدته أمه. لمحت انتقال «الصنف» من البلقطرية إلى فرن التمرازية، ثم إلى وقت صلاة الفجر داخل الجامع.

واصل التردُّد على الجامع. يؤدي الصلاة في أوقاتها. حتى صلاة الفجر يؤدِّيها حاضرًا. يستمع إلى الكثير من دروس الغرب. ربما أطال البقاء بعد الصلاة. يكتفي من الشيخ جابر برغوت بإجابات مدغمة، أو بالصمت. أفزعه قوله المفاجئ: هذا بيت الله. أهمل الالتفات ناحيته. يسحب مصحفًا من المكتبة الخشبية الصغيرة. لا يتركه إلا لمحادثة أصدقاء، يطيلون القعدة، أو ينصرفون حالًا. يغادر الجامع إلى الفرن. يغلق عم سلطان الخادم أبواب الجامع وراءه، ويمضي إلى بيته.

يتنقَّل بين المعجنة والفرن وبنك الماركات. يسأل، ويجيب، ويأمر ويشخط، وينطر. عهد إليه الحاج عنتبلي بالفرن، قبل عشر سنوات. لما آلَ الفرن إلى وحيده، أبقى عليه حمادة

بك. اكتفى بالتردُّد على الفرن كل حين ومين. يتسلَّم الإيراد — في نهاية اليوم — من فؤاد أبو شنب.

عرف — بطلوع الضحى — أن البوليس ضبط أبو شنب يبيع المخدرات داخل الجامع. أشد ما يكون البيع عقب صلاة الفجر. يخلو الجامع من المصلين، وتخلو حركة الطريق. يسهل تبين الأعين الراصدة. المرشد نبه إلى أن الرجل يُبقي قطعة الحشيش في قبضته. يقتطع منها حتى تنفد. إذا دهمه الخطر، قذف بها. نفي التهمة أسهل مما لو أن البوليس وجد الحشيش في جيبه. لكنه كان يحمل في لفافة مغطَّاة بقطعة قماش خضراء، قطعة كبيرة من الحشيش، قُسِّمت إلى أجزاء، وأُعِدَّت للبيع.

قيل إن البوليس شم الخبر من عم سلطان. هو الذي وشى به. أدهشه أن الرجل يؤدي صلاة الفجر في وقتها، ولم يكُن يدخل الجامع من قبل، ولا عرف أنه يؤدي الصلاة. لاحظ الهمسات، والأيدي التي تتبادل ما لم يتبيَّنه.

همس بما تيقَّن منه للشيخ ربيع المنسي، إمام الجامع، فأبلغ البوليس.

قال المعلم أحمد الزردوني: الفرن إذَن واجهة لتجارة المخدرات.

زفر عباس الخوالقة في ضيق: أنفق حمادة بك أموال أبيه في الانتخابات والمسخرة!

سأل قاسم الغرياني: هل يقبضون على حمادة بك؟

علا صوت عبد الوهاب مرزوق: ألقوا القبض على أبو شنب بالمخدرات داخل الجامع.

أضاف بنبرة واثقة: لا شأن لحمادة بك بما حدث.

أشفق عليه انشغاله في التهيؤ للانتخابات. قال حمادة بك: إنه لا شأن له بالفرن والبيوت إلَّا في تسلُّم الإيراد. ترك لفؤاد أبو شنب حق التوقيع على عقود البيع والشراء. إذا واجه مشكلة، حلَّها بنفسه، لا شأن له هو بها.

غادر أدهم أبو حمد قسم الجمرك بعد المغرب. المفاجأة تحاصره بالذهول، وعبارات ضابط مباحث قسم الجمرك تناوشه. ألقى السلام على فؤاد أبو شنب، والعساكر يقتادونه خارج الجامع. خمَّن ضابط المباحث أنه ربما يشارك أبو شنب تجارته. صحبه إلى القسم. أمضى النهار في سين وجيم، حتى اقتنع الضابط أن الجيرة وحدها، صلته بأبو شنب، فأفرج عنه.

لقيه جلساء قهوة المهدي بالتهليل.

قال إبراهيم سيف النصر: نزلت النصف في أقل من يوم!

اغتصب ابتسامة: هم وقلة مم!

وتقلَّصَت ملامح وجهه: منه لله أبو شنب الكلب. آذى نفسه، وآذاني.

رنا إليه إبراهيم سيف النصر بمشاركة: جارنا أمين عزب أمضى في السجن ثلاثة أشهر بوشاية كاذبة، فلم يشكُ، ولا ألقى حتى على الواشي مسئولية ما حدث.

ثم وهو يتحسَّس الكلمات: قضاء يوم في سين وجيم لا يعني نهاية العالم!

فارق بين دخوله السجن من قبل، ودخوله إليه هذه المرة. واجه الشتائم والإهانات والتعذيب. لكن الأسئلة عن تهمة حقيرة، آذته. صعبت عليه نفسه، وتمنى الموت.

كان المهدي اللبان أول مَن عرف ما حدث.

بعد أيام من حريق القاهرة، شاهد رجالًا يرتدون الثياب المدنية، يصحبون أمين عزب إلى سيارة سوداء أمام باب البيت. تعالت صرخة من الطابق الثالث، أسكتتها نظرته الزاجرة. مضت السيارة في شارع إسماعيل صبري، ثم مالت في طريق الكورنيش.

نادى المهدي على الولد طاهر وهو في طريقه إلى المدرسة: ماذا جرى؟

غلب الارتباك على الولد، وسكت، وترقرقت الدموع في عينَيه. شخط المهدي في الجرسون نجاتي لما قال إن أمين عزب يقرض زواره بالربا.

ظلَّ ما حدث مخفيًّا، حتى وقف التاكسي أمام باب البيت، ونزل منه أمين عزب. طرأ على جسمه هزال، وتداخل عنقه بين كتفَيه، وبدا وجهه هضيمًا، مصفرًّا، وأطلَّت من عينَيه نظرة ساهمة.

قال أمين عزب وهو يشرد في المدى: جاءوا ببلاغ أني آويتُ فدائيين في بيتي.

هتف المهدي: أنت؟!

وهو يغتصب ابتسامة: هذا ما أخبروني به عند استضافتهم لي. لم يتبينوا خطأ البلاغ إلا بعد ثلاثة أشهر!

لم يكُن مَن يجلس أمامه أمين عزب، الذي طرد الرجل الغريب من قهوة الزردوني. بدا ضعيفًا، ومتخاذلًا، ولا حول له. حتى فنجان القهوة دفعت به إليه يد من وراء الباب الموارب. قدمه بيد مرتعشة.

– أين كنت أيها الرجل؟ ماذا فعلوا بك؟

هرش المهدي ذقنه — في حيرة — بطرف إصبعه: نصيحتي أن تمتنع عن استقبال أحد في بيتك.

خنق الانفعال صوته: وما ذنب الناس لأمنع عنهم صداقتي؟

– أثق أن مقدم البلاغ من المترددين على بيتك. ربما لم تستطع قضاء مصلحة له.

قال أمين عزب في انفعاله: هذا ليس دافعًا لعزلتي عن الناس!

لزم البيت ما يقرب من الشهر، لا يغادره، ولا يستقبل الزوار. ثم عاش مألوف حياته. يعود من زاوية خطاب، عقب صلاة العشاء. يقرأ، ويستقبل زواره، ويُنصت إلى المشكلات، ويُسدي النصائح. يُعيد المرأة الناشز إلى زوجها، والرجل الآبِق إلى زوجته، ويساعد — بهباته الشخصية، وصدقات الميسورين من أبناء الحي — اليتامى والمطلَّقات والذين يقصدونه لعوز. ربما أغلق على نفسه باب حجرته، في خلوة لا يعرف أهل بيته، ولا أي أحد كيف يقضيها.

قال أدهم أبو حمد: أسئلة الضابط الشاب في القسم، كانت أقسى من حُكم الإعدام.

تكلف إبراهيم سيف النصر ابتسامة: السجن للجدعان!

زفر في ضيق: ذلك زمن مضى. السجن الآن لفؤاد أبو شنب!

استطرد فهمي الأشقر: وللولية إخلاص.

قطَّب حاجبَيه: مَن هي؟

قال الأشقر: الحركة الوطنية مدينة لها بما لا يتصوَّرُه أحد.

وتصنع الجدية: قتلت المرأة من عساكر الإنجليز، بما كانت تحمله من مرض، أضعاف مَن قتلهم المسلحون!

طرف الخيط في استعادة الذكريات: لما كنت في السجن. ثم تومض مفردات: الثورة، وسعد زغلول، والمظاهرات، والعمل السري، وعمليات الاغتيال. ربما فوجئ بالسؤال — بعد ما حدث — أي سجن؟! هل يقوى على تحمل السؤال، المفاجأة، الصدمة؟ وهل يرد، أو يصمت؟

في المساء، روى عباس الخوالقة لأم محمود ومهجة ما حدث.

قال في لهجة متشفية: الله يمهل ولا يهمل. دفع ثمن أذيته لنا!

وقال بنبرة متأثرة: لما شكوت إلى حمادة فعلة الرجل مع مهجة اكتفى بالاعتذار. وفور علمه بما حدث اليوم، زار مأمور قسم الجمرك، وأخبره أنه قد فصل أبو شنب.

والْتَمعَت عيناه ببريق: طالب المأمور ألا يكتب في المحضر صِلة الرجل بالفرن حتى لا يُسيء إلى سمعته.

وبصق في الفراغ: كلب!

ورنا إلى مهجة بنظرة حانية: أنت صغيرة. والمستقبل أمامك.

ومسح بالمنديل المحلاوي عرق وجهه: سيعوضك الله خيرًا!

ثم اعتدل في جلسته كالمتنبه: لا تتركي البيت كثيرًا يا مهجة. أولاد الحرام لا يدعون أحدًا في حاله.

وأطلق «أف» منغَّمة: حتى حكاية المرحوم هشام يرددون عنها كلامًا سخيفًا.

قال سيد الفران: الظروف أجبرتني على السكنى في البلقطرية.

ولوَّن صوته: أما أبو شنب. فقد عرفت الآن سر حرصه على أن يسكن الشارع!

واستطرد كمَن يحدِّث نفسه: هذا جزاء العيش المسلوق!

وأنصتت أنسية — في دهشة — إلى روايته عن دفع أبو شنب له، كي يُلقي الأرغفة في الفرن والحرارة زائدة. يحمر وجه الرغيف، يبدو مستويًا. لكن الرطوبة تظلُّ عالية داخله، ويظلُّ ناقص النضج، وإنْ زاد وزنه، فلا تشغله كبسات مفتشي التموين.

لم يصدق الشيخ عبد الحفيظ في البداية. زاره إبراهيم سيف النصر في جامع القائد إبراهيم، وروى ما حدث.

هل كانت الصلاة واجهة لتجارة المخدرات؟ والأسئلة في الدروس، وقراءة القرآن، ولزوم الجامع. هل كانت ضحكًا على الذقون؟ هل كانت ضحكًا عليه هو بالذات؟

عامل الرجل بما ظهر به. لم يعُد عنده رئيس عمال في فرن حمادة بك. رأيه في صاحب الفرن مُعلَن. وكان انحيازه في الانتخابات معلنًا لمرشَّح الوفد.

قال إبراهيم سيف النصر: خدعني الرجل. كنت أحسده على إصراره بصلاة الفجر في موعدها.

قال أدهم أبو حمد: مثله كثيرون!

استطرد متذكرًا: سمعت من الراديو أن حسين سري قدَّم استقالته.

قال الشيخ قرشي: صحف المعارضة أكدت أن استقالته؛ لأنه رفض حل مجلس إدارة نادى الضباط دون الرجوع إليه.

قال سيف النصر: الهلالي بدأ في تأليف الوزارة.

طوَّح أبو حمد يده: تاني؟!

وخالط الانفعال صوته: لماذا ذهب. ولماذا جاء؟ وهل يرفع — ثانية — شعار التطهير.

وعدل النظارة فوق أنفه: أثق أن الناس لن يذكروا له فعلًا حسنًا!

قال إبراهيم سيف النصر، وهو يتأمل ملاية لف قادمة، تتأود، من شارع فرنسا: دعونا نتابع لعبة الوزارات الموسيقية!

حقائق الاتصال

في زاوية البيت الفاصل بين شارع أبو وردة ورأس التين، اختلط الأمر، فغاب اتجاه السمانة. انطلقت — مفزوعة — في اتجاه الميناء الغربية، تلاحقها صيحات الأولاد.

كان موسم السمان قد بدأ. والباعة يحملون الأقفاص. ينادون: سمان. كواليا.

واصل الكثيرون اندفاعهم إلى رأس التين، في حين لحقت القلة بصيحة ولد، اتجه إلى أبو وردة.

تنبَّه محمد الراكشي للصيحة. لا بد أن الولد رأى السمانة، ومن اتجهوا إلى رأس التين، جروا بالاندفاع وحده.

ألقى بالغلق الفارغ على الأرض، وروى ما حدث.

قال عسكري السواحل: صيد هذه الطيور ممنوع.

تغيَّرَت ملامح علي الراكشي بالدهشة: لماذا؟

قال العسكري: الأوامر! هذه طيور معرَّضة للزوال.

قال في دهشته: كيف أترك رزقًا هبط عليَّ من السماء؟!

هجر صيد السمك والطير في أيامه الأخيرة. اجتذبه التصوُّف فلم يعُد يهجره. وحين حاول العودة إلى دنياه القديمة، أغرقته مياه البحر.

استوقفه أمام جامع نصر الدين. سأله عن السمانة في يده، هل اشتراها؟

قال: اشتريتها بقرشين من شارع الميدان.

أمسك بالسمانة لحظات، ثم أطلقها: طيري!

ذابت السمانة في الفراغ.

صرخ محمد: دفعت فيها قرشين.

رنا إليه بإشفاق: كفارة عن ذنوب عليك.

وهو يجز على أسنانه: حتى طعامنا تطيره؟!

– أمنعكم من أكل الحرام.

ومضى في سيره الذاهل.

كان يستعيد وقفة أبيه في ترقُّبه لأسراب السمان، في الساحة المقابلة لمساكن خفر السواحل، الشريط الساحلي الضيق، الممتد إلى ما بعد قلعة قايتباي، يتوازى في جانبيه مياه البحر وجدران البيوت. نشر بوظة الكلزة غزله في الموضع الذي كان يقف فيه علي الراكشي. طارت أسراب السمان فوقها، أو اصطدمت بها، فسقطت ميتة. خمَّن أن كرامات الراكشي تفقده رزقه. نقل غزله إلى الساحة الجيرية المطلة على خليج الأنفوشي.

خلا الموضع — فيما بعد — من الرماكة، شباك صيد السمان الطويلة، من المنطقة المقابلة لمساكن خفر السواحل.

بعد أن واجه مرعي بيبي، في الأرض المجاورة لمساكن السواحل، نصحه الحاج قنديل بأن يهمل عرضًا بحراسة وكالة درويش، ويظل في عمله بالميناء: مات أبوك على ولايته، فلا تجعل الفتونة مهنتك!

وضغط على الكلمات: حين اعتدى مرعي بيبي عليك. دافعت عن نفسك.

ودخل نبرته رنين: الآن. أنت مسئول عن إخوتك. وليس عن أموال الناس!

ارتفعت صيحات المطاردة، وتزايدت أعداد المطاردين. ظلت السمانة تطير. تميل كيفما اتفق. يشغلها الفرار، وليس اختيار الشوارع التي تتجه إليها.

قال قاسم الغرياني وهو يتابع المطاردة: أتمنى أن أطير مثل هذه السمانة في بلاد الدنيا.

وأطلق ضحكة منغَّمة: شريطة أن تصطادني شباك امرأة.

تنبَّه للمطاردة بحَّار يأكل فطيرة من أبو العزم الحلواني، على ناصية الموازيني.

لحق بالمطاردين.

كان الطيران قد أنهك السمانة. تخبطت في الفضاء، وسقطت. هوت فجأة، لم تمهد بالإبطاء في طيرانها، تقافزت تريح جناحَيها، ثم طارت ثانية.

نزع البيريه الأبيض المستدير من رأسه. ضربها بآخِر ما عنده، وتماسك حتى لا يقع. انتفضت السمانة، وقفزت إلى أعلى. توقَّع أنها ستواصل الطيران، لكنها دارت في نصف دائرة، ثم سقطت. ارتعشت في موضعها، وطارت.

كان علي الراكشي يصطاد السمان. هجر بلانسات الحاج قنديل، والسنارة، والبيع في الحلقة، إلى تلقف أسراب السمان في طيرانها الصاخب.

هل يعجز عن صيد سمانة؟

وضع محمد كل إصراره في الإمساك بالسمانة. يتوقف الآخرون بالتعب، أو الزهق. يظلُّ يجري، ويجري ...

حلاوة القرب

تنبَّه لصوت محمد كسبة يغني.

كان يمشي على الكورنيش بلا هدف. أغلق الكشك لتناول الغداء والقيلولة. مضى خطوات ناحية البلقطرية، ثم مال — بعفوية — ناحية الكورنيش.

مال بأعلى كتفه يشاهد ما يجري. الفلوكة بالقرب من الشاطئ. الرجال فوقها، والغزل في الأيدي. وثمة أولاد تناثروا على المكعبات الأسمنتية، يشاهدون.

صياد ورامي الشبك ... م الفجر في الميَّة
باسرح واروَّح يوماتي ... أعد الموج في الميَّة
آهين يا عشاق ... دا صيد السمك غيَّة
ما تكونش مكروش ... لا البحر فيه وحوش ... وتطب في الميَّة
صياد ورامي الشبك ... م الفجر في الميَّه

صاح عم منجي: سمك المنشار غرس في البلانس.

ضرب محمد كسبة وجه الماء — بقطعة خشب — ضربات متوالية. ألقى قطعة الخشب على أرضية الفلوكة، ومسح جبهته بظهر يده: فصلت الجسم عن الرأس الملتصق بالسفينة.

واتجه إلى ولد في الثانية عشرة: اصطده يا رأفت بعد أن يطفو.

أطال الوقفة.

تأمل صيد الجرافة منذ البداية. ثلاث ساعات، وربما أكثر، قبل أن توضع الأسماك في الطبالي، وتُباع في شروات على الشاطئ، أو تنقل إلى الحلقة.

سار القارب في الماء نصف دائرة. مسح محمد كسبة المنطقة المحيطة بعينَيه. لا صخور كي لا تتمزَّق الشباك عند سحبها إلى الشاطئ، والموج حصيرة، فيسهل سحب الشباك. ألصق

أذنه بقاع البلانس، ينصت إلى حركات الأسماك وأصواتها. تأكد من وجودها في المياه حوله. فدعا الرجال إلى إلقاء الجرافة.

ألقى الرجال الشبكة ذات الأعين الكثيرة. أسفلها مثقل بالرصاص، واتصلت من أعلى بعوامات من الخشب، وربط طرفاها بحبلَين طويلَين. الْتَقى نصف الدائرة عند وصول القارب إلى الشاطئ في موضع موازٍ. كأنما الشبكة بالون كبير الحجم، داخل المياه، لا يبين منه سوى الأطراف التي طفَت بقطع الفلين والعوامات. ثم بدأ مجموعتان من الرجال في سحب طرفي الحبلين، وقطع الرصاص تجرف القاع والأسماك والأعشاب والطحالب. تقافزت الأسماك داخل الشبكة. مختلفة، كبيرة وصغيرة. تنفذ البسارية من الثقوب الضيقة.

ترامى صوت محمد كسبة من أسفل الكورنيش: تريد عفشة يا سيد؟

اغتصب ابتسامة: يكفي الحظ!

قذف عم منجي بالغزل في الماء: إذا أخذنا صغار السمك. ماذا نصطاد في الأيام القادمة؟

شوَّح محمد كسبة في استياء: المنطقة مليئة بالكابوريا. تأكل السمك والغزل أيضًا.

قال صابر الشبلنجي: أحلَّ الله الزواج من ثانية. وأحلَّ الطلاق.

اربدَّت ملامحه: ماذا تقول؟

– من حقك أن تطلِّق الولية أو تتزوَّج عليها.

أغمض عينَيه، وهز رأسه: أنسية بنت حلال.

قال صابر: ومَن أنكر؟

غلبه التأثر: الطلاق مستحيل. وزواجي عليها يقهرها.

وقال في تأثره: ما عدا مسألة الخلفة. فأنا أشعر مع أنسية بالاطمئنان. ولا يمر بي من ناحيتها خاطر سوء.

وهز يده في الهواء: ربما لا أجد ذلك مع امرأة أخرى.

أطلق صابر شخرة: اقتنع بما أنت عليه إذَن!

خايله وجه أنسية، سمرتها الرائقة، وملامحها المنمنمة، وحركاتها الطفولية. لا يتصوَّر نفسه داخل شقة مع امرأة غيرها. هي الصورة الوحيدة للزوجة. لا يأتي في باله سواها. شحبت كل الصور قبل أن يظهر سيدي ياقوت العرش في حياتهما. حتى الأيام التي كان في حياتها، مثلما كان في حياتها رجال من بحري، لا تشغله، ولا يحاول تذكرها. ما يتذكره هو وجودها في حياته، منذ دعوتها له إلى بيت سيدي داوود. الأيام القديمة حلم لم يبقَ منه في الذاكرة إلا مشاهد غائمة، تختلط بمشاهد وجودها، في حياته، في البيت: انتظاره لها — في

عودتها من بيت عبد الله الكاشف — على ناصية دحديرة أبو العباس. تناول الغداء على نجيل حدائق الشلالات. انشغاله بها إلى عدم النوم، بعد أن تطفئ قهوة كشك أنوارها. ليلة الزفاف في قهوة كشك. أنا مقطوع من شجرة. قول الطبيب: الحمل طبيعي ولا يوجد ما يقلق. دلق الماء الفاتر على قدميه المتعبتين. انشغالها بنسج ملابس تريكو للمنتظر. التماعة الخوف في عينَيها من لوك فص الأفيون. ترقبها لمجيئه خلف النافذة المواربة. قدومها بفرحة الحصول على الشقة. ياللي على الترعة حوِّد ع المالح. بيومي جلال يقذف بالطبلة إلى أعلى، ويتلقفها. الحانطور يقلهما إلى البلقطرية. تعدمني. أنت الآن زوجتي بالورقة والقلم. لن أبات جعانة وزوجي خباز. ضحكتها المكتومة وهو يداعب — من تحت الملاءة — باطن قدمها. عودته كل مساء بوردة من الحديقة المجاورة لمستشفى الملكة نازلي. جلستهما أول كرسي بالعربة العلوية في ترام الرمل، ينفسَّح أمامهما الطريق بناسه وميادينه وشوارعه وأنواره الملونة. نظرتها المتابعة، وتلويحها، قبل أن يغيب في نهاية الشارع. الوقفة بين ضلفتَي النافذة المواربة، تنتظر عودته. إغواء البلاط الأملس بالتمرُّغ عليه. ينقلبان عليه مرات، حتى يصطدما بالجدار، ثم ينقلبان ثانية. تقلص أصابعها في مقصورة أبو العباس، وعلى الوسادة بآلام المخاض المفاجئ. نذرها — إذا أنجبت — أن تتولى التسحير في شوارع بحري. إنصاتهما لنصائح الشيخ مكي قارئ سيدي نصر الدين. أنا أقبل من الله إصبع طفل. التعاويذ والتمائم والأحجبة وزيارة الأولياء، وتناول الأعشاب والوصفات. نشيجها الذي قتله حين أقدم على أذيتها.

زايله الضيق. حلَّت مشاعر إشفاق ومؤانسة. أزمع ألا يعيد على أنسية ما قاله الشبلنجي. يخشى أن تظن موافقته، وأنه يمهد لما يعد له. تذهب إلى بعيد، تتصور الطلاق نهاية. ما لم يكُن يخطر في باله ولا يشغله. ألفة وعادة وعشرة، لا يتصور الحياة بدونها.

كان مستلقيًا على كنبة الصالة. أسند ذراعيه على المسند بامتدادهما. جلست تحت قدميه، ومدَّت يديها — كما اعتادت — لتنزع حذاءه.

فاجأها — وفاجأ نفسه — برفسة من قدمه في صدرها. شهقت، ارتمت إلى الوراء، وهي تطلق صرخة مكتومة. تحاملت على نفسها، واستندت على يديها، ومضت — باكية — إلى حجرة النوم.

لماذا فعل ما فعل؟ لم يكُن ضايقها من قبل ولا آذاها، فلماذا فعل ما فعل؟ يثق أنها تكابد نفس مشاعره، وربما أشد.

علا صوت نشيجها. تقدم إلى حيث تجلس على طرف السرير.

– آذيتك.

احتضنها بنظرة ود: لن أسامح نفسي.
وربت صدرها: لم أعُد أطيق نفسي!

دخلت علي تمراز مدفوعة بحكايات تعيدها إلى مكاشفات أبو العباس وياقوت العرش. جثت على ركبتيها، واقتربت من الشيخ جابر برغوت، في جلسته المتعبدة لصق المقام.

كان الصباح في أوله. الجامع بلا مصلين ولا زوار، فيما عدا الشيخ، وعم سلطان المشغول فيما لم تتبينه ناحية القبلة.

زحفت، حتى اقتربت. ألجمها التهيب، فحافظت على مسافة بينها وبينه. حاولت استعادة كلمات أعدتها، تصل بها إلى قلبه، وتحرك مشاعره.

ظلَّ الشيخ على إطراقه الهادئ. ثم فاجأها بالقول: لن ينسى الله عباده الصالحين.

أيقنت أن للشيخ سره الباتع. يعرف ما يجول في الخواطر، ويعلنه. الله لن ينساها إذَن. اقتص لها سيدي أبو العباس من الظلم، ووهبها سيدي ياقوت العرش ما بدا في حياتها كالمستحيل، فالله لن ينساها.

تراجعت في جلستها، حتى لامست جدار حجرة الشيخ عبد الحفيظ، على يمين الباب الرئيس.

قامت باللهفة.

عمق السكون السادر، صدى زغرودتها الطويلة، المجلجلة.

الاستغراق

تفتح النافذة.

تطالعك الميناء الشرقية باتساعها في مدى الأفق، يقابلها سور الكورنيش. يميل من أول الشاطبي إلى شواطئ أخرى حتى المنتزه، ومن انحناءة الترام عند حلقة السمك إلى الأنفوشي ورأس التين، حدوة الحصان الهائلة، طرفاها — من اليمين — مبنى السلسلة. ومن الشمال قلعة قايتباي، يصل بينهما لسان حجري غير مكتمل، يصد الأمواج، وتأذن فتحته بدخول السفن وخروجها. لا سفن ضخمة للركاب، أو سفن حربية، بلانسات ولواتس وفلايك ودناجل، تدخل الميناء الشرقية، ثم تخرج إلى عرض البحر، أو ترسو في الركن القريب من متحف الأحياء المائية والقلعة. تستقر نظراتك على المنتصف تمامًا. يصعب تحديد المساحة، فهي مياه. يتصوَّرها الخيال ميادين وشوارع وبيوتًا وحدائق، مثل الإسكندرية تمامًا، وإن اختلف ناسها عن ناس الإسكندرية.

تغادر باب رقم ٦ في الثانية بعد الظهر. تمضي في شارع الجمرك القديم إلى نهايته، لا تتلفَّت. اعتدت بيوته ودكاكينه. اعتدت حتى البحارة والسياح وسيارات الأجرة وسيارات النقل الضخمة ولافتات الشركات فوق المباني. تستطيع السير مغمض العينَين. تميل إلى سوق راتب، تقلِّب وتُفاصل وتشتري. تراجع القائمة التي كتبتها فايزة. تتأكد من حصولك على ما أرادت. تعبر ميدان المنشية، وأول شارع فرنسا. يبدو سور الكورنيش الحجري في نهاية المدى. يبين البحر عن نفسه في شراع، أو ظهر صياد سنارة، أو المتطلِّعين إلى صيد الجرافة، أو بلا ملامح محدَّدة. زرقة السماء فوق البحر يصعب أن تتحقَّق إلا فوق مياه البحر، كأنما تمتزج الزرقتان في زرقة لها خصوصيتها الفريدة. تقطع شارع الترام. تخلف مبنى المحكمة. يطالعك البحر بتفصيلاته التي غيبها ابتعاد المرئيات: مبنى السلسلة، وحاجز الأمواج، وقلعة قايتباي، ومئذنة أبو العباس تتصاعد من فوق البنايات، وتعلوها،

وفلوكات صيد المياس، وعمليات الصيد بالجرافة والطراحة، وصيادي السنارة المتناثرين على السور الحجري.

تدخل البيت المواجه لمنتصف المسافة. حاجز المياه غير المكتمل بين السلسلة والقلعة. هكذا قدرت، واطمأننت إلى تقديرك. تلقي التحية، وتمضي إلى النافذة المطلَّة على الشارع. تفتحها، وتتطلَّع إلى المشهد الثابت أمامك. تحوله — في خيالك — إلى مشاهد غير مترابطة، ولا منسجمة، تتصوَّرها، تريدها، تبدل ما في حياة الناس، وما في داخلك. ربما تمتد جلستك إلى ساعة الغروب، تتأمَّل ابتلاع الأفق لقرص الشمس الدامعي، تتطلَّع إلى المراكب المتناثرة، لا يشغلك شيء، ولا تفكر في شيء. تترك نفسك للحظات هادئة، تقطر صفاء.

لم تجِد ما تردُّ به على أسئلة جلساء القهوة، بعد أن لاحظوا شرودك. تخشى التعليقات الساخرة.

قال الشيخ أحمد أبو دومة: لولا أني أعرف استقامتك لظننتُ بك الحب.

علا حاجبا إبراهيم سيف النصر في استنكار: وهل الحب حرام؟!

قال أبو دومة: إنه رجل متزوج.

– هل الزواج جهنم الدنيا؟!

قال فهمي الأشقر: يقصد أن المتزوج يقصر حُبه على زوجته.

قال أدهم أبو حمد: تتكلَّمون عن رجل صامت.

ثم وهو يرنو إليك بنظرة مشفقة: هذه عادته. لا يتكلَّم إلا مرَّة أو اثنتين كل عام.

لم يكُن السحر يشغلك ولا عُنيت به. جاست بك حواديت جدتك، وأمك، عوالم غريبة عن الأخت التي لا تفارقك، وإن لم تترك موضعها تحت الأرض، وتحدث أبوك عن عفاريت القيالة، قد تصادف السائر على طريق الكورنيش عندما تتوسط الشمس قبة السماء، تظهر له في صورة البشر العاديين، ربما تسخطه، أو تجتذبه إلى داخل الماء. استمعت لذلك كله، وارتجف له جسمك، ونمت بالخوف في حضن أمك، لكنك لم تحاول الدراسة، ولا التعمق.

حين أكد أبوك حقيقة خاتم سليمان، وأنه ليس مجرد حكاية في حدوتة، شغلك المعنى.

أنت ألقيت بالسنارة في الماء. اجتذبت السمكة، سمكة عادية لا تختلف عن الأسماك التي طالما اصطدتها في الميناء الشرقية. وضعتها في الغلق إلى ما سبق لك صيده، وإلى أن امتلأ الغلق بما يمكن حمله إلى البيت. فايزة تتولى تنظيف السمك وقليه، لكنك — لا تدري لمَ — أعلنت رغبتك في أن تنظف السمك وتقليه، وتعد السلطة، وكل شيء.

– أنتِ ضَيْفتي يا فايزة هذه المرة.

تلتمع عيناها بالتأثر: لماذا هذه المرة؟

– أبدًا. محاولة للتعبير عن إعزازي لك.

تحتضنك بنظرة دافئة: أنا أعزك بلا سمك!

نظفت سمكة، وثانية، وثالثة. ومَض الخاتم تحت الزعنفة. تأمَّلتَه، قلَّبتَه، مسحته. حدث ما حدث بمجرد أن جريت على الخاتم بإصبعَيك. همس الصوت، فتلفتَّ — بتلقائية — مفزوعًا: شبيك لبيك. خاتم سليمان بين إيديك!

امتدت يدك المتسخة إلى فمك، تكتم الصرخة.

– لا تخَف. عثرتَ عليَّ لأخدمك لا لأوذيك!

كم من الوقت مضى، حتى استعدتَ نفسك، واستطعتَ أن تتيقَّن مما حدث؟

كان إخفاء الأمر عن فايزة هو أول ما فكرت فيه. تحملت المفاجأة، لكن التخمين صعب إذا واجهت فايزة المفاجأة نفسها. قلت، كأنك تخاطب شخصًا، كأنك تخاطب الخاتم: ليس الآن! ودسست الخاتم في جيبك. خلوت إلى نفسك، وإليه، في الحمام. وضعته أعلى السيفون. حرصت ألَّا يجري إصبعاك عليه، فتعلو الكلمات أمام فايزة، وأكلت — لا تدري كيف — وأجبت — بكلمات مختصرة — على أسئلة فايزة، وداريت انفعالك. وحين مضت إلى حجرة النوم قائلة: ألن تستريح؟

قلت: معي مذكرة. سأقرؤها أولًا.

هل ظهر الخاتم ليحقِّق الحلم، الأمل، التطلُّع، الذي يشغل حياتك؟ هل يُتيح لك مدينتك الجميلة، الجميلة؟

لم يكُن اختيارك لأبناء مدينتك الجزيرة، جزيرتك المدينة، عفو الخاطر ولا اعتباطًا، وإن رفضت التسميات. ليسوا حزبًا سياسيًّا ولا جماعة دينية أو اجتماعية، وليسوا صفوة: إبراهيم سيف النصر وعبد الله الكاشف والشيخ قرشي ونجيب المهدي والشيخ أحمد أبو دومة وفهمي الأشقر وأدهم أبو حمد وزكي بشارة. لا يختلفون عن أهل الإسكندرية. والمدينة الجزيرة ليست مطلقة. تظلُّ على صِلة بالإسكندرية، تتبعها ولا تنفصل عنها. تختلف عن الإسكندرية فيما يتطلَّع إليه ناسها، في أخلاقهم ومعاملاتهم. وفد آخَرون غابت ملامحهم، وإن ظلَّت الأمور في أيدي أصدقاء قهوة المهدي.

صحوت على وميض البرق، وقصف الرعد، ورخات المطر، تداخل معها صوت كالنداء، أو التحذير، أو الاستغاثة.

فتحت النافذة، فبدَت الميناء الشرقية مغموسة في الظلام، والسحب الكثيفة المتراكمة، حتى أضواء مصابيح الطريق انطفأت. تبينت — بالكاد — تصاعد أمواج في وسط الميناء

الشرقية، عالية، متدافعة، متلاحقة، ترافقها أصوات لم تتبيَّن مصدرها، ولا مفرداتها. لما شفت الظُّلمة، بدَت الجزيرة، المدينة، إلى مدى الأفق، إلى ما بعد حاجز الأمواج بين السلسلة والقلعة. الحاجز اختفى، ولم يعُد إلَّا الأرض الممتدة، فوقها بنايات وحدائق وجوامع وميادين وشوارع واسعة، تظللها الأشجار على الجانبين، والأشجار مثمرة، لا يحتاج مَن يريد ثمارها إلَّا أن يمدَّ يده، والبيوت تتخلَّل الحدائق والأشجار والورود، والنافورات من الجرانيت والرخام والمرمر.

لم تقصر الصِّلة بين الجزيرة والإسكندرية على الفلايك. بنيت جسرًا حديديًّا يصل بين شاطئ الميناء الشرقية والجزيرة. وافقت على الزيارات بين الأهالي، وإن اقتصرت الجزيرة على سكانها متى حلَّ المساء. لا ترفض الإسكندرية، وإن رفضت ما في المدينة من أشياء يعيبها أبناؤها. بدا عبد الله الكاشف مطمئنًّا إلى الحياة في الجزيرة. يترك البيت إلى شاطئ البحر، وإلى الحدائق، والمساجد، والمكتبات. متى عاد الكاشف؟ هل يظلُّ في الجزيرة، لا ينزل إلى الإسكندرية، ولا يعود إلى قريته؟ قباب المساجد ومآذنها تشع الأنوار، تنعكس على مياه البحر. خلت المنابر إلَّا من الشيخ عبد الحفيظ. رأيته يخطب في كل المنابر. كلمات غير التي قالها في علي تمراز، يهبها الناس إنصاتهم، ويهزون الرءوس. كاد أدهم أبو حمد يدفع حياته ثمنًا لاشتراكه في التنظيمات السرية ضد الإنجليز، ولم ينَل حقه في المكانة الرفيعة. أوكل إليه أهل الجزيرة — في انتخابات مُعلَنة — ما يتصل بالقضايا السياسية، وعلاقات الجزيرة بالإسكندرية، المدينة الأم، وغيرها من المدن والقرى. واختاروا إبراهيم سيف النصر لحل المشكلات الشخصية. لا أقسام بوليس، ولا محاكم، ولا سجون. كل ما يعرض عليه، يقضي فيه بالرأي الصواب. يلتزم بما يراه الجميع، فلا مناقشة ولا اعتراض. مَن يصرُّ على الخطأ يعبر الجسر إلى شاطئ الكورنيش، فلا يعود. أبدى نجيب المهدي انبساطه للإشراف على الحدائق والمسرح ودار السينما. لم تعُد هواية فهمي الأشقر تقتصر على الحمام. امتلأت سماء الجزيرة بالطير من كل الأنواع، حتى التي لا تعرفها الإسكندرية. أسراب لا حصر لها، تحلِّق في تكوينات، وتشدو. غابت ملامح عمل الشيخ أحمد أبو دومة، وان ظلَّ في مدرسة لا كالكتَّاب، ولا حتى كمدارس الإسكندرية.

شققت الترع والقنوات. أقمت الكباري والخزانات. عبَّدت الطرق. أنشأت مدرستين للمرحلتين الابتدائية والثانوية. تركت للمستقبل صورة الجامعة بعد أن أنشأت مستشفًى ومسجدًا وكنيسة ودار سينما ومسرحًا، وزجاج واجهات الدكاكين يسمح بمد الأيدي،

والحصول على ما تريده. لا حواجز، ولا أقفال، ولا استئذان من أحد. البيوت من طابقين أو ثلاثة. أعمدة البيوت من المرمر المرصَّع بالزمرد والياقوت والمرجان. لم تعُد الشقق لمجرد إتاحة الحياة بين جدران. الشقة مزودة بكل ما تحتاجه الأسرة. ما يطلبه المرء — أو يتمناه — يجده. خصَّص إبراهيم سيف النصر فترة الصباح لاستقبال الناس. يُنصت إلى آرائهم وشكاواهم، يفصل في المشكلات والمنازعات. تسير في الطرقات متخفيًا، تستطلع أحوال الناس. لا سجن، والمدرسة بلا أسوار، ولا أبواب. يرقب الآباء أبناءهم — دون تدخُّل — وهم يتلقون الدروس. يغادر الجزيرة حالًا مَن يسرق جاره، أو ينظر إلى امرأة ليست من أسرته، أو يتهيأ لنزال، أو يكذب. خلت المدينة من اللصوص والمتسولين والقوادين والمومسات والسماسرة. المغنيات يشدين بأنغام سماوية، والجميلات يؤدين رقصات كالسحر.

رنوت بعيدًا إلى سور الكورنيش، والبيوت المصطفَّة على الجانب الآخَر من الطريق. تتوقَّف عند بيت بالذات، ونافذة بالذات، هي الآن مغلقة، فلا أحد داخل الشقة. كنت تقف وراءها، تطيل النظر إلى الميناء الشرقية، وتحلم. حقق الخاتم وجان البحر كل ما أردت، لكن الحلم لم يتحقَّق. ظلَّ هاجسًا يشغل النفس، أو أنها يئست من تحقيقه. حتى أدهم أبو حمد نفد صبره، واستعاد ذكرياته القديمة.

امتلأت المدينة بالكلاب الضالة والقطط، وأطلَّت الثعابين من فجوات الأشجار، واختلطت في السماء أصوات الغربان والبوم والحدآت، وتقافزت الفئران في الشوارع والميادين، وانتشرت روائح عطِنة يصعب تنفُّسها.

تدس يدك في جيب البنطلون. تُخرج الخاتم بالبنصر والسبابة، تتأمله وتهز رأسك، تُلقيه في البحر بآخِر ما عندك، لا يشغلك التوقع. تسير إلى اللنش في مرساه. تنادي على سكان الجزيرة في الميكرفون المثبت داخله: انزلوا إلى الإسكندرية بلا عودة!

يسرع القريبون ناحية اللنش.

يقول إبراهيم سيف النصر: هل نتخلى عن الحياة في الجزيرة؟

تقول: لم يعُد هناك خاتم. وطبيعة الحياة هنا لا تختلف عن الحياة في المدينة.

قول عبد الله الكاشف آخر ما يصل سمعك: والأحلام التي جئنا بها؟

تدير مفتاح الموتور، فينطلق اللنش. تدير الدفة، تصبح في مواجهة النافذة التي تبلورت أمنياتك في العودة إليها. تنزل المدينة، تدخل الميناء. السفن الضخمة والأرصفة والرافعات والمخازن والحاويات والبحارة والمخلِّصين والمصدِّرين والمستوردين والشيالين والقادمين والمغادرين.

في الثانية، تغادر الباب الرئيس. تجاوز الشوارع والحواري والبيوت والدكاكين واللافتات. تفاصل وتشتري في سوق راتب. تمضي في الشوارع المستقيمة إلى طريق الكورنيش. تفتح النافذة، تطالعك الميناء الشرقية بملامحها الثابتة. تطيل النظر إليها، وتسرح. تهمل — بعد القيلولة — سؤالًا ثابتًا، يفاجئك به جلساء القهوة: أين أنت؟

الدخول في دائرة النور

ألقى حافة الطراحة على كتفه الأيمن، وأمسك الشبكة بيده اليسرى. على شكل مخروط، يتصل برأسه حبل.

ثبَّت قدمَيه بالأرض. مال بجسمه إلى الوراء، وقذف الشبكة بآخِر ما عنده، والحبل في يده يمنع انسياقها إلى الداخل.

تابع الطراحة في انتشارها على صفحة الماء، وغوصها — بقطع الرصاص الملتصقة بها — إلى داخل الماء.

أغلق حافة الشبكة، على ما لمته الطراحة من سمك، وسحبها إلى الشاطئ.

ذكره محيي قبطان: يا عم رجب، أنت تكتفي بنشر الطراحة.

أضاف في لهجة محرضة: اطرق سطح الماء بعصًا أو ألقِ حجرًا.

وقال للدهشة المتسائلة في عينَيه: هذه حيلة لاجتذاب السمك إلى الطراحة.

واتسعت ابتسامته: حاول، وادعُ لي.

تبين صعوبة الإمساك بالطراحة، وتحريك الماء. أزمع أن يصحب — في المرات التالية — أحد أولاده، يحرك الماء بعصًا في يده.

لاحظ فرار السمك من خلال الطراحة. قرَّر اختيار الليل للخروج إلى الصيد، فتختفي الظلال. لمح في جانب الشبكة ثعبان المارينا ذا الأسنان الحادة. هل يُلامسه فيُواجه خطر الموت؟

حرك الغزل لإنزالها. ثم حاول تهشيم أسنانها بشيء صلب.

أخفق، فألقى بالطراحة في البحر، لا يريدها، حتى لا يؤذيه ثعبان المارينا.

ألقى بالمشنة على كتفه، وتسلَّق السور الحجري، إلى الطريق.

لقيه حمودة هلول في مدخل السيالة بعين ذاهلة: الجد السخاوي مات!

ردَّد العبارة في غير تصديق.

كان يتوقع موت الكثيرين: الحاج قنديل، عباس الخوالقة، المعلم الزردوني، عم محجوب، عبد الوهاب مرزوق، جابر برغوت. لكنه أَلِف وجود الجد السخاوي في حياته، مثلما أَلِف طلوع الشمس والقمر، ووجود البحر، وأضرحة الأولياء، وتوالي النوات. وعى عليه وعرف — من أبيه — أن هذه هي الصورة التي عرفه فيها.

كان الرجال يعلنون استغرابهم من العمر الذي طال به. يدخلون الأمر في دعابات، لكنهم لم يفكروا في أن الجد السخاوي سيموت بالفعل، يغيب عن حياتهم. كانوا يتركون له أمرهم منذ يطلق الصيحة: ألسطة. يعرف التيارات البحرية، وأماكن الصيد، وتوقعات الرياح، والنوات، والأمواج، والمد والجزر.

ألن يقود الجد السخاوي الرجال في رحلات البلانس إلى البحار البعيدة؟ هل تخلو منه قهوة الزردوني؟ تظهر الشمس فلا يسترخي على الكرسي أمامها؟

قال الجرسون ياقوت: تصورت أن سيدنا عزرائيل نسي في طريقه الجد السخاوي، فنسيت فكرة أنه سيموت!

حتى أولاده الثلاثة، فاجأهم ما حدث. لا يتصورون الحياة بدونه. يركب البحر، أو يجلس في قهوة الزردوني، في مواجهة الشمس حتى تنتقل إلى الناحية المقابلة. وفاجأهم الرجال بأنهم أعدوا كل شيء: حياكة الكفن، واستخراج تصريح الدفن، وحفر القبر، وليالي المأتم، وإن رفض النعش التحرُّك حتى جاء أولاده.

رفع الرجال الكراسي. كوَّموها على ناصية صفر باشا. الأعداد الهائلة من المشيعين أجبرت الجميع على الوقوف فيما يشبه المظاهرة، من شارع صفر باشا إلى كورنيش الأنفوشي، وإلى شارع رأس التين والشوارع المتفرعة. امتدت الجنازة الهائلة إلى أبو العباس. خَلْق يبكون، وتعلو أصواتهم بالدعاء. رجال ونساء. بدا كأن أبناءه يتعرفون إلى أبيهم للمرة الأولى، كأنه والد الجميع، يشاركونهم حبه، ويشاركونهم الحزن عليه. ذابوا في بحر البكاء والصراخ والصوات.

عصر النبأ المفاجأة، شكا إلى الحاج محمد من تنميل في يده.

قال الحاج مداعبًا: هذه آخرة جلوسك في الشمس.

اربدَّ وجهه بالغضب: أجلس في الشمس قبل أن تولد. فلماذا الآن؟

عاد الحاج محمد من داخل الدكان بعلبة مستديرة من الصفيح: ادهن بهذا المرهم قبل النوم. وسيزول التنميل!

مضى — ساعة المغرب — ناحية الأنفوشي.

وقف بالقرب من سراي رأس التين، في انحناءة الطريق إلى الميناء الغربية. نظر إلى قرص الشمس المتوهِّج في نهاية الأفق. تناثرت الحزم الضوئية. زاد اتساعها في دوائر متتالية. غمر الأفق ضياء لم يسبق له رؤيته. انعكست الأشعة القانية على وجهه. بدت بشرته مُشرَبة بالحمرة. فضَّ ما بنفسه. روى كل ما يشغله. ما لم يبُح به للرجال في البحر، وفي القهوة. أعطته الشمس — في كلامها — إشارات. علَت الصخرة في مدى الأفق. صارت جبلًا عاليًا، تداخلت فيه سحب وتكوينات شفافة. تشابكت الألوان القزحية بما بدَّل زرقة السماء وانعكاساتها على مياه البحر. حل المكان والزمان في ملامح غائبة التفصيلات، وإن وشت في عمومها بعذوبة مُطلَقة، ولحظات ممتدة إلى غير انتهاء، وهتف: هنية، لرؤية وجه المرأة يتصاعد من تكاثف السحب البيضاء، واستعادت الذاكرة ما تصوَّرَ أنه نسيه، وخاطب أصدقاء طفولة وراحلين. عرف أن أوان الموت قد اقترب. عاد إلى البيت ليعدَّ نفسه. فاجأته نفسه بأنه يحيا مع المرأة، يناديها، يسألها، يجيب عن أسئلتها، يتذكران أيامًا مضت. اختلط الزمن، فهو لا يدري متى حدث ما حدث على وجه التحديد: تتسع ابتسامته لخجل أبدته ليلة الزفاف، يوبِّخها لوقوفها على الشاطئ — في غبشة الليل — حين تأخر البلانس عن موعد أوبته، يظهر الضِّيق لقولها: كل زوجة عندما تغضب، تذهب إلى بيت أبيها، وبيت أبي في الصعيد، فأين أذهب؟ يحزنه انخراطها في نشيج مفاجئ، بعد أن تزوَّج ثالث الأبناء: هل أحيا لأرى أبناءهم؟

فاجأه نداؤه باسمها «هنية». يناديها «أم عودة» منذ أنجبت للمرة الأولى. قال: أنت قد ذهبت عند الله. وأنا أعدُّ نفسي.

وخرجت الكلمات من فمه بطيئة، متعثرة: مرَّت حياتي، كما مرَّت حياتك من قبل.

وخالط صوته ارتجافة: هل نلتقي في الـ...

بدل الكلمة: الآخرة!

عانى جسمه حُمى غريبة. فتح عينيه على رؤية الحور العين، تتوسطهن أم العيال في شبابها القديم. ابتسم لعرائس البحر يراقصن جمعة العدوي وسباعي سويلم والمليجي عطية وحودة التيتي. حتى البهاء إسماعيل سعفان جلس تحت قدميه، وسأله عن أبيه. تعالى الأذان بالصلوات الخمس في مئذنة لا نهاية لارتفاعها، وانتقلت مقابر العامود إلى حدائق أجمل من أنطونيادس والمنتزه والشلالات.

لم يركب الرجال البحر، ومضى اليوم في الحلقة بلا بيع ولا شراء، واختفت العربات والفريشة من الساحة المقابلة. وأغلقت دكاكين وقهاوي السيالة أبوابها، وانصرف المصلون في الجوامع إلى تلاوة القرآن.

داخل قاسم الغرياني شعور مُبهَم، حزين ومقبض. الجد السخاوي شيخ، والموت حق. الشعور أقرب إلى الذنب. ناقش الجد السخاوي، ورفض آراءه، وضايقه، وسخر منه، وتمنى موته. صدَّق الجد السخاوي مواجهته للوحش داخل البحر، وقتله. رفض أن يركب البحر بدونه، هو السكوندو، يجب أن يلازمه. وحين خذلته عافيته أوصى بالغرياني مكانه.

هل يغفر له الجد السخاوي ما فعل؟

فاجأ الرجال بأنه لن يركب البحر.

كان يحب الجد السخاوي، وإن مال إلى مشاكسته. ربما دفعه عناد الجد السخاوي إلى الغضب والشجار، لكن مكانة الرجل ظلَّت على حالها، لم تتبدل. لم يتصور أنه يصعد البلانس، فلا يسبقه الجد السخاوي، توقعاته، وملاحظاته، وأوامره، وذكرياته التي لا تنتهي. لم يكُن يشغل نفسه بتجهيز البلانس قبل الإبحار، إمداده بالتموين من الماء والطعام والشاي والسكر والجاز والبنزين وألواح الثلج وصناديق الدخان والأدوية، التأكد من متانة الدفة، وسلامة الشراع، وطريقة فكه، ونشره، في مواجهة الرياح واتجاهاتها. وكان الجد السخاوي يجيد التنبؤ بأحوال البحر: تيارات المد والجزر، وارتفاع الموجة، وسرعة الرياح، والنوات وسحب الأمطار، وحرارة المياه، وكمية الرطوبة، والضوء، ومواعيد السفر، ومناطق الوفرة والجدب، والتطلُّع — بفهم — إلى الأفق.

أطلق شعر رأسه ولحيته، وأهمل نظافته الشخصية، ولم يعُد يتردَّد على حمام الأنفوشي، وغلب الحزن عليه في جلسات القهوة، وأسرف في المشي — بلا هدف — في شوارع بحري.

قال عبد الوهاب مرزوق: الموت علينا حق!

تقلَّصَت ملامحه بالتأثر: ضايقت الرجل كثيرًا في حياته.

قال حمودة هلول: كلنا كنا نشاكسه. ولم يكُن يغضب.

وربت كتفه في إشفاق: هل تقطع عيشك بيدك؟

كوكب الصبح

نادى الشيخ قرشي على إبراهيم سيف النصر عبر ميدان الخمس فوانيس. ابتدره ليطمئنه وهو يمسح النوم من عينَيه: خيرًا.

النهار في أوله.

الشمس لامست أسطح البيوت. أنفاس الصباح رطبة، وإن انتشرت رائحة البحر في الجو، وتشبعت الرطوبة بالملح. بدأ المستلقون لصق جدار أبو العباس ينهضون، ويطوون أغطيتهم، ووارب علي تمراز بابه المطل على شارع رأس التين، وفتحت نوافذ مصاريعها بما لم يعهده في هذا الوقت، وترامى نداء بائع الفول المدمس والبليلة، وعلا إيقاع جياد السراي المنتظم في عودتها من جولتها الصباحية.

قال: أذاع الجيش بيانًا في الراديو، يعلن فيه عن قيام حركة سماها البيان مباركة.

ازدرد ريقه: هل تظن؟

قال الشيخ قرشي: لا بد أن البيان سيُذاع ثانية. دعني أستمع إليه.

دفعته اللهفة إلى الخروج.

جلس في قهوة المهدي اللبان. فتحت الراديو على آخره. تتوالى المارشات العسكرية. يتخللها إذاعة بيان الجيش. سبقه — ولحقه — رواد القهوة. حتى الذين اقتصر جلوسهم على فترة ما بعد المغرب. كان نجاتي ينظف داخل القهوة، وأمامها، من آثار السهر إلى منتصف الليل، ويرتب الكراسي والطاولات، ويساعد عنتر عامل النصبة، في تسخين الحليب، وصف الزبادي والرز باللبن، في الثلاجة ذات الواجهة الزجاجية، وغسل الفناجين والأكواب.

قال إبراهيم سيف النصر: حدث ما كان يجب أن يحدث.

رنا إليه الشيخ أبو دومة بنظرة ود: لعل الحركة تستهدف إعادة الوفد إلى الحكم.

قال المهدي: لعل الإنجليز فعلوها لصالح الملك.

قال حمدي رخا: وأين أمريكا من الموضوع كله؟

قال المهدي وهو يعد الماركات: يا خبر بفلوس.

علقت النظرات بطريق الكورنيش.

لم يكُن ثمة ما يشي بتغير. لا جنود ولا سيارات عسكرية. الفلايك تصطاد في الميناء الشرقية، وصيادو السنارة أعطوا ظهورهم للطريق. أعداد قليلة يتمشون على الشاطئ، وأولاد التصقوا فوق سور الكورتيش، يتابعون صيد الجرافة. حتى عسكري خفر السواحل يمشي بخطواته المتمهلة، والبندقية تدلَّت من يده.

قال فهمي الأشقر متذكرًا: أمسك الولد الصغير حمامة ليست من البنية.

ومصمص شفتَيه في تصعب: أطلقها المغفل وقال إنها ليست ملكنا.

ورنا — بتلقائية — إلى السماء. تناثرت فيها غيوم بيضاء، صغيرة، متباعدة.

– لم أرَ مثل جمالها.

قال أحمد أبو دومة: ربما الملك أطار بنياته لحمايته.

قال فهمي الأشقر: الجيش أقسم يمين الولاء للملك. فلا شأن له بما يجري.

فاجأه أبو دومة بالسؤال: ماذا تكسب من هواية الحمام؟

قال فهمي الأشقر: إنها هواية. لا شأن لها بمكسب ولا خسارة.

قال حمدي رخا في شروده: ما أجمل أن يكون الإنسان حمامة ترى الدنيا من فوق.

قال إبراهيم سيف النصر: يكفيك النظر من سطح البيت!

قال أدهم أبو حمد وهو يستقر في كرسيه: علي ماهر رئيسًا للوزراء. تاني؟!

ووشى صوته بضيق: هذا الرجل مثل النبات الشيطاني. لا طعم ولا ثمر!

أزمع، في مرات كثيرة — بينه وبين نفسه — أن يغيِّر حياته كلها، لكنه كان يلتقط ملابسه، عقب صلاة العصر. ينزل إلى طريق الكورنيش. يميل من إسماعيل صبري. يُلقي التحية على الجالسين، أو يكتشف حضوره الباكر، فينتظر.

يداخله إحساس أن أيام جلوسه على قهوة المهدي اللبان قاربت على الانتهاء. اعتاد التأخُّر عن موعد اللقاء بملاغاة عبد الرحمن، طفله الصغير. ربما الأجدى أن يظلَّ معه في البيت. ليلة البيات في قسم الجمرك خلَّفَت في نفسه أثرًا، لم تفلح كلمات أصدقاء القهوة في إزالته، أو التخفيف منه. الحياة — أيام الإنجليز — في الجهاز السري والقتل والتعذيب والفرار والاختفاء، تختلف عما ينبغي أن يلقاه الآن. لم تزايله ملامح الضابط الشاب، شخطه، نطره، قوله الآمِر: ضعوه في الحجز!

هو لن يظل يتردَّد على القهوة إلى آخِر العمر. لا يتصور أنه يموت على كرسيه. لم تعُد ساقاه تتحملان نزول سلالم البيت، وصعودها، ولا المشي من البيت إلى قهوة المهدي اللبان. حتى القومة — في نهاية الجلسة — كانت مرهقة. يكتم حاجته إلى مَن يمد راحته، فيُعينه على القيام.

هؤلاء الجالسون معه أصدقاؤه. أخذ عليهم، وأخذوا عليه، وجد فيهم صداقة ومؤانسة ومودة، لكن النوم يعقبه اليقظة، والحياة تنتهي بالموت، والقطار له محطة وصول.

قال إبراهيم سيف النصر: لكن محمد نجيب أصبح قائدًا للقوات المسلحة.

قال الشيخ أبو دومة متذكِّرًا: محمد نجيب؟ أليس هو اللواء صاحب أزمة نادي الضباط؟

تبادلوا نظرات غير فاهمة.

قال أدهم أبو حمد: ولماذا علي ماهر؟

قال سيف النصر: لو جاءوا بسواه. فسنسأل: لماذا؟

قال المهدي اللبان: شاهدت هذا الصباح حافظ عفيفي في سيارة على الكورنيش.

رفع سيف النصر حاجبَيه: يتنزه؟!

قال حمدي رخا: لعله كان في طريقه إلى سراي رأس التين.

وهو يحك ذقنه بأصابعه: تصرف له احتمالاته.

قال حمدي رخا: أنا رأيت الملك وناريمان ومعهما الطفل في سيارة مغلقة على طريق الكورنيش.

قال سيف النصر: ربما ليس الملك. هل يتنزه وقت الخطر؟!

قال حمدي رخا: لا. هو. السيارة الحمراء لا يركبها سوى الملك.

قال سيف النصر: لعله انتقل من المنتزه إلى رأس التين. حرسه هناك!

تكرمشت ملامح أبو حمد: هل تتصوَّر أن بضعة ضباط يستطيعون أن يفعلوا شيئًا ضد الملك والإنجليز؟

وقال في نبرة متألمة: هل نسينا ما جرى لعرابي؟

قال زكي بشارة: إذاعة الشرق الأدنى أكدت أن الإنجليز والأمريكان لن يتدخلوا ما دامت أرواح الأجانب في سلام. وما دام الجيش الإنجليزي في القناة بعيدًا عما يجري.

قال أبو حمد: ماذا يفعل الجيش أمام السلاح البحري والحرس الملكي وسلاح الحدود؟

قال زكي بشارة بنبرة واثقة: واضح أنها حركة داخل الجيش.

ثم وهو ينقر بإصبعه على الطاولة: امتداد لمشكلة انتخابات نادي الضباط.

قال سيف النصر: البيانات وبرامج الإذاعة وتأليف علي ماهر الوزارة وتعيين محمد نجيب قائدًا للجيش. كل ذلك يؤكد احتمالات أخطر!

قال فهمي الأشقر: هذه حركة داخل الجيش. وإلا لما قبل صديق الملك علي ماهر رئاسة الوزارة.

وتنحنح ليزيل حشرجة في حلقه: لا أتوقع جديدًا. وافق الملك على طلب الجيش، فكلف علي ماهر بتأليف الوزارة.

ثم بلهجة مؤكدة: انتهى الأمر!

اتجه الشيخ أحمد أبو دومة إلى أدهم أبو حمد بنظرة مشاركة: يبدو أن ما كدت تفقد حياتك من أجله قد تحقَّق!

الفزع الهائل في العينين المتسعتين عن آخِرهما، انعكس بالارتعاشة في يده المدودة، الخائفة. ترك السكين مغروسة في البطن المتفجرة دمًا، وجرى. مال من شارع اللبان. أخذته انحناءات الشوارع والحواري. لا يدري إلى أين. تلاحقه صفافير وصرخات وأصوات فتح نوافذ وومضات ضوء وتناهي أذان من مسجد قريب. عينا العسكري الإنجليزي المتسعتان تسبقانه، تطاردانه، تلحَّان عليه. طالعته ظلمة البحر بأنوارها المتناثرة، المتباعدة، وامتدادات الأمواج في الشاطئ الرملي. والبيوت الصغيرة، المتساندة، على الشاطئ أطفأت أنوارها. اطمأن — بالتلفُّت — إلى غياب المطاردة.

ابتلع إحساسًا بالمرارة: أنا لم أعُد أثق في كل رجال السلطة.

واتجه إلى سيف النصر بنظرة متسائلة: وهذا النجيب. هل كان الملك يتركه حتى رتبة اللواء لولا أنه من رجاله؟!

قال سيف النصر: صحف المعارضة أكَّدت أن الضباط اختاروه لرئاسة ناديهم رغم معارضة الملك.

قال حمدي رخا: مهما تكُن صورة المستقبل فإنه لن يكون أسوأ من أيامنا الحالية.

ثم في لهجة مطمئنة: فلنأمل خيرًا!

ذلك النهار

صحا على طلعات الطائرات الحربية في سماء المدينة منذ الصباح.

قال زكي بشارة، إنه رأى — عقب الفجر — طابورًا طويلًا من الدبابات، يتجه إلى سراي رأس التين.

هل يبين الأفق عن جديد اختفت توقعاته؟

لم يكُن ثمة ما يعلن عن الثورة، سوى بيانات الراديو والأغنيات الوطنية، والدبابات المتناثرة في الميادين.

أحسَّ بغير المألوف في اقترابه من سراي رأس التين. الترام يعود في انحناءة الطريق إلى السراي. حشود من الناس، شكلوا حائطًا ممتدًّا من رصيف الكورنيش إلى محطة الترام النهائية. تداخلت الكلمات، واختلطت، وتشابكت، وهمست، وعلت. داخلها نداءات وضحكات ورنات سخرية وتعليقات مدغمة. تبين خلف الحائط البشري ثلاثة صفوف من الجنود. حملوا البنادق والرشاشات. عزلوا السراي — بمسافة — تمتد من قبل الحديقة الواسعة، إلى الشاطئ المطل على الميناء الغربية. خلَت المساحة إلى السراي التي أغلقت أبوابها ونوافذها، ومبنى الحرس الملكي المجاور، وقف فوق سطحه جنود، في أيديهم مدافع رشاشة وبنادق. حديقة السراي خالية، صامتة. حتى الأشجار المتناثرة لفها سكون، والمتحف البطلمي المجاور أغلق أبوابه، ومنع كردون الجنود المرور إلى نهاية خط الترام ومستشفى رأس التين. والْتفَّ القصر الصغير — على ناصية الطريق المُفضي إلى محطة الترام النهائية — بالسكون، وأغلق أبوابه ونوافذه، فيما عدا نافذة في الجانب المُطِل على الحديقة، وقف وراء ضلفتها المواربة وجه غابت ملامحه في تداخُل الظلال. حتى البيوت المُطلَّة على الساحة الواسعة، أغلقت نوافذها وشرفاتها، وإن أطلَّت أعداد قليلة من فوق الأسطح البعيدة.

تعرف إلى الكثير من جيرانه وأصدقائه، وقفوا وسط الناس: حمدي رخا، الشيخ قرشي، فهمي الأشقر، زكي بشارة، الشيخ أحمد أبو دومة، بائع الدندرمة أسفل البيت المجاور، كاتب المحكمة الشرعية بشارع فرنسا. كمال مصباح تاجر المانيفاتورة. وتعرف إلى وجوه ألف رؤيتها في جلسته على قهوة المهدي اللبان، وفي شوارع بحري، وبين المصلين في علي تمراز.

قال حمدي رخا: مَن كان يتصور؟

قال إبراهيم سيف النصر: بديهي أن مَن كتبوا ضد الملك كانوا يتصورون.

قال الشيخ قرشي: هذه إذَن نهاية أيام أربعة غريبة.

تخلى حمدي رخا عن شروده: ربما هي البداية. لكنها — بالتأكيد — ليست النهاية!

قال محمود عباس الخوالقة: حدث في الصباح تبادل لإطلاق النار. دقيقتان أو أقل. ثم سكت!

انطلقت — فجأة — رصاصات من ناحية قشلاق الحرس. رد عليها الجنود المحاصرون. ثم خرج من قشلاق الحرس يوزباشي يحمل علمًا أبيض، وطلب إيقاف الضرب.

كان حمدي رخا يتخيَّل ما وراء الأسوار، والباب العالي، والنوافذ المغلقة. إذا لمح سيارة حمراء في طريق الكورنيش، وضع انتباهه في عينيه، يتمنى أن يكون الملك داخلها. يقودها، أو يجلس في المقعد الخلفي. اللون الأحمر يقتصر على سيارات الملك وعربات المطافي. يجلس في الحديقة الواسعة، المواجهة لسراي رأس التين. يقرأ جريدة أو كتابًا تحت ظل الشجرة. يسترخي في القيلولة. تمسح نظراته الشاطئ، والصخرة في نهاية الأفق، والبيوت المتآكلة الحجارة، ومبنى الحرس الملكي، وباب السراي العالي. يتخيل ما يُروى عما بداخل السراي، ما لم يرَه في حياته، ولا خطر في باله. كالحواديت، أو كالخيال: الحدائق الممتدة إلى قلب البحر، تحوي من الورود ما لا يوجد إلَّا في الجنة. الرقصات العارية لسامية جمال، والنساء القادمات من السحر، والخمر، وأنفاس الحشيش، والأغاني والموشحات، والإيقاعات الهامسة والصاخبة، والمآدب، والأضواء الملونة، والخافتة، وأطباق الذهب والفضة، والملابس المبهرجة، والشماشرجية.

كان الناس يتصايحون لرؤية السيارات التي يأذن لها حصار الجنود بالمرور. مَن يتعرف إلى الجالس في السيارة ينطق باسمه: هذا الجالس بين حارسين في السيارة الجيب، بوللي شماشرجي الملك ... هذا هو السفير الأمريكي جيفرسون كافري ... هذا سليمان حافظ وكيل مجلس الدولة.

قال الشيخ قرشي: كنت أقرأ عن بوللي. لم أره إلَّا اليوم.

وتلون صوته بحيرة: صورته في بالي غير ما رأيته.

قال سيف النصر: كيف كنت تتصوَّره؟

قال الشيخ قرشي: تصورته بغلًا. فرأيته ضفدعة!

أشار ضابط في نحو الثامنة والعشرين إلى الجنود. دفعوا — بأيديهم — الصف الأول من الواقفين. توزعت الصفوف التالية، ثم عادت إلى الالتئام، وإن امتدت بينها انفراجة، تتيح للسيارات المضي داخل السراي وخارجها.

لمح عباس الخوالقة في عربة جيب رجلًا أسمر البشرة، يرتدي ملابس مدنية، يجلس بين ضابطين: هذا هو قريبك حلمي حسين.

قال عبد الوهاب مرزوق بسرعة: لم أقُل إنه قريبي؛ مجرد معرفة!

قال محمود عباس الخوالقة: إنه رأى الملك يقود سيارته الليلة الماضية بنفسه. معه زوجته وابنه والمربية، وإلى جواره شخص لم يعرفه. تلحقه سيارة أخرى بها بناته من الملكة فريدة.

قال خميس شعبان: هل يدبرون شيئًا ضد الملك؟

قال جميعي حميدة: لا أدري! إنهم هكذا من الصباح.

تساءل خميس شعبان: والحرس الملكي؟

قال جميعي حميدة: تبادل مع القوات المحاصرة بضع طلقات، ثم هدأ الموقف.

قال إبراهيم سيف النصر: هل يعزلون الملك؟

قال فهمي الأشقر: لن يتركهم الأمريكان أو الإنجليز يفعلون ذلك!

قال قاسم الغرياني لمنصور مكاوي: غدًا يخرج الإنجليز من معسكرات القناة، وتعود للعمل فيها.

قال منصور: أنا أخذت على حياة البحر.

نطقت ملامح إبراهيم سيف النصر بعدم التصديق لما روى عباس الخوالقة عن كوب عصير الدجاج الذي يشربه الملك كل صباح.

قال عباس الخوالقة في تأكيد: الملك لا يهمه الفلوس. يستطيع أن يصرف مائة جنيه في اليوم، فلا يتأثر جيبه!

قال الخوالقة: كانت الأبواب تفتح أمامنا لسيارات، يركبها سيدات شقراوات، أجنبيات الملامح، يرتدين ملابس كالعري.

قال عبد الوهاب مرزوق: الملك يطلب النساء من الألبوم.

قال جميعي حميدة: قيل إن الشيخ عبد الحفيظ عاد إلى علي تمراز من القائد إبراهيم، وأم المصلين أمس في صلاة الجمعة.

أطلقت المدفعية من خلف السراي طلقات منتظمة، واحدًا وعشرين طلقة، هلَّل لها الناس، ثم سكتت.

صحب إبراهيم سيف النصر حمدي رخا إلى بيته، في منتصف المسافة بين السلسلة ونهاية الميناء الشرقية. خلا امتداد أفق البحر — بامتداد الكورنيش — من عمليات الصيد، وإن تناثرت البلانسات والفلايك واللواتس والدناجل — ساكنة — في مساحات المياه. وكانت الساحة أمام دكان الحاج محمد صبرة خالية. حتى كراسي القعدة لم تكُن في موضعها، وأغلقت إحدى ضلفتَي الدكان. وبدا من تزايد الجالسين على القهاوي والأندية الشعبية والمطلين من النوافذ، في الناحية المقابلة للشاطئ، انعكاسات ما حدث. وتناثر — في نواصي الشوارع — جنود، وعربات عسكرية، ودبابات صغيرة.

نظر سيف النصر — من النافذة — إلى الميناء الشرقية.

كانت الشمس قرصًا أحمر في نهاية الأفق، وظلال الغروب زحفت على الجدران، وسعف النخيل في الرصيف المقابل للكورنيش يهتز بنسائم هادئة.

امتدت يد حمدي رخا إلى الراديو: ماذا جرى في السراي هذا النهار؟

سكتت الموسيقى العسكرية لصوت المذيع جلال معوض: «بني وطني؛ إتمامًا للعمل الذي قام به جيشكم الباسل في سبيل قضيتكم، قمت في الساعة التاسعة صباح يوم السبت ٢٦ يوليو ١٩٥٢، الموافق ٤ من ذي القعدة ١٣٧١، بمقابلة حضرة صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء. وسلمته عريضة موجَّهة إلى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول، تحمل مطلبَين على لسان الشعب.»

هذا إذَن سر حصار السراي من الصباح، وسر السيارات الداخلة والخارجة، تحمل وجوهًا اعتاد رؤيتها في صفحات الجرائد.

هل اعتزل الملك الحكم فعلًا؟ وأين ذهبت به المحروسة؟

أعاد سيف النصر التطلُّع إلى الميناء الشرقية.

البحر حصيرة، والموج يلامس الصخور ببطء. الشمس تحولت إلى نصف برتقالة هائلة، في نهاية مدى البحر. وثمَّة مراكب متناثرة في حدوة المياه الواسعة، فردت أشرعتها، وصياد طراحة يرمي شبكته، قبل أن تسود الظلمة تمامًا. وحركة المرور هادئة، لا تشي

بما جرى طيلة النهار. حتى طيور النورس اختفت، فأين تذهب؟ طيرانها فوق الشاطئ، فأين تذهب؟

تنبه لأذان العشاء من أبو العباس، تداخل بالأذان في البوصيري وياقوت العرش ونصر الدين.

مال — بعد الصلاة — علي المهدي اللبان.

فوجئ بزحمة الرواد على كراسيها.

قال المهدي اللبان: أعترف أني تصورت نجاح الجيش في الاستيلاء على الحكم نهاية الأحداث الغريبة، لكن خروج الملك ألغى تصوري.

كل ما جرى لا صلة له به، الجيش الإنجليزي يواجه المتظاهرين في ثورة ١٩١٩، والمتظاهرون يهتفون للجيش المصري في حصاره لسراي رأس التين. هو يحيا في غير زمانه.

قال إبراهيم سيف النصر: ما حدث كان متوقعًا. حتى الشيخ أبو دومة كان يتوقع ما حدث.

علا صوت أحمد أبو دومة بالغضب: ولماذا تسبقني بحتَّى؟ هل أنا أقل فهمًا من الآخرين؟

قال فهمي الأشقر: يقصد أنك مشغول بالتدريس عن السياسة.

قال سيف النصر: أثق أن خروج الملك كان مقررًا منذ البداية، لم يعزلوه في اليوم الأول لأنه كان بعيدًا عن القاهرة.

وتنهَّد: من حظ الإسكندرية أن تشهد خروجه!

وفاة الملك السابق.

تقاضى البائع مقابل نسخ الجريدة، وجرى، يسبقه النداء.

مات الملك؟ كيف؟

داخل إبراهيم سيف النصر إحساس بالخيبة. أحسَّ بما يشبه الدوار، والميل إلى الإغماء، ونبتت في جبهته حبات عرق. ظلَّت الجريدة في يده، لا يحاول قراءتها. هل قتلوه؟ وهل بدأ الجيش حمام الدم؟

تنبه على ضحكة الشيخ قرشي: ابن الكلب سرق فلوسنا.

وأعاد قراءة الجريدة بصوت مرتفع: وفاة الملك السابق أدبيًّا ومعنويًّا.

هتف سيف النصر بالمفاجأة: قتلوا الرجل على الورق ليفوزوا بتعريفة!

الآن ... عرفت

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي. إلى مَن تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملَّكتَه أمري؟ إن لم يكُن بك عليَّ غضب، فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل على سخطك. لك العقبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.»

من حزب النور لأبي الحسن الشاذلي:

«يا أله، يا نور، يا حق، يا مبين. افتح قلبي بنورك، وعلمني من علمك، وفهمني عنك، وأسمعني منك، وبصرني بك، وأقمني بشهودك، وعرِّفني الطريق إليك، وهونها عليَّ بفضلك، وألبسني التقوى منك. إنك على كل شيء قدير. اللهم اذكرني وذكِّرني، وتب عليَّ، واغفر لي مغفرة أنسى بها كل شيء سواك، وهب لي تقواك، واجعلني ممَّن يحبك ويخشاك، واجعل لي من كل هم وغم وضيق وهوى وشهوة وخطرة وفكرة وإرادة، ومن كل قضاء وأمر فرجًا ومخرجًا. أحاط علمك بجميع المعلومات، وعلت قدرتك على جميع المقدورات، وجلت إرادتك أن يوافقها أو يخالفها شيء من الكائنات. حسبي الله، وأنا بريء مما سوى الله. الله لا إله إلا هو. عليه توكَّلت، وهو رب العرش العظيم.»

طالت وقفتها أمام المجيرة الملاصقة لبيت أمين عزب.

كان الليل قد جاوز منتصفه، والأضواء انطفأت في النوافذ، أو أغلقت عليها، ومصابيح غاز الاستصباح تلف شارع إسماعيل صبري برمادية، وإن استطاعت تبين أحجام البنايات والظلال. قهوة فاروق، البعيدة، وحدها، ترامت منها أنوار، ونداءات، وأغنية لعبد الوهاب:

يا اللي نويت تشغلني طاوعني وابعد عني.

كانت تقلب الرأي فيما قررت، عندما أخبرها سيد بخروجه مع الرجال في رحلة صيد. لم يكُن قد ركب البحر من قبل. وافق على دعوة قاسم الغرياني، لطرد الضيق من نفسه. ما حدث يساوي صلاة استخارة. الله أعلم بحالها وما تعانيه.

هل تستطيع؟

والتوبة، وظهور السلطان، وليلة الحلم، وياقوت العرش، وزواجها من سيد، وبيت البلقطرية، والحياة المستقرة؟

هي حاولت. بذلت كل ما استطاعت. فتحت الكتاب. ذهبت إلى المشايخ البعيدين: الشاطبي والقباري والسمك والسماك وجابر الأنصاري. حتى سيدي العجمي لجأت إليه. دعت أولياء الله بفك كربتها. تحمل، وتلد. لا يتكرَّر قتلها بالسقط المفاجئ. ابتلعت ما لطم اسمه أذنها للمرة الأولى من أعشاب نصح بها الحاج محمد صبرة، الكافور وبصل العنصل والكمون التركي والشمر وشوك الجمل والبردقوش. طحنتها، وصحنتها، وخلطتها، وابتلعتها، مغلية، أو في سفوف. علقت في رقبتها سلسلة تحمل حجاب دم من الزجاج الأخضر الشفاف، يمنع النزيف ويوقفه. سعت إلى شاطئ الأنفوشي في الصباح الرمادي، رمت حجابًا حشته الشيخة نبيهة بالآيات والأدعية والطلاسم. حتى ما لم تكُن تتصوَّر أنها تفعله رضيت به: شربت، وأكلت، ما تقرفها رائحته، لحست بطن الترسة، مشت في دم الحمامة المذبوحة، الساخن، خاضت مياه البحر وهي لا تحسن العوم، تحممت بالماء المتخلف من حلاقة سيد لذقنه، أكلت قطعة خبز مغموسة في بول سيد، جرعت كوبًا من دم الترسة الساخن، تغسلت بليفة ميت، دخلت قبرًا مهجورًا، تمددت في نعش، أمضت الليل مع المساخيط في المتحف البطلمي برأس التين، تلقت في حجرها فأرًا ميتًا، وثعبانًا منزوع الأنياب.

طلاقها من سيد هو ما لا تريده، وتخشاه. قد لا يطلقها، لكنه سيتزوج عليها. تعلم أنه لن يرزق بأبناء، وإن كانت تثق أنها لن تصبح سيدة بيتها. ستشاركها أخرى البيت، وحياة سيد.

لم تعُد تحتمل، وإن كتمت الرغبة في أن تترك البيت، وتمضي.

إلى أين؟

يا سيدي السلطان: هل أخطأت فتخليت عني؟ يعلم الله أني — منذ زواجي — ألزم البيت. لا أعرف غير حضن سيد. حتى البيت المهجور، لم أعُد أذهب ناحيته.

هل يرضيك خراب بيتي؟

يا سيدي ياقوت: لا قيمة لشقة أسكن فيها بمفردي. هل تقيم المرأة في شقة بلا رجل؟ وهل أعود إلى ما نسيته؟

الصراخ في أعماقها، والعمر يجري، والمعايرات لا تنتهي، والإنجاب أمل تدفع حياتها ثمنًا لتحقيقه. الثمرة تشغلها، ولا تهمها الوسيلة.

الشيخ حماد!

تخايل أمامها: الجسم الضخم، والقدمان الحافيتان، والصوت الزاعق، والقميص الخيش، والعصا الغليظة.

هل يكون؟

في ليلتها الخامسة ببحري، لم تكُن عرفت البيت المهجور. غاب محمود عباس الخوالقة. دس الرجل عشرة قروش في يدها، وفتح باب الشقة.

دهمها خوف: أوصاك محمود أن أظل إلى الصباح.

قال وهو يلكزها بيده: لا شأن لي بمحمود. جئتِ لعمل، وأخذتِ أجرك.

وصفق الباب وراءها: مع السلامة!

نزلت السلالم إلى حارة أبو شال. طالعتها المجيرة في شارع إسماعيل صبري. بدت أملًا في فضاء الليل. لمحت شبحًا يدخل من الباب: قامة ضئيلة، ينفرج ما بين ساقَيها، فصاحبها يرتدي بنطلونًا. صرَّ الباب للانفراجة التي أحدثها الرجل بما يكفي لدخوله. غاب في العتمة. لدقائق، ثم ترك المجيرة، دون أن يُعنى بإغلاق الباب. خمنت أنه دخل لفك حصره.

تسللت — تعاني الخوف — من الفتحة الطولية، الضيقة، في الباب الخشبي. فاجأها دفع العصا لباب الكوخ الصفيح ناحية الشارع الخلفي. أيقظها الصرير، فانتترت من نومها. كتمت الصرخة لرؤية العصا، والخوف من الفضيحة، واتجاه الشيخ إلى الخارج.

ظلَّت في مكانها، متكومة حول نفسها. ترقب الباب الموارب، حتى تسلل نور الصباح.

تركت الكوخ على أطراف أصابعها.

فوجئت بنومه أمام الكوخ، بالقرب من الباب الموارب. أسند رأسه على بقايا جوال فارغ، ووضع العصا أمامه.

قضت اليوم في البحث عن مكان تلجأ إليه إذا حل الليل، حتى تبينت البيت المهجور بشارع سيدي داوود. دفعته برفق، فانفتح. جاست داخله. اطمأنت — لخلوه من الأثاث — بخلوِّه من السكان.

تردَّدَت على البيوت، واستقبلت في بيت سيدي داوود. التباهي بالفعل يلغي كتم السر. إذا سكت الشيخ حماد، فهو ما تأمله، وإذا تكلم، فمَن يصدقه؟

نفذت من الفتحة الطولية، الضيقة. طالت وقفتها وسط تلال الجير والرمال والزلط، وشكاير الأسمنت والقفف والأجولة الفارغة، وضوء خافت أعلى مئذنة علي تمراز، وكشافات السيارات تومض في شارع إسماعيل صبري، وتختفي.

قال لها سيد وهو يغادر البيت: بيت سليم البشري بدءوا في هدمه.

حدجته بنظرة متأملة: أي بيت؟

قال بلهجة محايدة: البيت الذي كنتِ تسكنين فيه.

قالت لمجرد أن تناقشه، تعطي وتأخذ، تدفعه إلى الكلام معها: البيت في شارع سيدي داود.

أشاح بيده: لا أحد يعرف سيدي داود. إنه جزء من سليم البشري.

– ياه!

اكتفت بالأحرف الثلاثة، وإن لم تجِد ما تقوله. تقلص داخلها بانقباض لم تدرك سببه.

مدَّت أصابعها المرتعشة.

دهشت للارتباك في داخلها. تسللت تحت القميص إلى البطن. لامست خشونة الجلد. انتفض جسمه، فاستعادت أصابعها، وأغمضت عينَيها.

ظلَّت في مكانها. لا صوت إلا أنفاس الشيخ كالشخير. لاحظت استجابته الهادئة، الساكنة.

فرج ما بين ساقَيه.

نفضت الملاءة عن جسمها، وتسحَّبَت. وخز القميص الخيش ساعدها. ثم زادت من الْتِصاقها. بقي في سكونه. فتسللت أصابعها إلى بطنه.

بآخِر ما عندها، جذبته إلى صدرها، وتمدَّدَت تحته.

غاب في تصرفاته الهادئة، خوفها من التصرفات الصاخبة. حرص فلم يضغط بجسده الضخم عليها. حتى اللعاب المتخلف من فمه على كتفها، مسحه بأصابع مترفقة.

حين نفذت من الفتحة الطولية الضيقة، إلى شارع إسماعيل صبري، رأت — من بعد — جرسونات قهوة فاروق، يرفعون الكراسي والطاولات، ويغسلون الرصيف.

مالت من الشارع الخلفي لعلي تمراز، ومنه إلى شارع الشوربجي.

مضت — بخطواتها المهرولة — نحو البلقطرية.

في هذه اللحظات، التي يطلع فيها الصباح، كان الشيخ جابر برغوت يغادر جامع علي تمراز. يحدوه إصرار في السفر إلى القاهرة.

أدى صلاة الفجر، واستأذن من مقام سيدي الأنفوشي.

مضى عليه ما لم يحصره من الأشهر والأيام، منذ اجتباه ولي الله ياقوت العرش، واصطفاه لحضرته، وخصَّه بالسير حتى يقبض المعنى، ويتمكَّن منه. تطهَّر من جنابة الغفلة. عادى حظوظ الدنيا، وأحب حظوظ الآخرة. رفض الدنيا بحذافيرها، وغاب عن نفسه وجنسه. فرَّغ قلبه مما سوى ربه. اكتفى بورد واحد: إسقاط الهوى، ومحبة الولي، فيستحق تبليغ ما يأمره به ولي الله لإصلاح النفوس والأحوال. استبطأ تأخُّر الفتح، وانبساط أنوار العناية، ووجود الإقبال، وتحصيل المعارف والأسرار والأنوار والمواهب والفتوحات والكرامات والمكاشفات، إشارة السماء للخروج من المحنة.

السفينة تغرق، ولن يكون بوسع أحد — بعد تمام الأمر — حتى أن يُبدي الندم.

إذا كان السلطان قد حذر الناس، فأهملوا التحذير. لم يحل وجود ياقوت العرش والبوصيري وعلي تمراز ونصر الدين ومكين الدين والأنفوشي وغيرهم من أولياء الله في الحي، دون ارتكاب المباذل والشرور. التفَّت القلوب إلى ما سوى الله، والتعلق بالأغيار، وغرق الناس في الغفلة، وانغمسوا في الذنوب والشهوات والعوائد. تشوهت النفوس بأفعال المعاصي، تساقطت الأهِلَّة من المآذن، ومالت المآذن كأنها تهم بالسقوط، وطمست الآيات وأبيات البردة في الزوايا، وتآكلت المقرنصات، وانطفأت الشموع فوق الأضرحة والمقامات، وعلا الأذان في غير وقته، وتمكنت الخيبة، وغلب اليأس، وحدث القنوط. عاد الدين غريبًا، كما كان.

إذا كان ذلك ما حدث، فإن الأمر يجاوز الأئمة، لهم وقارهم. لم يعُد من ملجأ إلا أقطاب الأقطاب. معادن أسرار الذات الإلهية، والمميزين بطوالع أنواره. فضَّلهم الله في الدرجة، وفي الرسالة واللطائف والخصائص. أقامهم في مقام الولاية العظمى، وكشف لهم حقائق الأشياء بنور الاسم. صفوا من كدورات البشرية، ورقوا إلى مجال المشاهدات، فصفت

أحوالهم بالتجرُّد، وزكت أعمالهم بالإخلاص. بشَّرَتهم الملائكة بأنهم أولياء الله، يحفظونهم من أمره — سبحانه — حتى يدخلوا الجنة. ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾.

عليه أن يظل قائمًا بما ألزمه أولياء الله بأمره. يلجأ إلى رئيسة الديوان والأقطاب الأربعة: سيدي إبراهيم الدسوقي، سيدي أحمد البدوي، سيدي أحمد الرفاعي، سيدي محيي الدين عبد القادر الجيلاني. سلاطين العارفين، ملوك الحضرة الإلهية، أصحاب الكرامات الخارقة، والأنفاس الصادقة، ذوي المحل الأرفع من مراتب القرب، والتقديم على سائر خلق الله، والمنهل العذب من مناهل الوصل، والقلوب الممتلئة بالمعارف والأسرار، وغوامض العلوم التي يعجز عنها فهمه. أحبهم الله، ودعاهم إليه، فرأوه بنوره، نور ذاته. لا كيف، ولا أين. امتلأت قلوبهم بمراقبة جلال الذات الإلهية، وحظوا بمناجاة ربهم من وراء الحجب النورانية. يعرض ما انتهى إليه الأمر. يذكر الأسماء والتفصيلات. يجتهد في التذكُّر. لا يفلت حتى ما قد يبدو تافهًا وبلا معنًى. يعطي انتباهه لسادة الديوان، خصهم الله من أنواع الكرامة والمكاشفة والفضل. يتحرون الأمر، يناقشونه، يقلبونه. ثم يقضون بالصواب. تمضي به الطريق إلى معارج النور. تحل الواردات الإلهية، فيحتضنها بالإقبال والتعظيم. يموت الجور وأهله، ويتطهر الثوب النقي من الدنس، ويصلح الزمان: يغاث الخلق، تفتح حصون الضلالة ومدائن الشرك والقلوب الغلف. تُزال البدع. تُقام السنن والحدود والتعزيزات. يُقبِل الناس على العبادة والشرع والديانة والصلاة في الجماعات. تأمن السبل. تظهر البركة والعدل. تؤدي الأمانة. يُرد كل حق إلى أهله. تنعم الأمة، وتطول الأعمار، وتتضاعف البركات. يذهب الشر، ويبقى الخير.

أخذ الدستور من سيدي ياقوت العرش.

أذن له ولي الله في صحو كالمنام، أو منام كالصحو. قال: سافر على بركة الله! ستنال مبتغاك بإذنه.

اللهم بثبوت الربوبية، وبتعظيم الصمدية، وبسطوات الإلهية، وبقدم الجبروتية، وبقدرة الوحدانية.

هنـــداوي